
www.ibtesama.com/vb
محمود عوض
من وجع القلب
** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
فن الحب
مشكلة أن نحب مصر
حسن فى القفص
رجل بأثر رجعى
فى منتصف جملة موسيقية
الرحيل
نزاهة نظام الحكم
دار المعارف
www.ibtesama.com/vb

محمود عوض



مِن وجع القلب

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عوض . محمود
من وجع القلب/محمود عوض. - ط ١ . - القاهرة : دار المعارف .
٢٠٠٧
٢٨٤ ص ، ٢٥سم
تدمك ٢ ٧٠٨٢ ٠٢ ٩٧٧
١ - القلب - أمراض
أ - العنوان
ديوى ٦١٦،١٢

رقم الإيداع ٣٢٧١ / ٢٠٠٧ ١/ ٢٠٠٧/١

تصميم الغلاف الفنان
شـريف رضـا

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مقـــدمة

فـــى الصفحـــات التالية قد يجـــد القارىء قضايا متعـــددة . قضايا باتســـاع العلم والفن والسياســـة والدين والأدب . هى قضايا متعددة .. لكنها بالنســـبة لى همٌّ واحدٌ . فى القلب هم ، بل هموم ، عديدة . فى القلب مواجع شـــتى . مواجع مع ، ومن ، واقعنا وعصرنا وأحلامنا وأشواقنا .

وحينما كنت أســـتجمع الصفحات التالية من جديد لكى أضعها أمام القارىء .. كنت فـــى نفس الوقت أســـتعيد بعضا من عمرى وأوجاعا من قلبـــى دفعتنى إلى طرق تلك المعانى والأبواب فى حينها .

ومنـــذ صـــدر كتاب « بالعربى الجريح » كان البعض يعاتبنـــى على تلك العودة المتأخرة إلى القـــارىء هنـــا .. بعد فترات من التفاعل مع القارىء هنـــاك .. فيما وراء الحدود . فى الواقـــع أن هذا لم يكن اختيارا ، وإنما اضطرار . فلا يوجد كاتب فى الدنيا يختار بإرادته الإحتجاب عن القارىء . فهذا التفاعل مع القارىء هو وحده الأوكســـيجين الذى يتنفســـه الكاتب ليستمر فى قلمه رحيق الحياة .

ولم يكن انتقالى بين القضايا المتعددة إلا اســـتمرارا لهذا التفاعل . فالقضايا المتعددة هنا هى بمثابة آلات العزف فى الموسيقى ، التى يمكن لتعددها أن تصبح نشازا ، ويمكن أيضا أن يصبح انســـجاما فى اللحن الواحد الجامع . فكما يتلاحق الخريف والربيع ، والصيف والشـــتاء ، تتلاحق اهتمامات العقل ومواجع القلب لكى تضع أمام القارىء شـــرائح بالعمق لهذا القلم ، وهذا الكاتب ، وهذا العصر .

وحينما تنفتح عدســـة الكاميرا على مشهد محدد فإنها تسجل اللحظة فى وقتها . لكن حينما تخترق تلك اللحظة حاجز الزمن تتأكد القيمة مرة بعد مرة .

وفـــى الصفحات التالية مواجع كثـــيرة ، وأحلام أكثر ، أهمها على الإطلاق الحلم بأن نصبح أكثر فهما لواقعنا وعصرنا . فمن الفهم يبدأ التغيير . ومن التغيير يبدأ المستقبل .

محمود عوض

أفكار ومعانى



اضواء النجوم ونجوم الأضواء
لوحة بالألوان الطبيعية

حينما تلقيت هذه الدعوة للكتابة عن العلاقة المركبة بين النجوم والأضواء ، تقاطع فى عقلى مزيج من الإشـــارات الحمراء والخضراء . فى الموضوع أيضا مناسبة حزينة هى رحيل الفنانة ســـعاد حســـنى.. مما فجر لدى الجماهير العريضة بركانا من الحزن لم يجربوه من سنوات طويلة . لكن هذا الرحيل بحد ذاته اختلطت فيه المأساة بالملهاة .

فى المأساة فجيعة حقيقية لنجمة جمعت من الأضواء والفن وحب الناس الكثير . وبعد عشـــر سنوات من الغياب المتقطع والسفر وإعادة السفر والمرض والصحة.. هاهى ذى تموت فى الغربة وحيدة ومريضة ومكتئبة ، بالســـقوط من شـــرفة شقة بالطابق السادس من مبنى ضخم بمدينة لندن.. يوجد فيه ستة مصريين على الأقل ، بعضهم يعرفون سعاد حسنى من زمن . ومع ذلك فلم يعرف أحد منهم بإقامة سعاد حسنى فى نفس المبنى إلا مع ذيوع خبر موتها فى نشرات الأخبار . فقط .. توجد فى هذا المبنى أيضا سيدة مصرية لم يعرف أحد بإقامتها الدائمة الســـابقة فى نفس المبنى . والآن ، بأثر رجعى ، يتبين أن ســـعاد حسنى كانت تقيم فى شقة تلك السيدة تحديدا باعتبارها المحطة الأخيرة فى حياتها .

فى المناســـبة أيضا شىء من الكوميديا الســـوداء . فمع حرص تلك السيدة المصرية على مصاحبة جثمان صديقتها سعاد حسنى فى الطائرة إلى القاهرة ، وفاء لها وإصرارا على أن تلازمها حتى النظرة الأخيرة ، إذ بتلك الســـيدة تتحول فى مطار القاهرة من صديقة وفية إلى مشتبه فيها . البعض أفتى – كبداية .. ومن غير علم ولا معلومات – بأن سعاد حسنى لم تســـقط من الدور الســـادس وإنما جرى إســـقاطها بفعل فاعل . من تلك المقدمة انطلقت الاتهامات فى شتى الاتجاهات .

هناك – ولله فى خلقه شئون – من أفتى بأن جهاز المخابرات الإسرائيلية «الموساد» له يد فى موت سعاد حسنى . والغريب أن الذين أفتوا بذلك هم من الذين يستسهلون إعطاء «الموساد» ما لا يستحقه .. وهو كثير .. بينما هم فى نفس الوقت يغضون الطرف عما يقوم به «الموساد» فعلا .. وهو خطير .

هناك من أفتى أيضا بأن أصواتا عالية من الخبط و«الرزع» قد سمعها السكان فى الشقق المجاورة بذلك المبنى المحدد ، وأن تلك الأصوات العالية استمرت لنحو خمس عشرة دقيقة وبعدها جرى سقوط (أو إسقاط) سعاد حسنى من الطابق السادس ، وأن لدى الشرطة البريطانية بلاغا من هؤلاء السكان الجيران هو بحد ذاته أحد أدلة الاحتمالات الجنائية فى موت سعاد حسنى . ولأن الكلام بغير جمرك فلم يذكر أحد اسما واحدا لأولئك الجيران الشاكين ، ولا أرقام شققهم ، ولا رد فعل الشرطة البريطانية بعد تلقى الشكاوى المزعومة . وبالتالى فالباب مفتوح لكى تصبح هذه الشرطة بدورها متواطئة فى قتل سعاد حسنى .

هناك من الأقرباء دما من استكثر على نفسه توجيه الشكر إلى تلك السيدة المصرية القادمة مع جثمان سعاد حسنى من لندن . وبدلا من ذلك حث الشرطة المصرية على إلقاء القبض عليها والتحقيق معها لأنها تخفى مجوهرات سعاد حسنى ومذكراتها المكتوبة.

كان هؤلاء الأقرباء دما لسعاد حسنى يثبتون بذلك أنهم أبعد ما يمكن عن معرفتها . فهى لم تكن فى أى وقت من هواة المجوهرات .. ولا كانت أيضا ضليعة مع الورق والقلم والكتابة والتأملات الفلسفية . كما أن عشقها للحياة وثقتها بقدرتها على الاستمرار فى العطاء الفنى يتنافى أصلا مع فكرة تسجيل مذكرات . كل المسألة أن السيدة المصرية الصديقة الأخيرة لسعاد حسنى ومضيفتها فى شقة لندن قد جاءت معها فى الطائرة بكل متعلقات سعاد حسنى وحقائبها . ولأنها رفضت تسليم تلك الحقائب إلى بعض هؤلاء الأقارب دون بعضهم الآخر.. وقررت من البداية تسليم الحقائب إلى سلطات مطار القاهرة للتصرف فيها قانونيا.. فقد أصبح التشهير بها هو الانتقام الفورى .

هناك بعد ذلك من هم أكثر شبقا وتنافسا على الأضواء مع سعاد حسنى.. حية وميتة. هؤلاء ذهبوا إلى مطار القاهرة (وفاء أو حزنا ؟ جائز). إنما بمجرد ظهور الكاميرات انهالت الدموع خصيصا .. مصحوبة بفتاوى مؤكدة بأن فى القصة جريمة قتل . ومن باب الاحتياط.. يصبح واجبا القبض على نفس تلك السيدة المصرية القادمة من لندن مع جثمان سعاد حسنى.

من هؤلاء أيضا من بدأ دفاعه عن نفسه بالهجوم على الآخرين : نحن لم نقصر فى حق سـعاد حسـنى فى أى وقت وإنما شملناها بالرعاية التليفونية والبريدية والمالية الدائمة . لكن .. ما الحل وسعاد حسنى نفسها كانت تغير محال إقامتها وأرقام تليفوناتها .

منهم كذلك من بدأ القول: إن الدولة لم تقطع إنفاقها المالى على علاج سـعاد حسـنى إلا بعد دفع مبلغ ٨٥ ألف جنيه اسـترلينى . ومع ظهور المزيد من الكاميرات رفع البعض الآخر الرقم إلى مليون ونصف مليون جنيه اسـترلينى ، قبل أن تطلب سـعاد حسـنى من الحكومة ذات الحسـب والنسـب والأصول التوقف - سـعاد التى تطلـب التوقف - عن الصرف على علاجها فى لندن .

وحتى لا يضيع هذا الكرم الدعائى مع الحكومة هباء أمام الكاميرات .. فقد ذكر هؤلاء البعض أنهم تحركوا فورا لتكوين جمعية لأحباء سعاد حسنى - سندريلا السينما المصرية - وتخليد ذكراها . جمعية باسم «جمعية السندريلا للإستثمار العقارى» بأموال خاصة وأسهم حين ميسـرة . إنما كل المطلوب من الحكومة هو توفير عشـرة أفدنة أو عشـرين فدانا من الأرض المناسـبة مجانا لحساب أعضاء الجمعية ، الذين سيصبحون محبين لسعاد حسنى بخاتم النسر .. حتى لا تضيع الدموع على رحيل سعاد حسنى هدرا .

كلمات وأشياء تفلق الحجر .

وهكذا تحولت المأساة إلى ملهاة سوداء . والملهاة جوهرها ركوب الموجة ، أو بلغة السينما : سرقة الكاميرا . سرقتها من الجمهور العريض الملتاع ، ومن سعاد حسنى نفسها جوهر المأساة .

فقط نسـى الجميع - تحت غلالات دموع الكاميرات - أن أهم ما لصق بسـعاد حسنى نفسها هو أنها فى أى عمل فنى كانت «تسرق الكاميرا» . أما التعبير الدقيق الصحيح فهو أن الكاميرا هى التى كانت تسرق سعاد حسنى . ففى الكيمياء الغريبة بين الفنان والكاميرا اعتادت الكاميرا - الصماء أصلا - على الإنحياز إلى وجوه دون أخرى . وفى تاريخ السينما المصرية تحالفت كاميرا التصوير مع وجه سعاد حسنى منذ بدايتها الأولى فى فيلمها الأول سنة ١٩٥٩ . هذا التحالف استمر يخدم سعاد حسنى ثلاثين سنة متواصلة . بعدها ترددت الكاميرا بعض الشـىء فتحولت رحلة سـعاد حسـنى الفنية من السعادة إلى الشقاء .. ومن النظر إلى الكاميرا كحليف مؤكد إلى التشكك فيها كخصم محتمل .

لقد بدأت رحلة العذاب .

❑❑❑

فى الحديث عن الشهرة والأضواء والنجوم ينجذب قلمى - غصبا - إلى أم كلثوم .. ثم إلى يوم محدد ضمن شريط معرفتى بها . لقد رفعت سماعة التليفون فى بيتى لأجد على الطرف الآخر الصديق الموسيقار بليغ حمدى . وبكل مودة وتفاؤل يتصل بليغ حمدى لينقل الرسالة : «ثومة تريدك غدا فى ستوديو ٤٧ بالإذاعة لتحضر التسجيل الأول للأغنية - أغنية «حكم علينا الهوى» (من كلمات عبد الوهاب محمد وألحان بليغ حمدى) .

استغربت تماما من الدعوة . فلا أنا حضرت من قبل أى تسجيل لأم كلثوم .. ولا هى أصلا من طبعها دعوة أى أحد - خارج نطاق الأغنية ذاتها - لحضور التسجيل . وفى ردهات الإذاعة كان محفوظا عن ظهر قلب أنه فى المرات التى تحضر فيها أم كلثوم لتسجيل أغنية جديدة لها .. لا يمتنع الإقتراب من الأستوديو فقط .. وإنما من الطابق كله . فى نفس الوقت لم أكن أتصور أن «بليغ حمدى» سيخترع لى من خياله دعوة لا أساس لها . لكننى تصورت فقط أنه ربما حماس زائد من جانبه للحنه وموسيقاه . هكذا شكرته.. واعتذرت .

بعد أيام اتصلت أم كلثوم نفسها . لم تحك لى عن الأغنية أو التسجيل . ولا أنا أيضا فتحت سيرة مكالمة بليغ حمدى . فقط هى اقترحت على أن أمر عليها فى «الفيللا» صباح غد بسيارتى . فى الغد ذهبت . وقبل أن أغادر السيارة كانت أم كلثوم قد دخلت اليها لتجلس على المقعد المجاور وتقول لى : هيا بنا إلى الإذاعة .. ثم بدأت ، كعادتها ، تتمتم بصوت خفيض بعض آيات القرآن الكريم .

فى الأستوديو جرت مفارقتان . فبينما الفرقة تضبط آلاتها فى قلب الأستوديو .. إذا بأم كلثوم تدخل مع بليغ حمدى ومعى فى مداعبات ومجاملات رقيقة وكريمة . أما حينما تغادر هى إلى داخل الأستوديو ليبدأ التسجيل فقد كان بليغ حمدى يفاجئنى هامسا بتساؤلات قلقة : مالها أم كلثوم ؟ انها لاتبدو فى كامل لياقتها . اللهم اجعله خير . بعدها أوقفت التسجيل لبعض الوقت وعادت إلينا حتى يأتوا لها بكوب من اليانسون . لا قلق . كلها دوخة بسيطة عابرة . الدردشة والمداعبات من جديد ثم محاولة استكمال التسجيل وإرهاق أم كلثوم من جديد .. وقرار منها : لينصرف الموسيقيون الآن .. وربما نكمل غدا .

في سيارتي عائدا معها إلى منزلها بالزمالك راودتني أفكار متقطعة أساسها التفاعل مع حالة الإرهاق غير المسبوقة التي شهدتها لتوى في صحة أم كلثوم . هي لم تكن ظاهريا تشكو من شيء . لم تكن تشكو أيضا من حالة نفسية تعاني منها مؤخرا بمناسبة مشروعها الخيري الذي تفكر فيه .. واختارتني ضمن مجلس إدارته لأجد نفسي الأصغر سنا . هي أيضا كان نبض عروقها عزة نفس وكبرياء .

بمجرد أن استدرت بسيارتي يسارا إلى كوبري «أبو العلا» كنت قد استجمعت شجاعتي وقلت لها أنصاف أفكار متقطعة : يا ثومة .. هل الغناء المنتظم للجمهور نص مكتوب وملزم في علاقتك مع الناس و .. و .. و .. تاه الكلام .

ردت أم كلثوم بقفزة مفاجئة : أعتزل الغناء ؟ سهل جدا . سهل ومريح . إنني حتى أستطيع أن أجد عذرا مناسبا لذلك . مع هذا فإنني أعرف في داخلي أنني لو قررت الاعتزال فهذا معناه نهايتي . لا أستطيع . لا أستطيع . إنني أحسب عمري بعدد مرات وقوفي على المسرح .

بعدها حشر الصمت نفسه بيننا . السيارات والشوارع وإشارتان أو ثلاثة وصدق فظيع في كلماتها . إن كلماتها الأخيرة عند بيتها كانت : هيه ؟ هاتيجي التسجيل بكره ؟

إنني لم أكن أعلم بعد أنه تسجيلها الغنائي الأخير . لهذا قلت : أكيد . لكن .. هل أنت بخير ؟ نعم . كانت بخير .

أو – لم تكن ؟

□□□

كل الفنون ترتبط بالنسب . كلها أولاد خالة . الرسم والكتابة والغناء والموسيقى والتمثيل والإخراج والتصوير فيها من المشترك بأكثر مما فيها من المختلف . كل المبدعين أيضا عجينة متقاربة . قد تختلف نسب المكونات وعناصر التفاعل . لكن الكيمياء في النهاية هي نفسها : التفاعل بين المبدع وجمهوره . الانضباط والحزم والخيال والثقافة والمعرفة والخبرة والتطور كلها أساسيات . إنما في نهاية المطاف : الفنان يعطى إبداعا .. متوقعا أن يأخذ حبا . قد نجد من يبدع لإرضاء المؤرخين بعد جيل أو جيلين . لكن الإبداع الغالب هو المتجه إلى هؤلاء الناس .. في هذا المجتمع .. ولهذه اللحظة .

ومع ذلك فإن لحظة الكاتب تختلف عن لحظة نجم السينما ، مثلا قد يظل كاتب فى عطائه سـنة وعشرا قبل أن يتعرف مجرد عشر أشـخاص على صورته .. أو حتى يتعرفوا إليه أصلا . إنما السينما تحديدا يحكمها قانون آخر .

فى السينما هناك «النجاح الفورى» . بفيلم واحد ناجح يصبح الممثل مشهورا عند آلاف من الناس . وحينما يصبح الممثل نجما تتسـع شـهرته بامتداد الملايين .. وربما تؤلف من أجله القصص وتتحدد ميزانيات الأفلام .

فى السينما قانون السوق . فإذا ابتعدنا عن لغة الاقتصاد يصبح التعبير هو قانون شباك التذاكر ، أو ثقة الموزعين وإقبال المولين توقعا لمجىء الأرباح من شـباك التذاكر أملا فى أن الطلب سيفوق العرض .. والإيرادات ستجىء بأضعاف المصروفات .

لكن هناك أيضا وجها آخر لنفس العملة . فمقابل «النجاح الفورى» هناك «الفشل الفورى» . فيلم واحد يكسب فيصبح النجم فى سابع سماء . فيلم آخر لنفس النجم يخسر فيصبح النجم فى سابع أرض . قانون السوق . لا مشاعر هنا . لا حب ولا كراهية . ولا رحمة أيضا .

فى نجومية سعاد حسنى السينمائية اشتغل قانون السوق لصالحها طوال معظم مشوارها . فى نجومية أم كلثوم كانت السـوق موجودة لكن مع بعض التحسـينات . شـهرة أم كلثوم ونجوميتها جاءت ببطء ، ومن قرية إلى قرية ، وبغير ميكروفون ولا حتى إذاعة فى بداية البداية . هذا يحافظ على توازن الفنان نفسيا لأطول فترة ممكنة ويجعله أيضا أكثر اطمئنانا إلى الزمن وأكثر ثقة فى التعامل معه .

□□□

مع رحيل أم كلثوم توقف الزمن .. مؤقتا .

ويوم الجنازة اتصل بى الموسـيقار الصديق محمد عبد الوهاب لكى يرتب معى الذهاب سويا لحضور الجنازة المنطلقة من مسجد عمر مكرم بميدان التحرير بالقاهرة . لكننى ذكرته بأن الزحام يصيبنى بضيق فى التنفس ، وبالتالى فلن أذهب إلى الجنازة مكتفيا بالتسمر فى البيت أمام جهاز التليفزيون لأتابع مسيرة الجنازة على الهواء .

وقـال لى عبد الوهـاب : معـك حـق . أنـا أيضـا سـأبقى فى المنـزل وأحـزن مـع التليفزيون .

قلت له معترضا : لا .. لا .. القياس هنا مختلف . أنت محمد عبد الوهاب ولابد من وجودك بشخصك فى الجنازة ليراك الناس جميعا مشاركا لهم فى أحزانهم . هذا وإلا ستنشر جميع صحف العالم العربى غدا فى صفحاتها الأولى خبرا متكررا بأن محمد عبد الوهاب – شريك أم كلثوم الفنى ورفيق مشوارها – لم يحضر الجنازة . هل أنت مستعد لمثل هذه الصدمة من الجمهور فيك ؟

فكر عبد الوهاب لبعض لحظات قبل أن يغير رأيه من جديد متمتما : معك حق . أنا ذاهب إذن الى «مسجد» عمر مكرم .

الجنازة تزاحم فيها مئات الآلاف من الناس الحزانى . لكن مع متابعتى لها فى شاشة التليفزيون لم ألحظ عبد الوهاب فى المقدمة . لم ألحظ حتى أن الجنازة بدأت فى التحرك .

نصف ساعة على الأكثر ودق جرس التليفون بجوارى من جديد . إنه محمد عبد الوهاب .

فى هذه المرة كلماته مرتعشة فعلا : شفت شورتك ؟ أنا سمعت كلامك وذهبت . وابتداء من فندق هيلتون ، يعنى من قبل ميدان التحرير بمسافة ، وجدت بحارا متلاطمة من البشر مما جعل السائق مضطرا إلى المسير بالسيارة ببطء .. منتهى البطء . يا دوب .. مترا بمتر . وبدأ بعض الجمهور الحزين يتعرف إلىّ داخل السيارة . ومن نوافذ السيارة دخل الناس بأعناقهم ليحاصرونى بأصواتهم الباكية الخانقة لى ولهم مرددين .. يا أستاذ عبد الوهاب.. أم كلثوم راحت .. فريد راح .. وانت البركة فيك..

قلت له : والله شعور طيب ..

قاطعتنى كلماته المرتعشة : أنا عارف أنه طيب . لكن يجوز معناه أيضا أنهم يعتبرون أننى اصبحت من العهد البائد . شكلها كده . لا يا عم . أنا لست محتاجا لإثبات حزنى على أم كلثوم لأى أحد . الله وحده يعلم بفجيعتى وفجيعة الغناء العربى كله من خسارتها . إنما .. الروح حلوة .. أنا كدت أموت اختناقا من الزحام . زحام الناس والمشاعر .

فكرت بسرعة ثم قلت له : على العموم فاتت لحظة المشاركة فى الجنازة . بالليل سيخف زحام الناس كثيرا والنظام فى سرادق العزاء سيكون أكثر انضباطا . من هنا أقترح عليك الذهاب فى المساء إلى سرادق العزاء .

سكت عبد الوهاب للحظات بدت كالدهر ثم قال لى بلهجة اشتراطية : طيب أنا موافق إنما بشرط .. رجلى على رجلك .. ونروح سوا فى سيارتك أنت حتى نكون معا وننصرف معا .

فى السرادق ليلا دخل محمد عبد الوهاب متوكئا على ذراعى ، فقد كانت متاعب عينيه وقتها لا تسمح له بالرؤية لأبعد من أمتار قليلة . وفى صدر السرادق جلسنا . وبعد لحظات نهضت من مقعدى فسألنى عبد الوهاب مخضوضا : رايح فين ؟

قلت له : أبدا . إنما وجهاء الدولة الموجودون لازم نفسهم يجلسوا جنبك لزوم الكاميرات .. وبعدين أنا لمحت أحمد فؤاد حسن من مسافة وأريد أن أسأله عما جرى ظهرا فى الجنازة . كلها خمس دقائق وأعود إليك أو قريبا منك .

فى أذن أحمد فؤاد حسن قائد الفرقة الماسية شرحت له الموقف همسا وقلت له : إننى سوف أتسلل منصرفا بعد قليل فى الاستراحة بين مقرئين .

اعترض أحمد فؤاد حسن بدوره قائلا لى : الأستاذ جاء معك بسيارتك وتتركه هنا بمفرده ؟ كيف سيعود إلى بيته ؟

قلت له : حينما يقف عبد الوهاب فى انصرافه باحثا عن سيارة توصله سيجد بدل السيارة مائة . إنما المهم عندى هو أن يستمر موجودا فى السرادق لأطول فترة ممكنة.

وكما عرفت فيما بعد فإن هذا هو بالضبط ما حدث . كلما انتهى مقرىء من التلاوة وبدأ جزء من الجمهور فى الانصراف ليحل محله جزء أخر كان الجميع يلمحون عبد الوهاب فورا من بعيد . وبدل الانصراف يسارا كانوا يتجهون يمينا ليقولوا له تنويعات من نفس المعنى .. يا أستاذ عبد الوهاب البقية فى حياتك .. أم كلثوم راحت .. وفريد راح .. وأنت البركة فيك .

فى الواحدة صباحا اتصل بى عبد الوهاب . وبرغم الإرهاق البادى فى صوته ومبادرته بالشكوى من قيامى بالتخلى عنه .. إلا أنه كان مستريحا نفسيا تماما لما جرى . مستريحا ومكلوما أيضا . وفى تلك اللحظات تأكد لى من جديد عمق الفجيعة الشخصية التى يعانيها عبد الوهاب من رحيل أم كلثوم . بالطبع هناك العمر والعشرة والتاريخ والمشاركة والذكريات . وهناك أيضا جانب آخر برحيل أم كاثوم فقد عبد الوهاب أكبر ناشر صوتى لموسيقاه باتساع العالم العربى .

لكن ، بمعنى من المعانى ، استمرت فى العقل الباطن لعبد الوهاب فكرة الخوف من أنه ربما يكون قد أصبح من «العهد البائد» . الخوف من الزمن .

والزمن فى حياة الفنان هو مجده , وهو أيضا شبح العجز عن إعطاء المزيد من العطاء.

□□□

فى سنوات سعاد حسنى كان الزمن بخيلا وسخيا . حليفا وعدوا . دافعا لها وسيفا عليها . هى من أسرة رقيقة الحال ضمت ١٧ أخا وأختا . الأب خطاط موهوب لكنه مزواج . البنت الصغيرة اللهلوبة تمثل على نفسها وتعيش فى تقاطع من خلافات دائمة بين أبوين مطلقين . فى السياق أصبحت شقيقة كبرى لها من الأب – هى نجاة – مطربة فى الإذاعة .. وصغيرة . سعاد أيضا شاركت أحيانا فى برامج " بابا شارو " للأطفال بالإذاعة المصرية .

إنما ألتحول الكبير الأول فى حياة الصبية سعاد حسنى جاء من مكتشفها : عبد الرحمن الخميسى .

لم أعاصر عبد االرحمن الخميسى . وبالدقة تقابلنا ثلاث أو أربع مرات فى عصر ما قبل التاريخ . أقصد تاريخ بدايتى المتواضعة فى الصحافة . ومن موقع هو أبعد ما يمكن عن نموذج عبد الرحمن الخميسى . لكن فيما قرأته عنه وأعرفه كوقائع عامة .. فإنه كان شخصية استثنائية . لم يكن كاتبا فقط .. وإنما كاتب وشاعر وقصاص ومترجم وموسيقى ووفدى وناصرى ومسرحى وناشر ومنشور ودائن ومدين وعاشق ومعشوق ومستور ومفلس وعاطل وصاحب فرقة مسرحية وجائع ثم هو سبب اختفاء الكباب من بر مصر بين ليلة وأخرى . لم يبق فيما قرأته عنه سوى أن يكون عبد الرحمن الخميسى : ضابط احتياط . وبجسمه فارع الطول ، كان من الممكن أن تصدق عليه .

عبد الرحمن الخميسى اذن هو المكتشف الأول لسعاد حسنى . عنده قصة طقّت فى دماغه اسمها «حسن ونعيمة» ليست ابتكارا ولا اختراعا ولا فتحا مبينا . إنما أصبحت فكرة رحبت الإذاعة المصرية بها أولا كمسلسل يومى لثلاثين حلقة أصبحت بطلته السيدة «كريمة» مختار فى دور «نعيمة» باعتبار أن الإذاعة تعتمد بالدرجة الأولى على الموهبة الصوتية . ومؤخرا فقط سمعت حوارا مذاعا مع السيدة كريمة مختار قالت فيه ، بكل محبة

ورقة ومودة ، إنها مع تطور الحلقات لاحظت أن الخميسى يجىء معه إلى الأستوديو بفتاة شابة متقوقعة ومنكمشة فى أحد أركان الأستوديو بغير أن تنطق بكلمة . مع الوقت عرفت كريمة مختار أن الخميسى يفكر فى تحويل المسلسل الإذاعى فيما بعد إلى فيلم سينمائى ، وأن تكون هذه الفتاة المنكمشة – اسمها سعاد حسنى – هى «نعيمة» على الشاشة البيضاء ، وأنه يجىء بها فى كل تسجيل بتنبيه واحد عليها : اجلسى هنا صامتة تماما لكى تتعلمى من كريمة مختار فن استخدام الصوت فى التعبير عن مشاعرك الداخلية .

الخطوة التالية أصبحت مشـروع فيلم ة، ليكون من إخراج هنرى بركات المعروف عنه أنه مخرج أفلام فاتن حمامه والرومانسية المرتبطة فى نفس الوقت بشباك التذاكر .

أما المفاجأة الحقيقية فهى أن يصبح محمد عبد الوهاب (ضمن شركته مع عبد الحليم) هو منتج الفيلم . وبتلك الصفة يصبح محمد عبد الوهاب هو قانون السوق .. شخصيا . قانون اللعب فى المضمون والمغامرة فقط بأسماء لها رصيد مسبق عند الجمهور وفى شباك التذاكر . فى هذه المرة أصبح لمحمد عبد الوهاب الفنان الصوت الأعلى من عبد الوهاب المنتج . إنه هنا لايغامر بفلوسه فقط على وجه جديد مجهول لفتاة اسمها سعاد حسنى ، وإنما شريكها فى البطولة هو أيضا وجه جديد لمطرب ناشىء اسمه محرم فؤاد .

لكن الفتاة الشابة الطموحة سعاد حسنى حينما طلب محمد عبد الوهاب مجيئها ليرى بنفســه أولا صلاحيتها للشاشــة البيضاء فوجىء بها تقول له بكل جرأة : والنبى يا أستاذ عبد الوهاب .. أنا فى دور «نعيمة» نفسى كمان .. أغنى .

سألها عبد الوهاب بكل وقار واهتمام : والله ؟ لك فى الغناء ؟ وكمان جدا جدا ؟ طيب سمعينى حاجة أنت حافظاها وتغنيها .

وبجرأة أكثر .. إذا بتلك الفتاة تغنى لعبد الوهاب أغنيته الشـــهيرة «كل ده كان ليه» . تنحنــح عبــد الوهاب بكل صبر وأدب قائلا لها : صوتك فيه حاجة (جيدة ؟ ســيئة ؟ لم يوضح) إنما يا شــاطرة .. خبطتين فى الرأس توجع . كفاية دلوقت خبطة واحدة . كفاية نغامر بك أولا .. كممثلة . أما الغناء فله مشوار ثانى لك مع نفسك وصوتك .

غامــر عبد الوهــاب إذن كفنان ضد قانــون عبد الوهاب كمنتج ، فــى زمن تفتح على المواهب . والسينما المصرية فى ذروة عطائها الإنتاجى وكبار الفنانين يتحمسون للاكتشاف

والاستكشاف . الزمن أيضا صبور مع الموهبة . فحتى اللحظة التى قامت فيها سعاد حسنى ببطولة فيلمها الأول هذا فى سن السابعة عشرة لم تكن أكثر من موهبة خام قابلة للانطفاء أو اللمعان . لم تكن حتى تعرف القراءة أو الكتابة .

رعاية عبد الرحمن الخميسى لسعاد حسنى جعلته يصبح مع الزمن واحدا من ثلاثة كشافين كبار لمواهب تلك الفتاة وصاحب فضل أساسى فيما ستصبح عليه عند الملايين من الجمهور .

كان إصرار سعاد حسنى على التعلم هو الأساس وسباقها مع الزمن أتاح لها بطولة أفلام بعد أفلام .. بعضها عادى المستوى وبعضها أصبح علامات مميزة بحجم فيلم «القاهرة ٣٠» عن قصة لنجيب محفوظ وفيلم «الزوجة الثانية» عن قصة لأحمد رشدى صالح .. وكلاهما من إخراج صلاح أبو سيف .

ومع ذلك كان الزمن الذى هو حليف سعاد حسنى فى تلك المرحلة .. هو الذى يدخرها لدور عمرها فى بطولة فيلم «خللى بالك من زوزو» عن قصة لصلاح جاهين وألحان لكمال الطويل وسيد مكاوى .

□□□

فى نيويورك تقابلنا .. أنتونى كوين النجم السينمائى الأمريكى الكبير (ومن أصل مكسيكى) .. وأنا . كانت المناسبة هى دعوة من صديق مشترك للبقاء فى نيويورك أسبوعين أو ثلاثة ومتابعة التصوير الخارجى لفيلم جديد من بطولة أنتونى كوين . وبتلك الصفة ، وباستثناء مواعيد التصوير ، فقد أصبحنا نحن الثلاثة نقضى معظم الوقت معا .

فى إحدى المرات قال لى أنتونى كوين مداعبا : أنت تذكرنى بشبابى .

وأردت أن أرد إليه المجاملة فقلت له : وأنت تذكرنى بزوربا اليونانى .

انكمشت فجأة ابتسامة أنتونى كوين وقال لى : أه .. أنت تنكأ جرحى . فهذا الفيلم تحديدا هو الأقرب إلى نفسى وقلبى من بين كل ما قمت بتمثيله . وفى نفس الوقت هو أيضا معركتى الدائمة مع جمهورى .

كانت المفارقة كبيرة وموحية ولم ينجل غموضها إلا مع شرح أنتونى كوين . قال : تتذكر طبعا أن «زوربا اليونانى» هى قصة من الأدب اليونانى بطلها هذا باسم زوربا . إنسان

بسيط وتلقائى وعفوى ومحب للحياة والناس والطبيعة ومتواضع فى طلباته لكنه طموح فى أحلامــه وبداخلــه قدر كبير من براءة الأطفال .. الخ . المشــكلة هــى أن هذه هى تركيبتى النفسية فعلا .. وما أطمح لأن أكونه فعلا . لكن ترجمة هذا إلى دور على الشاشة تحتاج إلى مؤلف وسيناريست ومخرج ومنتج يكونون جميعا بقدر الحماس نفسه .

ثم ســكت أنتونى كوين قليلا قبل أن يضيف : حينما قرأت تلك القصة اعتبرت أننى وجدت كنزا . وبعد مشوار طويل نجحت فى تحويل القصة إلى فيلم على الشاشة . وبقدرة قادر اتســع جمهورى الســينمائى حول العالم ليصبح بالملايــين . وأينما ذهبت بدأ الناس ينادوننى باســم زوربا . حتى الموسيقى الشــهيرة فى الفيلم وأقوم بالرقص على نغماتها .. أصبح الناس يطلبونها منى حيثما ذهبت . بالطبع كان هذا يسعدنى تماما ويوقظ إنسانيتى لأن هذا هو ما كافحت طوال النصف الأول من عمرى لكى أكونه . لكن مع الزمن اكتشفت بــأن علىَّ أن أكافح فى النصف الثانى من عمرى لكى أقنع جمهورى بأننى قادر على أداء شــخصيات أخرى على الشاشة .. قد لا تكون بنفس الثراء الإنسانى كما فى حالة زوربا . لكنها قد لا تقل فنا أيضا .

□□□

شــىء من هذا ربما يكون قد حدث أيضا فى حياة ســعاد حســنى السينمائية . لكن .. بينما فى حالة زوربا اليونانى كانت الشخصية مطروحة من السابق فى عمل أدبى متكامل وممتــع فى حد ذاته ويعرفه كل قراء الأدب اليونانى .. إلا أن فيلم «خللى بالك من زوزو» كان شيئا مختلفا .. من نبت ظروفه ومجتمعه وزمنه .. وبغير أصل أدبى .

فى البلد نكسة كبرى منذ يونيو ١٩٦٧ ، وجراحة شاملة للحياة المصرية وإصرار متناه علــى أن تكــون حرب يونيو فصلا فى قصة ولكنها ليســت خاتمة القصة ، وجيش جديد يجرى بناؤه تحت القصف والقصف المضاد ، ومليون شــاب يشــكلون هذا الجيش معظمهم مــن المتعلمين وخريجى الجامعات أتاحهم اســتثمار ســابق فى مجانيــة التعليم ، وحرب استنزاف وزعيم يرحل ورئيس جديد يتولى السلطة وسؤال يفرض نفسه على الجميع : لماذا يتأخر انطلاق الجيش لتحرير الأرض ؟

وســط هــذا كله ، بل ومع هــذا كله ، لابد أن تمضى الحياة ولا تتوقف . الســينما لم تتوقف . لكن ماذا تقول الســينما لملايين المعبأين المشــتاقين ليوم الثأر ؟ وفى حالة صلاح

جاهين تحديدا حينما يتحمس للكتابة للسينما ، ماذا يقول ؟ إن قال جادا راح فى داهية . وإن قال هلسا خان المليون جندى فى الجبهة . إذن .. ما العمل ؟

جاء العمل فى هذا الفيلم «خللى بالك من زوزو» واحدا من الإجابات على جمهور سنة ١٩٧٢ . لا سياســة بالمرة وإنما قصَة حب .. قد تبدو ســاذجة لأول وهلة ومجرد تسلية . إنما البطلة فتاة بســيطة شــقية لهلوبة متعلمة من بين ملايين الفتيات فى مصر الجديدة . فتاة لا تتبرأ من ماضيها ولكنها تثق بنفسها ومستقبلها وتستطيع القول فى الضوء الساطع : إنها تحب الحياة وتدرك خياراتها ومستعدة لتحمل النتائج .

وحينمــا اختار صلاح جاهين ســعاد حســنى لتكــون فتاته هذه فى الفيلم الســينمائى فقد أصبح هو المكتشــف الثانى لها بعد عبد الرحمن الخميســى . صلاح أيضا يشــترك مع الخميسى فى كونه صاحب «سبع صنايع» .. شاعر ورسام وممثل وصحفى وزجال ومؤلف وسيناريســت وقبل هذا وبعده .. عجينة خالصة من الموهبة والرقة والرومانســية والأحلام الكبيرة .

من بين الأحلام أن يكون الفيلم غنائيا , وســعاد حســنى بطلته ترقص وتغنى . حتى هنا : لا مشكلة . لسعاد صوت غنائى مقبول وهى غنت فعلا فى أفلام سابقة لكن من غير أن تــترك بصمــة صوتية غنائية ، إلى أن كيمياء الفن والحظ عند إشــارة مرور ذات يوم فى قلب القاهرة .

فى الإشــارة لوحت ســعاد حسنى من سيارتها إلى الموسيقار كمال الطويل فى سيارته : نفسى أغنى .. ونفسى موت أغنى من ألحانك بالذات .

وبأســلوب كمال الطويل المجامل رد عليها بقوله : إن شــاء الله يا سوسو .. أنا كمان أحب إنك تغنى .

بعدها ذهب كل فى طريقه .. فإشارة المرور انفتحت . والإشارة خضراء .

فى المســاء تليفون من صلاح جاهين ، وعشرته الفنية مع كمال الطويل عميقة وناجحة وسابقة : أنا عندى سعاد فى البيت .. أنت صحيح وعدتها إنك تلحن لها ؟

أســقط فى يد كمال الطويل وجرجر قدميه إلى بيت صلاح جاهين ليجد ســعاد حسنى وآخرين والحكاية فيلم جديد والشغل فيه بمرحلته الأخيرة وسيد مكاوى انتهى من تلحين

أغنية باسـم الفيلم . والآن .. هذه هى الأغنية الرئيسـية يا عم كمال حسب القصة . أغنية «يـا واد يـا تقيل» . البطلة أمامك والمنتـج وراءك ولا مفر . عايز بيانو ؟ أنا جاهز به لليوم ده .. تفضل .

تمعن كمال الطويل فى الكلمات . بسيطة وشعبية وتملأ النافوخ خبط لزق . إنما القصة إيه ؟ والبطلة من ؟ خلاص يا كمال ، حكينا لك القصة عشـر مرات ، وشـخصية البطلة عشرين مرة . البيانو جاهز ، ولا مفر .

بمجرد أن جلس كمال الطويل إلى البيانو فى بيت صلاح جاهين تبخر نصف حماسه : يا صلاح .. هذا ليس بيانو .. هذا بوتاجاز متنكر فى شكل بيانو .

سـواء هى طبيعة كمال الطويل ، أو حظ سـعاد ، أو شـقاوة صلاح جاهين ، أو كيمياء اللحظة ، فإن ما جرى فى نصف السـاعة التالى شـىء لا يصدق . لقد ترك كمال الطويل البيانو واتجه إلى باب الحجرة ووقف ينقر الإيقاع على خشب الباب ملحنا الكلمات كوبليه بعد كوبليه .. وصلاح جاهين واقف إلى جواره بجهاز تسـجيل . فى تلك الليلة لم يعرف أحد – بعد – أن لحنا يمكن أن يولد بهذه الطريقة ويتدفق به كمال الطويل بهذه السلاسة كمـا لـو أنه مولود باللحن فى داخله . لم يدرك أحد أيضا أن ما يجرى سـيصبح سـريعا قنبلة الموسم .

إنمـا الأكثـر أهميـة هو أن الجميـع لم يتصور أن كمـال الطويل يمكـن أن يعود إلى التلحين بمثل تلك المصادفة . فى تلك الفترة كان قد هجر التلحين من أصله .. وانسحب قبل سـنوات فى منتصـف لحن وضعه لصديق عمـره عبد الحليم حافـظ وأغنية «بلاش عتاب».. فيما اعتبره عبد الحليم مفاجأة عمره .. فمشـواره الفنى مع كمال الطويل سابق وناجح ومبهر .

وفى عشـرات المرات ، بعضها كنت شـاهدا عليها فى بيت عبد الحليم حافظ أو فى بيتى أو وسـيطا عند كمال الطويل من طرف عبد الحليم .. لم يتوقف أملى فى أن يسـترد كمال حماسه ويعود إلى التلحين مرة أخرى .. ولعبد الحليم . الصداقة موجودة والود مستمر وتهانى كمال بأغانى عبد الحليم الجديدة من ألحان بليغ حمدى متكررة . إنما .. أين أنت يا كمال من الموسيقى ؟ موجود .. لكن بعيد عن الموسيقى .

الآن .. حتى بعد أن وضع كمال الطويل لحن أغنية «يا واد يا تقيل» في بيت صلاح جاهين ، نسي الموضوع تماما وسافر إلى الإسكندرية . وبروايته هو فيما بعد .. فإنه لم يكن متأكدا بدرجة كافية من أن صوت سعاد حسني سيكون قادرا على التعبير عن الروح التي وضعها في هذا اللحن الخفيف السريع .

بالإسكندرية قالت له زوجته ذات صباح : ألن تسافر إلى ستوديو مصر بالقاهرة اليوم ؟ هل نسيت موعد تسجيل أغنية سعاد ؟ ومنذ متى تترك ألحانك هكذا كما لو أنها بلا صاحب ؟ على الأقل تتأكد من حسن التنفيذ .

❑❑❑

في موقع التنفيذ والتسجيل باستوديو مصر بالقاهرة وجد كمال الطويل كل شيء تمام .. باستثناء لحنه وصوت سعاد حسني . الفرقة الموسيقية مدهشة وعازفوها مقتدرون وقائدهم أوركسترالي بديع .. واللحن – ظاهرا على الأقل – منضبط . إنما النتيجة صيني بدل العربي .. أو أوركسترالي بدل الشعبي .. أو فصاحة بدل الشقاوة . طيب . متشكرين يا أساتذة وتعالى هنا يا عمر يا خورشيد (عمر خورشيد عازف الجيتار) .. يا محمود (محمود عفت عازف الناي البديع) ومعلهش يا صلاح (جاهين) سأشرح لك فيما بعد بيني وبينك .

كمال منه للموسيقيين وبالتبعية للمغنية والمؤلف : يا أساتذة .. يا إخواننا .. معايا لو سمحتم . فلنبدأ من أول وجديد . هذه سعاد حسني وليست سعاد محمد . القصة بطلتها بنت أمها عالمة في شارع محمد علي . بتقول لولد بتحبه : يا واد يا تقيل يا مشيبني .. ده أنا بالي طويل وانت عاجبني .. بس يا إبني .. بلاش تتعبني .. علشان عمرك ما ها تغلبني .. معايا يا أساتذة ؟ الغناء هنا يكون كده .. الآلات المهمة كده .. السرعة كده .. الإيقاعات كده .. يا أساتذة .. نجرب مع بعض ؟ كمان بروفة تاني .. وتالت ,

بعد ساعات من الحفظ والتجربة والتسجيل وإعادة التسجيل وساعة بعد ساعة رضي كمال الطويل عن لحنه واستلقى على كرسيه بالغ الإرهاق ، استعدادا للعودة بسيارته إلى الإسكندرية . لكن سيد مكاوي دخل عليه راجيا : يا أبو كمال .. إشرافك على شغلك نتيجته الشيء المدهش الذي سمعته . طيب أنا أعمل إيه ؟ من يشرف لي على شغلي ؟ أنا في طولك وعرضك . لحني أمانة تحت إشرافك .

فى الساعات المبكرة من الصباح التالى عاد كمال الطويل إلى الإسكندرية . بعد أسابيع خرج الفيلم إلى الأسواق «مسويا الهوايل» فى شباك التذاكر .. بأغانيه على ألسنة الملايين .

من تلك اللحظة تحولت سـعاد حسـنى عند جمهورها ، بل وفى قرارة نفسـها ، إلى «زوزو» . حتى فى التسـجيل الموجود بصوتها على تليفونها المحمول كانت تقول : «أهلا وسـهلا .. هنـا زوزو .. زوزو النـوزو كونوزو» . وفى مداعبات المصريـين اليومية وغزلهم أحيانا أصبح مألوفا اسـتخدام تعبيرات من نوع : يا واد يا تقيل .. ما تقولش أمين شـرطة اسـم الله .. ولا دبلوماسى ؟ هى عبرت وأعطت فأجادت . والنتيجة المدهشة من الناس : شلال من الحب .

□□□

بعدها مثلت سـعاد حسـنى أفلاما عديدة تالية ، بعضها حتـى تنويعات على تركيبة «خللـى بالـك من زوزو» .. تغنى وترقص وتمثل .. كما فى فيلم «أميرة حبى أنا» الذى قام كمـال الطويـل بتلحين كل أغانيه . كلها أيضا دخلت فـى قاموس الملايين حينما يريدون التحدث عن «الدنيا ربيع والجو بديع .. قفل لى على كل المواضيع» .

إنما اللمسـة السحرية فى علاقة سعاد حسـنى مع نفسها ، وعلاقتها مع جمهورها ، استمرت مرجعيتها هى «زوزو» . بالضبط كما عشق أنتونى كوين دوره فى زوربا .. وصارع بعده ليقنع جمهوره بأنه .. إلى جوار زوربا .. يمكن أن يعبر عن شخصيات أخرى .

مشكلة سعاد حسنى أكثر تعقيدا . هى امرأة أصبحت نجمة شباك . هى أيضا سندريللا . هى ثالثا تمثل وتغنى وترقص . وبالتالى يصبح عليها أن تحتفظ باستمرار .. ليس بجمالها فقط .. وإنما بكامل لياقتها البدنية والجسـمانية . لقانون السوق هنا — أو شباك التذاكر — شـرطان صارمان مع هذه الشـريحة من النجوم : قوة الإرادة .. بالإضافة إلى تحويل الزمن إلى عنصر محايد . وبينما الإرادة ممكنة .. إلا أن حيادية الزمن لن تتجاوز التسامح لبعض الوقت .. إنما ليس طوال الوقت .

مع الزمن اسـتجد خصم آخر : المرض . فمع إصابة سـعاد حسـنى بشرخ فى العمود الفقـرى ، وعـلاج خاطىء فـى البداية ، أصبحت آلامها لاتطـاق . بعدها أصبحت نفس الأدويـة التى تسـكن آلامها هى التى تسـبب لها زيادة الوزن ، وهو مـا يؤدى بدوره إلى

ابتعادها عن حالة اللياقة البدنية التى تريدها لنفسها . وكلما نظرت سعاد حسنى فى مرآتها بحثا عن «زوزو» تجد أن «زوزو» تصبح أبعد .. وأبعد .. وأبعد . الحلم يهرب . وفى فراغه يجىء شىء آخر : الاكتئاب .

□□□

ذات يوم اتصل بى محمد عبد الوهاب . إنما الصوت غير الصوت . والتفاؤل انقلب إلى تشاؤم . وخفة الظل تحولت إلى مجرد أداء للواجب بالسؤال الروتينى عنى اعتمادا من عبد الوهاب على مداعبته المتكررة : أنت ابنى الشقى .

كتمت عن عبد الوهاب انطباعاتى وتظاهرت بعكسها محاولا العودة به إلى طبيعته فى المئات من مكالماته السابقة . أبدا . اكتئاب .

كنت أستطيع التخمين بمناسبة وسبب هذا الاكتئاب . إنه رحيل يوسف وهبى الذى هو من جيل وربما من عمر عبد الوهاب . الآن هو بالغ الحزن ولم يعد يجد للحياة معنى .

كانت الكلمات الأخيرة شذوذا كاملا فى قاموس عبد الوهاب . هو اعتاد محايلة الحياة.. وملاطفة الزمن.. حتى يلاطفاه . من الأطباء يعرف الكثيرين . الانضباط .. هو نفسه نموذج له . النوم المبكر واليقظة المبكرة والمشى داخل شقته لمدد محددة والأكل المسلوق ولا سجائر أو منغصات ؟ كله موجود . البعد عن الهم والغم والإنفلونزا والبرد والهواء الملوث.. كله تمام . إنما المشاعر والأحاسيس ؟ وفراق الأحباب ؟ والزمن .. الزمن .. الزمن .

قلت لعبد الوهاب : بصراحة أنت عملت كثيرا للخروج من أحزانك على أم كلثوم . الآن .. لماذا لاتجرب تغيير نمط حياتك ؟

بعد أن قلت تلك الكلمات تمنيت أن أسحبها من جديد . هذا عبد الوهاب شديد الخبرة بالناس والحياة وأنفق من وقته الكثير سابقا لكى ينصحنى ويشد من أزرى فى مواجهة منعى من الكتابة فى جريدتى وأزمات عابرة أخرى بعيدة تماما عن محيط اهتمامه ومصالحه . كيف أعكس الآية وأستبيح لنفسى الآن إسداء النصح له ؟

وعبد الوهاب يسايرنى : يعنى أغير حياتى ازاى بعد هذا العمر ؟ أروح أسهر فى كباريه ؟ أبعد عن البيت ؟ أنت أيضا تمر عليك الأسابيع لاتغادر منزلك ..

قلت له : لم أقل لك غادر منزلك .. أقول فقط .. غيِّر الجو .. جدد الهواء .. تفرج على مسرحيات . افتكر مثلا إنك فى ليلة كنت زعلان فى بيت محمد التابعى ووجود زكريا أحمد ونجيب حنكش ، ألفت ولحنت لك ليلى مراد أغنية فورية باسم «عبد الوهاب لابس قبقاب» وأنك ساعتها نسيت همومك كما حكيت لى بنفسك .. وضحكت كما لم يحدث فى حياتك . الآن اغمض عينيك .. وافتكر ليلى مراد .. وبالمناسبة .. جرب تلبس قبقاب .

فى تلك الليلة ناكفنى عبد الوهاب وناكفته .. بلا جدوى . الاكتئاب هو الاكتئاب .

□□□

فى عز النوم دق التليفون إلى جوارى فى السرير . يا خبر ؟ تقريبا نحن فى منتصف الليل . لقد رفعت السماعة مهيأ نفسيا إلى الشخط فى هذا المزعج المقلق للراحة فى وقت غير مناسب .

طلع إنه محمد عبد الوهاب . وبغير تمهيد قال لى بحماس بالغ : أنت نايم ؟ يا راجل افتح التليفزيون ..

لكن .. لماذا أقوم من السرير وأفتح جهاز التليفزيون فيطير من عينى النوم حتى الصباح ؟ لأن فى التليفزيون مسرحية دمها خفيف .. وبطلها باين عليه إنه كوميديان مهم... ها ها ها... والنبى تسمع... ها ها ها...

لم أضحك لأن محنتى الفورية هى أن النوم طار من عينى . قضى الأمر . إنما حب الاستطلاع جعلنى أسأله : هذا تغيير كبير منذ مكالمتنا ظهرا .. إنما لازم يكون شىء خطير هذا الذى يحدث .. ماذا جرى ؟

- أقول لك سمير غانم ده باين عليه كوميديان مهم .. والنبى تسمع .. ها ها ها ..

لأول مرة اعتدلت فى السرير ، فالمسألة جد . قلت له : سمير غانم باين عليه ؟ كأنك تقول عنه إنه فنان ناشىء . هو كوميديان مهم وله جمهور عريض من زمان .. من أول ما طلع مع الضيف أحمد وجورج سيدهم فى سكيتش «دكتور .. الحقنى» و«زمان .. زمان»..

وعبد الوهاب يستدرك : تمام .. تمام .. إنما أنت لم تفهم قصدى .. أنا قصدى أقول لك إنه فى العادة الكوميديان يستثمر شيئا غير عادى فى خلقته يحوله من ضعف إلى قوة..

يعنى فمه أوسـع من اللازم كإسماعيل ياسـين مثلا .. أو عيناه فيهما حول أكثر من اللازم كعبـد الفتـاح القصرى مثلا .. أو صوته أجش أكثر من اللازم كنجيب الريحانى مثلا .. أو حركة شفايفه مع لسانه أقل انضباطا من اللازم كحسن فايق مثلا .. أو جسمه أقصر وشنبه مقصوص بشـكل لافت كشـارلى شـابلن مثلا . إنما سمير غانم الذى أراه الآن كله مضبوط ووجهه وسيم .. وبعد كده .. كوميديان .. ده يبقى شىء مهم ..

سألته مستغربا : هل هذا مدح أو ذم ؟

– مدح طبعا .. اسمعه والنبى بيقول ... ها ها ها ... شوف .. هنا لازم يعمل إفّيه .. أيوه ايوه عفارم عليك ... ها ها ها والنبى تفتح التليفزيون ..

قلت له : بدل فتح التليفزيون أنا عندى فكرة . إذا كان سمير غانم قد أسـعدك الليلة إلى هذا الحد واسـتخرج الضحكات من قلبك بكل هذه الجلجلة .. فأقل شـىء تكلمه فى التليفون وتبلغه بنفسك شعورك كما تحكيه لى الآن بالضبط ..

– لكننى لا أعرفه شخصيا ..

– الآن عرفته .

– ولا أعرف تليفونه .

– سأعطيك من الذاكرة رقم تليفونه . المسألة لا تحتاج إلى أية معرفة شخصية سابقة . تحتاج فقط إلى أن تضع نفسـك مكانه حينما يتلقى مكالمة من الموسـيقار محمد عبد الوهاب ليقول له : أشكرك .. فقد أضحكتنى من كل قلبى ..

أخذ عبد الوهاب نمرة التليفون لكن بغير حماس ظاهر وبلا تأكيد مسبق .. ناوى يطلب سمير غانم أو لن يطلبه؟

□□□

عصـر اليـوم التالى تلقيت مكالمة تليفونية من سمير غانم . لم يكن فى الأمر مفاجأة فهو يتحدث بين فترة وأخرى . فى هذه المرة يحكى عن أشـياء وأشـياء .. ثم وسـط الحديث قـال : على فكرة .. سـأغير مـن جديد رقم تليفونى . أصله غـير معقول تداخل الخطوط وتطفـل النـاس الفاضية يوصل إلى هذه الدرجة .. تخيـل .. آخرتها بعد نص الليل واحد فاضى يطلبنى .. أقول له أهلا وسهلا مين حضرتك ؟ فيرد يقول لى : أنا محمد عبد الوهاب

يا أســتاذ سمير .. وحياتك ركبنى العصبى ورديت عليه بما يســتحقه لأنه إنســان فاضى يتسلى على خلق الله .. وقفلت السكة فى وجهه .

حاولت أن اســتوعب الموقف .. فتســاءلت : لكن يا سمير .. كيف جزمت بأنه ليس محمد عبد الوهاب ؟ فى النهاية صوت عبد الوهاب معروف للملايين .

رد سمير غانم بغضب : هذا ما استفزنى أكثر .. واحد فاضى يتقمص حتى صوت محمد عبد الوهاب . طيب .. اعطنى عقلك .. الأستاذ الكبير الموسيقار بتاع الجندول والكرنك وأنت عمرى وأم كلثوم وجبل التوباد ويا جارة الوادى وأخى جاوز الظالمون المدى والحبيب المجهول و .. و .. و.. لما يطلبنى – جدلا يعنى – يقول لى : يا أستاذ سمير ؟ طيب إذا كانت البداية هى إنى استاذ .. تبقى النهاية إيه ؟ ناس فايقة ورايقة علاجها تغيير رقم التليفون .

قلــت لــه : والله فكرة يا سمير .. طيب قبل ما تغير تليفونــك هل أنت مرتبط غدا .. ظهرا ؟ جميل .. سأنتظرك ونذهب بسيارتك إلى أى مكان ييجى على البال .

بعدها اتصلت بعبد الوهاب اســتكمالا للمكالمة الناقصة من ليلة أمس . الصوت عاد إلى رنينه . التفاؤل وخفة الدم اســتردا مكانهما . إنما لم يفتح مطلقا أى ســيرة عن مكالمته مع سمير غانم ، وبدورى لم أتطوع بالإضافة أو التعليق . بعدها ســألنى : عايزين نقعد «نقر» سوا .. يعنى ندردش سوا ..

قلت له : ســوف أمر عليك ظهر غد لكن بعد اســتيفاء ثلاثة طلبات . أولا : تكون فيه أم على . ثانيا : يكون عندك أكل ضار بالصحة . ثالثا ـ يكون الأكل لشخصين .

رد عبــد الوهــاب مقاطعا : الآن كل مــا تقوله ضار بالصحة . ماله الأكل المســلوق أو الــردة بالملعقــة ؟ والبعد عن كل ما هو حراق وفيه ملح وشــطة ؟ هــذه خبرة عمر ودكاترة متخصصــين . إنما معلهــش .. خليك براحتك وفى يوم حتلاقى كلامى تمام .. بالنســبة لبكره.. من الآن اعتبر أن أم على ذات نفسها موجودة .. وكل ما هوضار بالصحة موجود.. سعاد (مديرة المنزل) عارفة نظامك وإنت منك للطباخ .

□□□

فــى الطابق الثانــى من العمارة إياها ـ مســكن عبد الوهاب ـ ســألنى سمير غانم عند الباب : ممكن أعرف ، لمجرد العلم بالشىء ليس إلا ، دى شقة مين ؟

قلت له : يا أخى شقة واحد صاحبى .

لم يطلع صاحبى . طلعت سعاد . بعدها الصالون . بعدها جاء عبد الوهاب ولحظتها مفاجأة سمير غانم . بعدها قلت لسمير غانم : دعنى أقدم لك يا أستاذ سمير فنانا ناشئا ومستقبله غير مضمون .. اسمه محمد عبد الوهاب .

الكيمياء تحركت والصدفة تحولت إلى كوميديا ومحمد عبد الوهاب هذا ، المكتئب بشدة قبل ٢٤ ساعة ، تحول إلى طفل من جديد بضحكاته وتفاعله مع سمير غانم .

فى السياق سألت عبد الوهاب : أين أم على ؟ وفى السياق يتعمد عبد الوهاب تأخيرها، بعكس انضباطه الصارم مع مواعيده للغداء . أخيرا ، وعلى مائدة الطعام ، جاء الطباخ بأم على . هى حلوى مطبوخة مشكلة أساسا من العيش واللبن والمكسرات . وبرغم أننى عموما لا أحب الحلوى .. إلا أن طاجن «أم على» بالذات يصبح بالنسبة لى الأحلى مذاقا وطعما فى بيت عبد الوهاب .

بينما جلستنا مستمرة على المائدة طرحت سؤالا بسيطا : لماذا يمارس الفنانون أحلامهم دائما .. فرادى ؟ لماذا لايخصصون جزءا من اهتمامهم ووقتهم للانشغال بالمستقبل ؟ لماذا يتعلق كل فنان بماضيه ، وهذا حقه ، بينما لايعطى فى نفس الوقت مساحة للتفكير فى استباق الزمن ؟

النقاش بدأ ، والأفكار توالدت ، والوقت مضى .

□□□

فى نيويورك – وهذا يعيدنى إلى أنتونى كوين – كنت متوقفا خلال نقاشات متقطعة ومستمرة عند سؤال جوهرى : هذا أنت أمامى .. أنتونى كوين .. ناجح ومطلوب ومكسر الدنيا بمناسبة فيلم وزربا اليونانى . بعد هذا العمر وهذه النجومية وهذا التكيف مع «قانون السوق» .. هل أنت مضطر للمشاركة بفلوسك الخاصة منتجا لفيلم كهذا الذى أتابعه هنا ؟

رد أنتونى كوين بما يلى : السينما هى صناعة الأحلام وتسويقها . جمهور بالملايين ومنتجون بالعشرات . من هنا ولدت هوليود . ولدت صناعة السينما الأمريكية التى صدرت بضاعتها إلى كل انحاء العالم . هوليود اخترعت عقود الإحتكار ونظام النجوم . حسب هذا

النظام تتعاقد معى مثلا إحدى شـركات الإنتاج أو الأسـتوديوهات أو أصحاب رأس المال . أنا فى تلك اللحظة ما أزال نكرة ومجهولا ولو قلت لى اعمل المستحيل سأعمل .. لأن الحلم فى داخلى . وإذا لم تعجبنى الشروط فهناك آلاف غيرى جاهزون ..

.. فـى البداية أوقع أوراقـا وكل دافعى هو حلمى بأن أصبح نجما ويصفق لى الناس . وبعـد أن رضيت بالقليل وتعبت صفق لى الناس وتفاعل معى الملايين وأدركت قيمتى .. ثم ماذا ؟

.. فى الجانب الأول من القصة هناك شركة تفكر لك .. هى التى تحدد لك من تصاحب وماذا تقول وأين تتواجد ونوع الملابس التى ترتديها وأى حفلات تقبل الدعوة إليها . هناك جيش من المتخصصين وخبراء العلاقات العامة يقررون لك مسبقا ماذا تقول وأين تقيم وفى أى مكان تسـتريح ومع من تتواجد . يعنى باختصار ، نظام النجوم هذا هو النوع العصرى من نظام الرق والعبودية . يتفرج عشرات الملايين حول العالم على نجمهم المحبوب هذا ، ويتوحـدون معـه ، ويهيأ لهم أنه معبر عنهم وملك خـاص لهم . لكن فى حقيقة الأمر هو لايعبر عن نفسـه ، وإنما عمّا يقرره له الأسـتوديو . وهو أيضا ملك لأصغر موظف مختص فى إدارة هذا الأستوديو ..

.. عند أول فرصة للهرب من نظام الرق والعبودية هذا .. كل قادر فينا على الهرب .. يهرب . بل وفى بعض الأحيان يدفع الفلوس والتعويضات لكى يهرب ويعفيه الأسـتوديو من عقد الإحتكار ليسـترد حريته . أنت الآن تسـتغرب من أننى أنتج بفلوسـى فيلما من بطولتى . استغراب معقول . لكننى أشترى حريتى واستقلاليتى وحقى فى أن أختار لنفسى مـا أريد أن أقدمه إلى جمهورى أملا فى أن يصدقنى لأن اللعبة فى هذه الحالة تصبح أكثر إنصافا وعدالة . فى فيلم سابق كان ممكنا أن أدعوك إلى العشاء ـ كما نتعشى الآن ـ لكن هذا يحدث فقط لمجرد أن الأسـتوديو هو الذى قرر ذلك ، وهو الذى اختارك وكلفنى بدعوتك وهو الذى يضيف فاتورة العشاء إلى تكاليف إنتاج الفيلم بغير أن يسألنى الأستوديو مسبقا : هل مثل هذا الشخص يريحك أو يزعجك ؟ أنا عبد المأمور والشركة التى تحتكرنى هى التى تقرر لى من يكون ضيفى ، وليس أمامى سـوى الإذعان وإلا فهناك عقوبات .. لو تكررت وتصاعدت تؤدى إلى خراب بيوت وقضاء على مسـتقبل واحتكام إلى قانون الغابة . الأقوى يأكل الأضعف . فإذا فكر الأضعف فى التمرد يجرى سحقه ليصبح عبرة لغيره .

ثم انتهى أنتونى كوين إلى الخلاصة : السحق هنا لايعنى القتل المادى . يكفى القتل المعنوى . يكفى ضرب المتمرد فى مقتل من خلال توصيله إلى حالة من انعدام الثقة بالنفس وبأنه لم يعد له مستقبل . عنده ماض فقط . فليعش فى هذا الماضى لأن هذا هو كل ما أصبح لديه . ماض .. بلا مستقبل .

□□□

سعاد حسنى ، ولأسباب وظروف مختلفة ، ربما تكون قد عانت من شىء من هذا . شىء من الإلحاح على أنها أصبحت ماضيا بلا مستقبل . إنما الأسوأ هو أنها تصرفت على هذا الأساس . لقد تلبست نوعا خاصا جدا من النجومية .. والدور تلبسها . هى «زوزو» لأنها فى حينها كانت فى أكبر حالات لياقتها النفسية والبدنية . جمهورها تفاعل معها أيضا لأنه محتاج إلى «زوزو» . بعد قليل تحولت المسألة إلى أن كليهما أصبح سجين الآخر . هى سجينة لجمهورها - جمهور زوزو - والجمهور نفسه لم يستوعب أن «زوزو» نفسها فكرة وحلم . قد تجسده سعاد حسنى فى فترة . لكن غيرها يجسده فى فترة تالية .

لم يكن أى منهما واقعيا مع الآخر . لا الجمهور خفض توقعاته من سعاد حسنى ، ولا هى أيضا عدلت من توقعاتها من الجمهور . هناك حقيقة تعلوهما معا عنوانها : الزمن . وربما يحسب لسعاد حسنى أنها جربت الخروج إلى جمهورها بشىء مختلف عن «زوزو» ففوجئت بالفشل . نريد «زوزو» والمزيد منها . حاولت أيضا أن تنسحب سعيا إلى أن تعيد ضبط أوضاعها فى مواجهة الخصمين الطارئين : الزمن والمرض .. فواجهها خصم جديد . فى الحرب على جبهتين آلام كافية ، ويجوز التكيف مؤقتا مع أى منهما . إنما الخصم الجديد أصبح هو : جماعة آكلى اللحوم البشرية .

هذا جديد .

□□□

من بين ٨٢ فيلما سينمائيا - يعنى مشوار معتبر - بدأ التردد فى العلاقة الثلاثية مابين سعاد حسنى والكاميرا والجمهور اعتبارا من فيلم «المتوحشة» المقتبس أصلا عن مسرحية لجان اينوى . والفيلم من إنتاج سعاد نفسها (١٩٨٧) .. واضطرت إلى تصوير نهايته مرتين مختلفتين . أما فيلمها الأخير فهو " الراعى والنساء " - ١٩٩١ - والذى استنفدت فيه الكاميرا نصف طاقتها فى مداراة المتاعب الصحية لسعاد حسنى .

بعدها رحلات العلاج المتقطعة . فى البداية إلى باريس ، وبعدها إلى لندن . فى حالات من هذا النوع فإن القاعدة الأولى حسب «قانون السوق» هى أن يبتعد النجم عن الأضواء بالكامل .. خصوصا كاميرات المتطفلين . فى هوليود مثلا ، وحتى من غير مرض ، تلتزم نجمة الإغراء مثلا فى عقدها مع الشركة المنتجة بعدم التقاط أى صور لها تهز من شكلها فى خيال الجمهور .. كأن يتم تصويرها من غير ماكياج .. مثلا .

سعاد حسنى لم تكن نجمة إغراء . هى جميلة .. لكنها ليست صارخة الجمال . لها قبول يحرك القلوب .. ولكن لا يحرك الغرائز . مع ذلك فالمرض هو المرض . وحينما يتلازم المرض مع زيادة الوزن تصبح الصور أول الممنوعات . ليلى مراد مثلا مع آخر فيلم سينمائى لها لم تعد تسمح مطلقا بالتقاط أى صور فوتوغرافية لها .

نتيجة رحلة العلاج هى التى تقرر الخيارات المتاحة أمام نجمة بهذه الشعبية كسعاد حسنى . هناك خيار التغيير الآمن .. كأن تتحول من سندريلا إلى أم مثلا . هناك خيار الاعتزال النهائى ، وهذا يعنى حياة جديدة مختلفة تماما وبعيدة بالكامل عن أية أضواء . هناك خيار التمسك بنجومية السندريلا مع تعديلات طفيفة .. وهذا هو الأصعب على الإطلاق .. لأن الزمن هنا له سلطة الاعتراض . سعاد لبست «زوزو» . و«زوزو» لبست سعاد . لكن للزمن تعليقا على الأحداث .

فى جميع الحالات هى التى تقرر وتختار على ضوء نتائج العلاج . ولكى يحدث ذلك سافرت سعاد حسنى للعلاج .. والعزلة . فى حالتها .. العزلة جزء من الدواء . لكن العزلة شىء .. والوحدة شىء آخر مختلف .

وفى عزلتها وغربتها ثم وحدتها .. استجدت على سعاد .. بعد جبهتى الزمن والمرض.. نصف جبهة أخرى . إنهم المتطفلون من المحيط القريب . فمع الأضواء يجىء الهاموش . بعده الذباب .

وفى أيام أم كلثوم كان يوجد «هاموش» . إنما .. ولأنها أم كلثوم .. فقد كان علاجها باترا ، وأقامت حول حياتها الخاصة سور الصين العظيم .. فاحترم الغريب والقريب خيارها هذا . مع ذلك .. وفى لحظات «فضفضة» إنسانية .. كانت أم كلثوم تحكى لى عن منغصات لها تتجاوز خيالى . منغصات لحرق الدم .

فى أيام عبد الحليم حافظ كان «الهاموش» قد استقر أرضا وتحول إلى صراصير . وبرغم كل الرائج عن شعبية عبد الحليم ونفوذه .. إلا أننى عاصرت معه فى مرحلته الأخيرة حالات من حرق الدم التى كانت تدفعه إليها صراصير المدينة . أمام الكاميرات كان عبد الحليم يكابر متظاهرا بأنه لايهتم . أما فى داخل غرفته المغلقة التى يسحبنى إليها من أجل «الفضفضة» الآمنة .. فقد كان يجهش بالبكاء . صعب على نفس عبد الحليم بعد كل ذلك المشوار والكفاح والشعبية أن يتعرض لذلك النوع من الضغط والابتزاز والقرف والتلوث من صراصير المدينة .

مع أفلام سعاد حسنى الأخيرة كانت الصراصير قد تحولت إلى فئران . ومع مشوارها الأخير للعلاج أصبحت الفئران أفيالا . والأفيال من نوع خاص مخلّق يجعلها أقرب إلى أكلة لحوم البشر .

أتوقف هنا عند نموذجين .

فى الواقعة الأولى وجدت سعاد حسنى نفسها ، وهى فى الغربة والعزلة والوحدة ، وسط ادعاء بكلمات تستنطقها بما لم تقله . ادعاء بأنها ارتبطت مع عبد الحليم حافظ فى حياته ، ولمدة خمس سنوات كاملة ، بعلاقة زواج بعقد عرفى . تلك كذبة مجلجلة لم تنطق بها سعاد . هناك ارتباط عاطفى جرى بين عبد الحليم حافظ وسعاد ذات فترة . هناك غرام . هناك توافق عاطفى كان يمكن أن ينتهى إلى زواج . لكنه لأسباب لاتقلل من أى منهما .. زواج لم يحدث .. وأصبح كل منهما يسير فى طريق .. مكتفيا باعتزازه بالطرف الآخر .. من بعيد لبعيد .

واستنطاق سعاد حسنى كذبا ، وفى حالتها تلك بالغربة ، بمثل ما جرى .. كان يعنى استدراجا لها إلى كمين بالغ الخبث .. ويسىء إليها وإلى عبد الحليم حافظ .. معا . المغزى ببساطة ، وبأثر رجعى ، هو أنه كانت لعبد الحليم حافظ وسعاد حسنى حياة سرية أخرى يخفيانها عن الناس . وطرح مثل تلك الأكذوبة ، مع رحيل طرفها الأول قبل سنوات .. وعزلة طرفها الثانى اضطراريا .. كان أقصى درجات الحقد على كليهما معا .. ودليل مفحم على الغل الدفين منهما معا .. ولأسباب لها سياق آخر ليس هذا مكانه . وأسوأ ما فى الإشاعة السوداء المدسوسة والمنشورة عمدا .. هو أن سعاد لم تكن تستطيع الخروج أمام الكاميرات لكى ترد .. فذلك كان بالضبط هو الكمين المنصوب لها وسافرت إلى الغربة حتى لا تضطر إليه .

أما الواقعة الثانية فقد جرى نشـرها قبل شـهور قليلة من رحيل سـعاد حسـنى . الآن نحن أمام كذبة سـوداء أخرى .. وموجعة ومتوحشـة بدرجة أكبر . الأكذوبة هى أن سـعاد حسـنى تعيش فى لندن هائمـة على وجهها غير واعيـة بتصرفاتها ، تلتهم فضلات الطعام والمشـروبات بشراهة .. وتتصرف بطريقة مقززة حتى لمن يتعاطفون معها وأيضا : تتسول . أما عنوان الأكذوبة ، وببراءة الأطفال ودموع التماسيح ، فهو : انقذوا سعاد حسنى .

لكن العنوان مضلل . والمضمون متوحش . المضمون هو : دعوة للقبض على سعاد حسنى وإدخالها قسرا إلى أقرب مستشفى للمجانين .

يـا إلهـى . تلك دعوة لايقولها المرء .. حتى عن عدو . هو أيضا كمين آخر مختلف .. اسـتدراجا لسعاد حسنى أمام الكاميرات .. فى أسـوأ لحظاتها الصحية وقدرتها النفسية على مواجهة الكاميرات . فى الحالتين هى مدانة مقدما أمام جمهورها . مدانة إذا صمتت . ومدانة إذا تكلمت .

كان هذا التوحش شـيئا جديدا فى هذه المدينة . جديدا ومهينا وغير إنسـانى بالمرة .. وفـى لحظة دقيقة إنسـانيا يواجه فيها النجم أصعـب معاركه .. وعلى جبهتين . بل إنه حتى بعد رحيل سـعاد حسـنى المأسـاوى فى لندن .. فجع الناس بسلالة أكثر انحطاطا من أكلة لحوم البشـر هؤلاء - وكلهم خيط واحد وإن اختلفت الدوافع والمصالح - بانتحال أحدهم شـخصية المحقق الصحفى لكى ينشـر أن أزمة سعاد حسنى سببها هو أنها كانت تعانى من.. من .. من : الشبق الجنسى .

❑❑❑

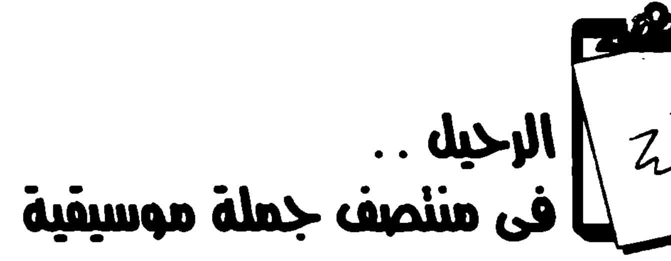
مع خروج عشرات الآلاف من الشبان والشابات فى وداع سعاد حسنى بالقاهرة .. كان شـلال الحب يحيط بها من جديد .. وإن تكن هى الآن قد أصبحت ذكرى . فى شـلال الحب هذا كانت الرسالة واضحة بغير فذلكة ولا فلسفة . الرسالة هى : إن الفن ممتع .. ومبهج .. ومضىء .. ومشع .. وهو فى حياتنا لكى نعتز به ونرعى مواهبه . الفن الجميل - ريشة وقلما ونغمة وصوتا وصورة - إبداع منير فى محيطنا . وبما هو قليل من جمال الفن فى حياتنا نستطيع التصدى لما هو كثير من قبح .

لقد كانت الدموع في عيون الجمهور صامتة .. وناطقة . هي دموع عرفان بسعادة أعطتها لهم سعاد حسني وكل من صنعوا مشوارها . وهي كذلك دموع حسرة على أن سعاد حسني كانت تستطيع إعطاء المزيد ..

. . . .

. . . . وهي أيضا كانت تتمنى ذلك .

● نشر هذا المقال في العدد ٣١ من مجلة «وجهات نظر» الصادر بالقاهرة في أغسطس ٢٠٠١ واختاره الأستاذ محمود سعد رئيس تحرير مجلة «الكواكب» ليعيد نشره بالمجلة على ثلاث حلقات في ٢٠٠٢/٥/٢١ و٢٠٠٢/٥/٢٨ و٢٠٠٢/٦/٤ .



الرحيل ..
فى منتصف جملة موسيقية

يندهش المرء كثيرا - فالكاتب لا يساوى شيئا إذا لم يندهش - كيف يطاوعه القلم فى كتابة مقال منتظم ليتم نشره فى موعد محدد سلفا .. ثم يعصيه القلم تماما فى الكتابة عن حدث مفاجىء يهز النفس هزا ؟ كيف أجلس إلى مكتبى مرتين وثلاث مرات أسبوعيا لأكتب مقالات تنشر فى لندن والرياض والخليج .. ثم لا أستطيع الجلوس لأكتب مقالا ينشر فى القاهرة ؟ كيف يقدر لى أن أندمج بسهولة فى قضايا كبيرة وبعيدة ؟ قضايا كالزلزال السياسى فى موسكو أو حرب الإبادة فى البوسنة ؟ أو الفوضى التى أصبحت نظاما دوليا .. والأمم التى لم تعد متحدة .. ثم لا أستطيع أن أندمج مع قضية اسمها بليغ حمدى ؟

يندهش المرء كثيرا وكثيرا . لكن القلم لابد أن يطاوعه فى هذه المرة . ليس لأكتب عن صديق كبير اقتطع معه جزءا من عمرى .. ولكن لكى أكتب عن الفكرة التى كانت : بليغ حمدى . إن المشكلة التى تظل محيرة دائما ليست : ماذا أكتب .. ولكن : من أين أبدأ .

أستطيع أن أبدأ من تلك اللحظة التى سقطت فيها الصحيفة من يدى فى ذلك الصباح من سبتمبر . لحظة قراءة الخبر المفجع : وفاة بليغ حمدى فى باريس . فى الواقع إن بليغ ذهب إلى باريس فى هذه المرة وهو ينوى من الأصل أن تكون زيارته الأخيرة .

وقبيل سفره من القاهرة اتصل بى تليفونيا . وفى رقته المعهودة . ليسألنى : هل أريد شيئا من باريس ؟ إنه مسافر خلال يومين أو ثلاثة . لا يا بليغ . أشكرك .. ولكن لماذا السفر ؟ وما وجه الإستعجال ؟

● مجلة «أكتوبر» : ١٩٩٣/١٠/٢٤ .

لا .. ليس هناك استعجال . فقط هو لديه تلك الشقة الصغيرة فى باريس منذ أيام الغربة الاضطرارية . الآن يريد أن يبيعها لأنه لن يغادر القاهرة بعد ذلك أبدا . ثم : لكى يراجع أيضا حالته الصحية مع الأطباء المعالجين له هناك .

واتفقت مع بليغ على أن يمر علىّ فى منزلى فى السابعة من مساء اليوم التالى . ثم قلت لــه : يــا ريت يا بليغ تجيب معاك الملف الطبى عن حالتك الصحية . إنه وعدنى بذلك . لكن اللافت أنه لم يســألنى بالمرة عن الســبب .. وما الذى أفهمه أنا طبيا أصلا حتى أهتم بمجموعة تقارير طبية من هنا وهناك .

فــى الموعد المحدد جاء بليــغ . وخلال لحظات عـّرفته على صديق عزيز آخر ســبقه بالحضور ، هو الدكتور علاء الزيات ، أحد أبرز وأكبر أســاتذة الأمراض الباطنية والقلب فى مصر . لم يكن شــيئا مألوفا بالمرة أن يترك طبيب بحجم علاء الزيات عيادته ومرضاه ومستشــفاه فى ضاحية «المعــادى» جنوب القاهرة لكى يأتينى علــى هذا النحو المتعجل . لكننى كنت قد شــرحت له فكرتى بالضبط ، فتجاوب معها فى التو واللحظة .. كرما منه وتقديرا لمكانة «صديق شخصى» لى ويهمنى أمره وأرجو أن أطمئن منه على حالته .

لحظــات أخــرى والكلام جاب كلام . نعم يا بليغ .. هذا هــو بالضبط علاء الزيات ، ووالــده هــو الأديب الكبير الراحل أحمد حســن الزيات . وبليغ يتحــدث فورا عن مجلة «الرسالة» التى كان يصدرها الزيات ، ومجلداتها التى كان والده يحتفظ بها . هذا أيضا هو بليغ حمدى يا دكتور علاء الذى تحتفظ فى سيارتك بشرائط لأحدث ألحانه .

وفى اللحظة التى بدأ فيها الدكتور علاء يقرأ صفحات الملف الطبى الذى جاء به بليغ . كانت تساؤلاته تسبق الأوراق أمامه . نعم بليغ حدث له هذا وهذا .. نعم لقد عانى من هذا وهذا .. نعم يحدث له انتفاخ كبير فى المعدة بمجرد أن يأكل شــيئا . نعم ، توقف تماما عن التدخين .. إلخ .. إلخ .

بعدها انتحى الدكتور علاء الزيات ببليغ فى جانب آخر من البيت ليطلب منه الاستلقاء متمددا حتى يبدأ فحصه . إن الكبد هى المشكلة . والمشكلة جادة تماما لكنها قابلة للسيطرة بشروط . وبليغ متجاوب تماما مع كل الشروط . فقط هو سيخطف رجله إلى باريس فى هده المرة ليكتب توكيلا ببيع شــقته الصغيرة هناك ويعــود على الفور . إنها أيضا فرصة ليأتى بالأدوية المحددة التى كتبها له الدكتور علاء الزيات . لكنه سيعود سريعا لأنه لم يعد يريد أن يغادر مصر بعد ذلك .

في الســاعة التالية انضم إلى جلســتنا المزيد من الأصدقاء .. من بينهم الصحفي القدير غنيم عبده ، والمذيع اللامع محيي محمود . ومع اتســاع أطراف الحديث تفتحت شــهية بليغ حمدي للحكايات والذكريات . وعلى غير العادة كانت كلماته تنساب حبلى بالكثير من التســاؤلات .. وشــيء من المرارة .. مركزا الحديث نحوي بين لحظة وأخرى : فاكر يــا محمــود أم كلثوم كانت تتعامل معانا إزاي ؟ فاكر لما كان فلان وفلان وفلان يطلبون منا - أنت أحيانا وأنا أحيانا - التوسط عند أم كلثوم ؟ فاكر اللي حصل في أغنية «حكم علينا الهــوى» ؟ فاكــر لما تصالحنا عندك في البيت .. أنا وعبد الحليم ؟ فاكر أغنية «موعود» ؟ و«العيون السود» ؟ .. إلخ .. إلخ .

❑❑❑

في تلك اللحظات لم يكن بالي مع بليغ بالمرة . لم نكن قد التقينا منذ شهور . ولم يكن مفاجئا لي شــيء أعرفه من التدهور في حالته الصحية . لكن المفاجيء لي تماما هو أن أراه علــى هــذه الحال . الروح موجودة . الذهن المتوقد كما هو . التدفق طبيعي . لكن شــيئا ما أصبح مفقودا . إنني لم أكن أريد لوجهي أن يفضح انفعالاتي الداخلية . وفي نفس الوقت لم أكن قادرا تماما على مسايرة بليغ في كل هذا الشريط المتدفق من الذكريات . وبليغ مستمر . ومع استمراره تتوالى تساؤلاته : هل قرأت ما كتبه فلان ؟ هل شاهدت ما رواه علان ؟ إنهم يســرقوننا ونحن أحياء .. إنهم يلفقون لأنفسهم ما لم يكن لهم .. حتى ذكرياتنا يسرقونها منا . أين كان هذا .. وهذا .. وهذا ؟

كان وجود الأصدقاء المشــاركين في الجلســة عنصر امتصاص لتســاؤلات بليغ يعفيني من الإجابة . لكن المشكلة هي أنه بين الحكاية والحكاية يتجه بليغ بتساؤلاته نحوي من جديد . والتساؤل المتكرر هو : لماذا لا تكتب ؟ تكتب عن كل شيء وكل شخص . لقد كانت أسرارنا جميعــا عندك ، وأنت كنت قريبا منها وشــريكا فيها ودائما نفضي بها إليك . اكتب عن أم كلثوم . عن عبد الحليم . عن كمال الطويل . عن محمد الموجي . عن.. وعن.. وعن..

لقد أدهشــني كثيرا هذا الإلحــاح من بليغ . إنها المرة الأولى التــي يرجوني فيها على هذا النحو . رجاء فيه القليل من الطلب وشــيء من التألم والكثير من الاستغاثة وفائض من المــرارة . إنها المرارة من هذا القدر الجديد الشــائع مــن التبجح على الحقيقة . ماذا جرى للناس ؟ للحق والخير والجمال والأمانة والاختشــاء والحياء ؟ ماذا جرى للرقة ؟ للوفاء ؟ للإنتماء ؟ للحقيقة ؟ للصدق ؟

إن بليغ لا يشكو بالضبط ، ففى الشكوى انحناء . إنه فقط يتساءل ويتساءل . والذكريات يزاحم بعضها البعض .

لقد أعطى بليغ موسيقاه وألحانه لكثيرين فى مصر والعالم العربى . فى الواقع سوف يكون من الأسهل إحصاء الأصوات الغنائية التى لم يلحن لها بليغ ، عن تعداد الأصوات التى لحن لها . لم تكن فقط أحلى ألحانه مع أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وشادية ووردة ونجاة ومحمد رشدى . لقد كان يبحث دائما عن الأصوات الموهوبة الجديدة .. من عفاف راضى إلى شيرين وجدى .. ومن ميادة الحناوى فى سوريا إلى سميرة سعيد فى المغرب ولطيفة فى تونس . وكان يفرح كطفل كلما وضع أذنه على صوت موهوب جديد .

فى الواقع هو الذى كان يسعى إلى الصوت الموهوب الجديد بأكثر من العكس . لقد جعل عفاف راضى ، مثلا ، على لسان مصر كلها من أول أغنية . وحينما كان المصريون يغنون مع عفاف راضى «ردوا السلام» كان بليغ هو الذى يتولى عنها مهمة كاسح الألغام داخل الساحة الغنائية . لقد رأيت محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ مرات عديدة وهما مترددان تماما أمام حماس بليغ . لكن النجاح فى النهاية يصبح له منطقه الخاص وقوة دفعه الذاتية . فلأن عبد الوهاب وعبد الحليم شريكان معا فى ملكية شركة «صوت الفن» المحتكرة لألحان بليغ حمدى وقتها ، يصبح نجاح اللحن الجديد من بليغ عنصر ترطيب للمصالح المتقاطعة .

وبليغ لم يكن شيئا إلا إذا تحمس . إنه يتحمس لصوت . لفكرة . لنغمة . لجملة موسيقية . حياة بليغ ذاتها هى مجموعة من الجمل الموسيقية . فيها المتعة أحيانا .. والشوق أحيانا .. والألم أحيانا .. وحبه لمصر دائما .

فى أعقاب كارثة يونيو ١٩٦٧ مثلا كانت الصدمة الكبرى . لم تكن كارثة يونيو مجرد هزيمة . كانت زلزالا نفسيا لنا جميعا . لقد وقعت مصر .. وأعد لها كثيرون برقيات العزاء.. بل وطريقة الدفن . وفجأة خرج بليغ حمدى ، بموسيقاه وصوت شادية وكلمات محمد حمزة ، بأغنية تعبىء مشاعر المصريين وتشحذ همتهم جميعا . وفى كل الأغانى التى لحنها بليغ كانت الفكرة تبدأ من داخله أولا .. خصوصا كلما تعلق الأمر بشحنة حب يصبها فى قلب مصر ووعيها .

هكذا أصبحت أغنية «يا حبيبتى يا مصر» على لسان الملايين فى لمح البصر . وبلغ من إلحاح الناس على طلب الأغنية من الإذاعة .. أن الكاتب الكبير الراحل فكرى أباظه قال مداعبا فى حديث إذاعى وقتها إنه اصبح يسمع تلك الأغنية بالذات ألف مرة فى اليوم .. ليس فقط فى برامج «ما يطلبه المستمعون» .. ولكن فى الشارع والنادى والمقهى والتاكسى .. فى الصباح والمساء ومنتصف الليل . هل تفعل أغنية واحدة بالناس كل هذا ؟

نعم . من بليغ حمدى .. كل هذا . وإذا تعلق الأمر بمصر .. أكثر من كل هذا .

❑❑❑

مع شـهر أكتوبر سـنة ١٩٧٣ تعمقت الذكريات من جديد . إنه شـهر رمضان ، ذروة المنافسـة بين محطات الإذاعة المصرية . وأصبحت محطة إذاعة الشرق الأوسط فى المقدمة مسبقا بمجرد تعاقدها مع عبد الحليم حافظ على بطولة المسلسل الدرامى الذى سـيذاع يوميا عقب الإفطار فى حلقات متتابعة . مسلسـل عن قصة من تأليفى بعنوان «أرجوك .. لا تفهمنى بسرعة» .. وتولى إخراجها للإذاعة المخرج الإذاعى الراحل الكبير محمد علوان . وسـواء قبـل أو أثناء الاندماج فى هذا العمل الفنـى .. أصبح من الطبيعى أن نكون جميعا مشدودين إلى بعضنا البعض أكثر وأكثر . هناك عبد الحليم حافظ وشركاؤه فى البطولة عادل إمام ونجلاء فتحى وعماد حمدى والآخرون . هناك أيضا أغانى المسلسـل ويقوم بتلحينها محمـد الموجـى وبليغ حمدى ومنـير مراد . هناك أيضا ضغط الوقـت .. لأن كل محطات الإذاعة فى العالم العربى تعاقدت مسبقا على إذاعة الحلقات مع القاهرة فى نفس الوقت.. إن لم يكن لسبب فيكفى أنها المرة الأولى التى يتحمس فيها عبد الحليم حافظ لأداء البطولة الدرامية والغنائية فى مسلسل إذاعى .

وفى اليوم العاشـر من رمضان – السـادس من أكتوبر – جاء الخبر القنبلة . لقد بدأت حرب أكتوبر . حرب تأخرت ؟ تأجلت ؟ طال انتظارها ؟ كله وارد . لكنها جاءت أخيرا لتصبح هى بذاتها ما أسميته «اليوم السـابع» لحرب يونيو . فى هذه المرة لا تتحرك مصر فقط .. ولكنها مصر وسـوريا معا . إنها بالضبط نفس صيغة النجاح بامتداد قرون طويلة .. كلما عادت الروح إلى العالم العربى .

وأصبحنـا نعمـل بروحين . إن إذاعـة القاهرة أوقفت فورا كل برامجهـا العادية لكى تتفرغ لمتابعة تطورات الحرب . لكننا مضطرون للاستمرار فى تسجيل حلقات «أرجوك ..

لا تفهمنى بسـرعة، لكى تذاع فى المحطات الأخرى المتعاقد معها بامتداد العالم العربى. فى نفس الوقت نحن مندمجون بالكامل ، نفسـيا وعقليا ، فى متابعة مجريات الحرب . إن الإظـلام كامـل فى العاصمة ليـلا . لكن الناس يرى بعضها البعـض وكأن نورا داخليا ينطلق من داخلهم لكى يضىء بينهم كل المسافات . الكل يريد أن يسهم بأى شىء .. بكل شـىء.. ليصبح فى مسـتوى هذا الأخ أو الشـقيق أو الجار الذى يقاتل فى سيناء بمثل هذا الأداء المدهش الذى تدرب عليه وحفظه ومارسه فعلا طوال حرب الاستنزاف سابقا .

واختفى من بيننا بليغ حمدى . سـاعة وسـاعتين ثم : بليغ فى الإذاعة يسجل أغنية جديدة لكى تؤديها المجموعة . إنها أغنية «باسـم الله» . يوم ويومين : بليغ يختفى من جديد . ثم : أنا فى سـتوديو ٤٦ جاى لك حالا ومعايا مفاجأة . ويجىء بليغ لنسـمع معه هذا الشريط . إنها أغنية «على الربابة» التى لحنها وسجلها لتوه بصوت وردة . هكذا تكرر اختفـاء وظهور بليغ طوال أيام حرب أكتوبر . وتكررت ألحانه التى كانت تخرج من قلبه إلى قلوب الملايين جميعا فى لحظات .

إن أحدا لم يطلب من بليغ أى شـىء .. ولا كلفه أحد بأى شـىء . يكفيه أن محبوبته هذه – مصر – قد سمعته يشدو لها فى لحظة انتكاسها ، ويؤمن بقوتها فى لحظة ضعفها ، وينفـخ فـى روحها فى لحظـة تمزقها . إنها الآن كما تمنى لهـا بالضبط : قوية وعصرية وشـامخة ومتوحـدة مع كل أبنائها الذيـن جعلوا الرمال جزءا من طعامهم اليومى لسـت سنوات من أجل هذه اللحظة .

لكـن بليـغ لم يعد يكتفى بالنداء «يا حبيبتى يا مصـر» . بليغ يتغنى بنداء «الله أكبر» لمجرد أنه كان نداء المقاتلين المصريين – مسـلمين ومسيحيين – وهم يعبرون قناة السويس إلى سـيناء بسـلاحهم . وبليغ يغنى لمحبوبته التى لم تهتز ثقتها بنفسها أبدا . يغنى لها على الربابة منتشـيا : تعيشـى يا مصر . بليغ ينفعل . يفكر . ويكتب . ويستدعى شاعرا غنائيا لينظم له ما كتبه . بليغ يتصل بمكتب مدير الإذاعة محمد محمود شعبان ، ويجرى إلى أحمد فؤاد حسـن قائد الفرقة الماسـية . وفى ظلام الليل وإجراءات الطوارىء العسكرية يجرى بسـيارته إلى الإذاعة . إنه ، حتى ، لا ينتظر المصعد . إنه يأخذ السـلالم قفزا إلى سـتوديو ٤٦ . هناك يجد فى انتظاره كل أفراد الفرقة الموسـيقية جاهزين بآلاتهم . وقبل آلاتهم هم جاهزون بمشاعرهم . نسجل يا رجالة ؟ تمام يا زكريا ؟

أحيانا نكون نحن فى الأستوديو المجاور مستمرين فى تسجيل حلقات «أرجوك .. لا تفهمنى بسرعة».. لكن كثيرا ما يأتينا بليغ .. أو نذهب نحن إلى ستوديو ٤٦ واثقين مقدما من أننا سنجد بليغ هناك .. ولو جالسا بجوار مهندس الصوت زكريا عامر .. لمراجعة شريط به آخر ما يسجله بليغ عن مصر .. ولمصر . فى النهاية ، ومع انصراف بليغ معنا ، يلاحقنا على السلالم موظف من إدارة العقود بالإذاعة : لحظة يا أستاذ بليغ .. أرجوك توقع لى على هذه الأوراق لنصرف لك الأجر المستحق عن آخر أغنية لحنتها ..

فى الأغانى الوطنية كان المعتاد هو أن الأجر رمزى . لكنه بالنسبة لإدارة العقود اسمه أجر .. ولابد من تسديد خانته على الورق . وبليغ ، بصوت خفيض وخجل شديد ، يرد على موظف العقود : أى أجر يا أخى ؟ هذه الألحان بلا أجر . سجل فى أوراقك أنها هدية منى . هذا أقل واجب ، وسأقوم بالمزيد . أنا اللى متشكر لك ، وللإذاعة .

□□□

وأصبح طبيعيا أن يكون لعبد الحليم حافظ نصيب فى هذا «المزيد» . فى الواقع أن عبد الحليم ، الذى كان قد يئس تماما من إقناع كمال الطويل بالعودة إلى التلحين له ، فوجىء تماما بأن كمال هو نفسه الذى يقول له أمامى إنه الآن .. فى هذه اللحظة من حرب أكتوبر.. يحس برغبة عارمة فى أن يجلس إلى البيانو لكى يلحن و : «لكن أرجوك يا حليم.. اتركنى لنفسى قليلا حتى أعثر على الكلمات التى أجد نفسى فيها» . لحظتها طرنا جميعا من الفرحة لأن القرار فى هذه المرة خارج مباشرة من قلب كمال الطويل .

وذات ليلة ، مازلنا فى الحرب وشهر رمضان ويتبقى ساعتان أو ثلاث على موعد السحور ، دق جرس التليفون بجانبى فى البيت : «أنا حليم .. أنا عرفت أن بليغ عندك.. قاعدين شوية ؟ أنا فى الطريق» .

بعد دقائق اتضحت المشكلة .

بليغ يقول لعبد الحليم : على فكرة .. أنا لم أقل لمحمود أى شىء حتى يكون انطباعه تلقائيا .. أليس هذا اتفاقنا ؟

– خير يا حليم ..

- خير طبعا . الحكاية يا سيدى أن صاحبك ده (وكأن عبد الحليم لم يكن هو صاحب بليــغ من قبلى بســنوات طويلة طويلة) دماغــه مزرجن . أنا عايز أقدم أغنية عن (أنور) السادات بمناسبة الحرب . لكن ده .. رأسه وألف سيف ..

- رد بليــغ بكلمــات ملؤهــا الحرارة والصـــدق : يا حليم أنا تحت أمــرك .. قـل لى ها نغنى لمصر .. للجيش .. للشارع .. للناس .. تحت أمرك . لكن نغنى لحاكم مهما علا شأنه ؟ أبدا ..

الآن اتضحت المشكلة . وبليغ شديد الصدق فى مشاعره . فى هذه اللحظة ليست هناك على الإطلاق أية مشــاعر داخل بليغ ضد أى حاكم .. الســادات أو غيره . لكن المشــكلة الكبرى هى أن نكسة يونيو ١٩٦٧ إذا كانت قد علمتنا أى شىء ، ففى المقدمة أن الهزيمة اسمهــا مصر ، والنصر اسمه مصر . وهذه الحــرب - حرب أكتوبر - هى حربنا جميعا . ليســت فقــط حرب المقاتل فى ســيناء . لكنها أيضا حرب زوجتــه التى تحملت غيابه ، وأخته التى اســتمرت تفخر به فى لحظة انكســاره ، وجيرانه الذين لم يفقدوا الأمل فيه وقت محنته .. وقريته التى أخذت من قوتها لتدفع ثمن سلاحه ..

كان عبد الحليم يحاول المقاطعة ، لكن تدفق مشاعر وأحاسيس وكلمات بليغ مستمرة : يــا حليم هذه حرب مؤجلة منذ ثلاث ســنوات .. حرب خاضهــا نفس الجيش الذى قام بحرب الإستنزاف وبحماية نفس الحائط الصاروخى الذى كان جاهزا منذ ثلاث سنوات .. هل نسميها إذن حرب جمال عبد الناصر ؟ إننى أرفض ذلك أيضا .. فنحن جميعا تحملنا التضحيات من أجل هذه الحرب .. وشهداؤها خيط واحد متصل منذ معركة «رأس العش» وإغراق المدمرة إيلات .. يا حليم افهمنى ..

حينما اســتدار عبد الحليم بعينيه نحوى قلت له : يا حليم .. ســوف تجىء مناسبات كثيرة تالية يتســع فيها الوقت لهذا الذى تريده . لكن فى هذه اللحظة المحددة بليغ معه الحق . وإذا أردت للحن أن يصل إلى قلوب الناس .. اترك بليغ على راحته . عندك كمال الطويل مثلا ، فى نشوة حماسه للعودة إلى التلحين . كان المعنى الذى انفعل به هو «خللى الســلاح صاحى» .. والمعنى الآخر الذى لحنه لعفاف راضى هو «الباقى هو الشعب» .. دع بليغ لإحساسه ..

بعدها غنى عبد الحليم «عاش اللى قال» من ألحان بليغ حمدى وكلمات محمد حمزة.. حل وسط بين تلقائية ورومانسية بليغ .. ورغبات عبد الحليم حافظ .

□□□

.. ثم تمضى الأيام .. وتأتى احتفالات ذكرى حرب أكتوبر متجددة سنة بعد سنة . وفى كل مرة يخفق قلب مصر الشعبية من جديد مع مجموعة من الأغانى ، فى مقدمتها دائما ما لحنه بليغ حمدى . لكن فى مقابل ذلك فإن مصر الرسمية لم تسمع أبدا ببليغ حمدى . ألقاب وجوائز وتكريمات من مصر الرسمية لكل من يستحق ولا يستحق تحت عباءة ذكرى حرب أكتوبر . لكن : يا مصر الرسمية .. أين بليغ حمدى ؟ نعم ؟ بليغ مين ؟ أنا ما أعرفوش ، ولا شفتوش ، ولا سمعتوش .. بتقول بليغ مين ؟!

.. ربما كان هذا هو ما دفعنى - فى المرة الوحيدة التى كتبت فيها عن بليغ حمدى - إلى أن أصب مشاعرى فى عامود كتبته فى «أخبار اليوم» بتاريخ ١٩٧٦/١٠/١٦ قلت فيه : «الأمومة ليست سلطة . إنها مسئولية .والأمومة ليست امتيازا . إنها عبء . والأمومة ليست ضمانا ضد الخطأ . وإنما هى قدرة على الرجوع إلى الصواب . والأمومة ليست واقعة مادية تؤدى بالضرورة إلى الحصول على الحب ثمنا ومكافأة . وإنما الأمومة هى أولا إعطاء الحب .. حتى بغير مقابل .

• وفى علاقة مصر بأبنائها هناك مشاعر مؤكدة بالأمومة . إنها ليست مشاعر خيالية ورومانسية وهائمة تربطنا بمصر كأبناء لها .. لأن مصر هى فى حياة كل منا أم حقيقية موجودة دائما فى حياتنا اليومية .. وتترجم نفسها بعلاقات محددة تربطنا بهذا التراب ، وهذا الشارع . وهؤلاء الجيران ، وهذه الأسرة ، وهذه الصحيفة ، وهذه المدرسة .

• فى هذه الحدود فإن مصر أيضا ليست أبدا فوق مستوى الخطأ . وبالتالى فهى ليست فوق مستوى المراجعة .

• ولقد وقع خطأ من مصر نحو واحد من أبنائها يوم الجمعة الماضى . فى الاحتفال الذى أصبح سنويا بعيد الفن . فى هذه المرة كرمت مصر عددا من أبنائها الذين ترجموا حبهم لمصر إلى فن .. فاستحقوا من مصر ما تلقوه من تكريم . وأكثر .

ولكن واحدا سقط سهوا من القائمة . وهنا تبدأ المرارة . إنه لم يشك إلى أحد . ولم ينتظر شيئا من أحد . ولا توقع مكافأة من متعهد . إنه أحب مصر لأنها أمه . ونحن نشكو مصر لحسابه ، لأننا أبناؤها .

ان هذا الفنان الكبير الذى سقط سهوا ، كان هو بالصدفة أكثر من ملأ مشاعرنا حماسا وصدقا فى حرب أكتوبر . إنها كانت حربه الشخصية جدا ، بمثل ما كانت نكسة ١٩٦٧ هزيمة شخصية لـ ٣٥ مليون مصرى .

ولأنه وطنى ، وفنان ، وموسيقى ، فإنه استخدم موسيقاه للتعبير عن وطنيته . فكانت النتيجة هى أحلى الأغانى الشعبية التى بقيت من حرب أكتوبر . أغانى استمعنا إليها بأصوات عبد الحليم ووردة والمجموعة و.. و..

وحينما يعبر الابن عن مشاعره نحو أمه فإنه لا ينتظر منها ثمنا ولا مقابلا ولا حتى مجرد تكريم . إنه يعبر لأنه يحس .. ويحس لأنه يحب .. ويحب لأن هذا هو انتماؤه ، وقدره ..

ولكن .. ماذا إذا كانت الأم نفسها قد بدأت فى تكريم أبنائها ؟ ماذا إذا اختارت الأم واحدا من أبنائها تكرمه دون الآخر ؟

إن بليغ حمدى – الذى سقط سهوا من تكريم فنانى أكتوبر – سوف يظل دائما ابنا لمصر.. فنانا فى حبها .. وعاشقا فى إخلاصه لها .

«فقط .. كنا نتمنى أن نسمع من الأم كلمة حب لابنها الذى أحبها على بياض ، فلم ينافسه فى حبها أحد» .

كانت تلك هى كلماتى التى فوجىء بها بليغ منشورة كباقى القراء . وفى رد فعله كادت الدمعة تفر من عينيه كطفل صغير . نعم . يومها كاد يبكى

لكنه أبدا لم يتذمر أو يشكو . فى الواقع أنه استمر كعادته يغنى لمحبوبته التى عذبته أحيانا ودللها كثيرا وسكنته دائما . يغنى لمصر . حتى بعد عودته من غربته الاضطرارية ، وقبل فترة وجيزة من رحيله الأخير . يتغنى بمصر بصوت شادية : «ادخلوها آمنين .. ادخلوها سالمين .. مصر بلد المخلصين .. مصر بلد المؤمنين».. إلخ . إن مصر بالنسبة لبليغ هى الناس البسطاء . كل الناس . إنهم كل جائزته . وهم أيضا سر عذابه .

فيما بين «يا حبيبتى يا مصر» و«مصر بلد المؤمنين» كانت مياه كثيرة قد جرت فى نهر النيل . بليغ نفســه ، بعد أن تنكر طويلا وراء أسماء بعض المؤلفين ، أصبح يكتب أغانيه بنفسه . وسواء بحكم الضرورة أو الاختيار ، فقد سجل نفسه مؤلفا غنائيا باسم «ابن النيل». والكتابة لم تكن بعيدة تماما عن متناول بليغ ، فالذين يحبون القراءة يصبحون غالبا محبين للكتابة . وذات مرة كنا عائدين معا من الإسـكندرية فى سـيارة بليغ . وحينما سألنى عن السـبب فى حرصى على التواجد فى القاهرة قبل السادســة مساء ، شرحت له أن الرغبة تجددت لدى لزيارة الدكتور طه حسين . من تلك اللحظة ، وحتى أوصلنى بليغ إلى فيللا «رامتان» – بيت طه حســين بذلك الشــارع المتفرع من شــارع الهرم – تدفق حديث بليغ بلا انقطاع عن انبهاره منذ الصغر بأسلوب طه حسين . فهو يرى أن أسلوب طه حسين فيه من الموسيقى ما كان كفيلا بجعله موسيقارا كبيرا لو لم يتجه إلى الأدب .

❑❑❑

وبرغم معرفتى المسـبقة بحب بليغ حمدى للقراءة ، وفى موضوعات متنوعة ، إلا أنه بين وقت وآخر كان يثير دهشــتى من اهتمامه بالشــأن العام . أحيانا ما تفرض الأحداث الجارية نفســها على أحاديثنا ومناقشــاتنا . لكننى فوجئت به ونحن فى شـقته الخاصة بمدينة الإســكندرية محتفظا بنســخة اشــتراها من أحــدث كتبى وقتهــا . كتاب بعنوان «.. وعليكم الســلام» . الكتاب ضخم ويقع فى نحو ســتمائة صفحة ، كان يمكن أن تصبح ألــف صفحة لولا أننى كنت أخشــى من ارتفــاع ثمنه على القارىء الــذى كتبت الكتاب خصيصا من أجله.

فلعدة سنوات كان لى حديث يومى فى إذاعة الشرق الأوسط فى برنامج باسم «من قلب إسرائيل». البرنامج مدته خمس دقائق ، وتعتمد فكرته على ســؤال توجهه إلــى المذيعة السـيدة سوسن سامى مستمد من حدث ســاخن أو تطورات طازجة . وطوال سنوات أيضا كانت تقارير إدارة المتابعة بالإذاعة تسجل أنه أصبح أكثر البرامج السياسية شعبية ، وهو شىء نادر بحد ذاته .

ومن بين ســيل الرســائل التى كنت أتلقاها من مســتمعى البرنامج .. كان يوجد نوع من الأســئلة التى تعبر عن فهم مســطح للصراع مع اسرائيل .. سواء تعبيرا عن عدم كفاية الثقافة السياســية المتاحة .. أم تأثرا بالدعايــات الرائجة . ولفت نظرى أن أصحاب تلك

الرســائل ينتمون إلى واحدة من شريحتين : إما الشباب .. وإما متعلمين ومهنيين بمستوى أطباء ومهندسين ومحامين .. إلخ . وبالنظر إلى قصر مدة البرنامج ..فقد كنت أحتفظ بتلك الرسائل يوما بعد يوم .. مقتنعا بحق أصحابها فى التساؤل .. وواجبى أيضا بتقديم إجابات تقتضى إعادة طرح الحقائق المجردة الموثقة . حقائق الصراع العربى الإسرائيلى من جذوره.. تاركا للقارىء بعد ذلك أن يقرر لنفسه فى النهاية الموقف الصحيح .

هكذا صدر كتاب «.. وعليكم الســلام» ، وهكذا فوجئت بأن «بليغ قد اشـترى لنفســه نسخة منه ولم يشأ أن يطلبها منى . وفوجئت ثالثا بأنه قرأ الكتاب كاملا . وخطط بقلمه تحت فقرات محددة لكى يناقشــنى فيها تفصيلا حينما تجىء المناســبة . وبقدر سعادتى بهــذا الاهتمــام من بليغ ، بقدر عزوفى عن الدخول فى مناقشــات مطولة ، فلم أكن أريد للسياسة أن تحاصرنى من الباب للباب .

لكن «بليغ» كان يصر ويصر .. ورغبته فى المعرفة كانت تعبر عن فنان لا يريد أن يكون عابر سبيل .. وإنما يريد لعقله أن يستوعب ، ولقلبه أن يطمئن ، وفى قضايا لا يتوقع المرء أصلا أن تكون فى صلب اهتماماته .

□□□

وفــى إحــدى المرات ، بعــد عودتى من رحلة عمــل صحفية طويلة بالخــارج انتهت بالولايات المتحدة ، لاحظ بليغ بين عشرات الكتب التى اشتريتها فى رحلتى كتابا أمريكيا عن أشــهر الأغانى وأكثرها رواجا . وتصفح بليغ الكتاب وهو فى حالة اســتغراب شديد : هذا كتاب غير عادى .. لماذا اشتريته ؟ إنه لا يضم فقط كلمات الأغانى ، ولكن أيضا النوتة الموسيقية لكل أغنية .. لماذا اشتريته ؟

وشــرحت لــه الفكرة كلها . فأنا أزعم بأن الكتابــة عن أى مجتمع تقتضى فهمه أولا . وجزء من فهمه يتجاوز السياســة والاقتصاد لكى يمتد إلى المزاج الســائد أيضا .. وصدقنى يا بليغ .. حال الفن هو دائما من حال السياســة . وهنا تصبح الأغانى الســائدة واحدا من أسرع المؤشرات للفهم . فأغنية مثل «طريقى» لفرانك سيناترا .. أو «تلك كانت أيام» لمارى هوبكينــز تعبــير عن حنين كامل للرومانســية . كذلك نجاح مســرحية غنائية مثل «رجل لا مانشا Man of La Mancha» .. المأخوذة أصلا عن حكاية «دون كيشوت» الإسبانية . هو شىء غير متوقع بالمرة فى مجتمع شديد المادية كالمجتمع الأمريكى .

وعلى الفور استعار بليغ منى كتاب الأغانى وشريط المسرحية .. فأحدهما يخاطب فيه الرغبة فى المعرفة .. والآخر يخاطب فيه عشقه الكامل للمسرح الغنائى . وبليغ له محاولات واجتهادات نشطة فى المسرح الغنائى .. بدءا من «مهر العروسة» إلى «تمر حنة» . لكن المشكلة الأساسية كانت دائما حاجة المسرح الغنائى إلى تمويل كبير وديكورات مبهرة .

وبين وقت وآخر كان بليغ يكرر دعوته إلى الدولة لكى تتبنى إقامة مسرح غنائى يكون بحد ذاته نقلة فنية وحضارية كبيرة . عشرات وعشرات من الحوارات الصحفية والإذاعية والتليفزيونية كرر فيها دعوته تلك إلى الدعوة . وذات يوم بدا أن الدولة بأعلى سلطاتها ربما تكون قد استمعت إلى بليغ حمدى . لقد أمر الرئيس أنور السادات باعتماد مائة الف جنيه - مبلغ معتبر تماما بالمقاييس السائدة حينئذ - لتقديم مسرحية غنائية كخطوة أولى . وحينما دقق بليغ حمدى فى الخبر المنشور تبين أن السادات اختار لتنفيذ تلك الرغبة.. زكى طليمات .

❑❑❑

وفى إحدى المراحل ، حينما كان البال رائقا والحماس متدفقا والدنيا ربيع والجو بديع بتعبير صلاح جاهين ، كان بليغ يغرينى بالكتابة للمسرح الغنائى . وضمن أوراقى الخاصة التى أعتز بها كثيرا مسرحية غنائية كتبت لها الفكرة والحوار ، وشرع بليغ فى كتابة بعض كلمات أغانيها .. زائد تصوره للديكور والحركة المسرحية . ودائما فإن الأغانى والفكرة ، من بعيد ومن قريب ، تخاطب المحبوبة المشتركة والحلم المشترك . تخاطب مصر .

لكن الأحلام تتكسر أحيانا على صخور الواقع . والواقع يصبح مأساويا حينما تصبح القضية الحاكمة هى الدفاع عن حق البقاء .. أصلا . وهنا مرة أخرى .. جمعتنا أشياء ، وفرقتنا أشياء . لكن الخيوط لم تنقطع بالمرة .

كل ما هناك أننى وجدت نفسى مسحوبا إلى معركة أدافع بها عن قلمى . فبالسلطة الغاشمة المغرضة جرى منعى من الكتابة فى جريدتى «أخبار اليوم» . وحينما عوضت هذا بالاستجابة لدعوات كريمة من صحف خارج مصر لاستضافتى ونشر مقالاتى .. جرى الضغط على للامتناع عن الكتابة خارج مصر . وحينما لم يأت الضغط بمفعوله جرى

الإلحاح على وزير الإعلام فى القاهرة – بمخاطبات مكتوبة – لمنع الإذاعة والتليفزيون من استضافتى فى برامجهما . وحينما فشل ذلك كان السلاح الأخير هو دس اسمى ضمن نخبة مختارة من الكتاب والصحفيين وأساتذة الجامعات الذين صدر قرار جمهورى ذات ليل فى سبتمبر ١٩٨١ بمنعهم من الكتابة أو التدريس بالجامعات نهائيا .

وفى حالتى الخاصة اكتشفت أن المنع امتد ايضا إلى وقف مسلسل درامى كان يذاع طوال شهر سبتمبر فى ثلاثين حلقة بإذاعة البرنامج العام باسم «المتمرد» ومن بطولة أحمد زكى وصفية العمرى وأخراج إسلام فارس . لقد جرى وقفه من الحلقة الخامسة عشرة . و.. فوق البيعة .. وجدت نفسى بالمرة .. ممنوعا من مغادرة مصر حتى إشعار آخر . لقد احتاج الأمر زلزالا سياسيا فى مصر ، وسلطة جديدة ، لإعادتى إلى الصحافة ضمن الدفعة الأولى فى يناير ١٩٨٢ . مع ذلك بدا أن النفوس الشريرة مستمرة فى غيها ، وإن يكن بوسائل أخرى من تحت الحزام .

أما بليغ حمدى فقد امتحنه الواقع المريض بمعركة أشد ضراوة وهولا . معركة يدافع بها عن سمعته . شرفه وسمعته . وبتلك الصفة أصبحت معركة بليغ لا تتعلق فقط بحق البقاء . إنها تتعلق بما هو منخفض عن ذلك كثيرا جدا . أنت بتقول بليغ حمدى ؟ بليغ مين ؟

❑❑❑

إننى أتذكر جيدا تلك المرة التى اتصلت بى فيها شقيقته «صفية» تليفونيا لكى تعاتبنى : لماذا لم تعد تزور بليغ أو تسأل عنه ؟ عرفت منه أنه دعاك عدة مرات ولم تلبّ الدعوة . لماذا ؟ بليغ يحتاج إليك بشدة . لا .. لا .. ليس هناك شىء سىء . فقط ما أراه من أنه منذ طلاقه من «وردة» بدأ بيته يصبح سداح كداح . أنا قلقانة من غير أى شىء محدد أقوله لك.. يا ريت تخليك مع بليغ اليومين دول .. فى الآخر هو بيثق فى كلامك ..

لم أكن أعرف بالضبط عن أى شىء تتحدث صفية . لكننى أعرف فقط أن بليغ كان متعلقا بأمه بشدة . ومنذ وفاتها أصبحت صفية تحاول أن تسد هذا الفراغ العاطفى عند بليغ. وخصوصا منذ طلاقه من «وردة» . لكن هل المشكلة هنا يمكن أن تكون مبالغة صفية فى القلق ؟ حدث هذا كثيرا من قبل . لكن فى هذه المرة تبدو صفية أشد قلقا من أى مرة سابقة . إنما : لا وقائع . مجرد عدم ارتياح من بعض الوجوه . مجرد قلق على بليغ .

كنت سأسافر في اليوم التالى إلى الخليج بدعوة من إحدى الصحف التى تنشر مقالاتى الأسبوعية . وقد وعدت صفية بأنه بمجرد عودتى سوف أجلس مع بليغ لكى أفهم منه .

يوم ويومان .. وإذا بى أقرأ فى الصفحات الأولى من صحف الخليج الخبر الصاعقة . خبر التحقيق الجنائى مع بليغ حمدى بعد أن جرى العثور على جثمان مطربة مغربية ناشئة اسمها «سميرة مليان». وبليغ هو الذى أبلغ الشرطة بالحادث ، مقررا أنها انتحرت بإلقاء نفسها من الشرفة الخلفية لشقته وهو نائم .. بعد أن تركها أولئك الذين جاءت أصلا فى صحبتهم .

كنت مدعوا لكتابة مقالى الرئيسى المعتاد بالصفحة الأخيرة من الجريدة التى جئت ضيفا عليها . ووجدت نفسى تلقائيا أكتب عن بليغ حمدى وذلك الحادث الغريب الشاذ بكل المقاييس . وببساطة شديدة ، كنت مقتنعا تماما بأن بليغ حمدى نفسه هو أكبر ضحايا الحادث ، أولا من معرفتى بنوع الحياة التى يعيشها فى منزله . ثم خصوصا من خلال الملابسات الغريبة المحيطة بالحادث .

واتصل بى فى الفندق رئيس تحرير الجريدة .. وهو صديق قبل أى شىء . إنه يقول بلطف وكياسة : أنت بالطبع تعرف أن القراء هنا يتجاوبون معك تماما ويثقون فيما تكتبه . لكننى أخشى عليك فى هذه المرة . الناس معبئون تماما ضد بليغ حمدى .. ومن خلال ما يجرى نقله عن صحافة القاهرة . إن لك علاقتك المباشرة مع القراء . ومقالك يحمل اسمك وصورتك . وبالتالى فلك الحق كاملا لتقول للقارىء ما تعتقده . لكننى أردت فقط أن أعبر لك عن حرصى عليك كصديق ، ومصداقيتك عند القراء . إنه قرارك .. ننشر المقال ؟ عظيم .. ننشر المقال .

□□□

وفى الطائرة عائدا إلى القاهرة كنت ما أزال غير مصدق . إذا كان هذا هو الموقف من بليغ فى الخليج ، نقلا عن صحافة القاهرة ، فكيف يكون الموقف فى القاهرة ذاتها ؟ إن بليغ يمكن محاسبته عن إهماله .. عن ذلك القدر من الفوضوية فى حياته ، بل حتى عن أسلوب حياته ذاتها . لكننا فى هذه الحالة المحددة أمام حقيقة أولئك الضيوف فى تلك الليلة الذين سمحوا لأنفسهم بالسهر فى بيته بعد أن دخل صاحب البيت نفسه - بليغ حمدى - إلى غرفته لينام . فقط لكى توقظه راعية البيت فى الصباح المبكر مذعورة . حينما

اكتشـفت بالصدفة تلك الحقيقة المفجعـة . حقيقة أن واحدة من ضيوف الأمس قد غافلت من جاءت معهم أصلا .. وانتحرت من الشرفة الخلفية للبيت .

وبعد أن عدت إلى مصر جاء الاكتشـاف الآخر . لقد دارت عجلة الإثارة الصحفية بكل قوتهـا لكـى تدين بليغ حمدى من قبل أى محاكمة .. بحيث إنه فى اللحظة التى تجرى فيها المحاكمة القضائية .. سيكون بليغ حمدى قد جرى اغتياله معنويا بالكامل .. وجرت إدانتـه مسـبقا . وبدلا مـن أن يصبح الرأى العام فى حالة انتظار لـما يقوله القضاء .. فإن القاضى ذاته سيصبح أسيرا للرأى العام .. أو ما يحمل شبهة الرأى العام .

أما من حيث بليغ حمدى نفسـه ، فقد بدأ يتحول إلى كاريكاتير . إنه ينكمش نفسـيا يوما بعد يوم داخل ذاته ، مرتاعا من حجم هذا التشـفى الغامض الذى لا يعرف أسبابه . فـى الواقـع إن الحواديت تضخمت وتضخمت ، إلى درجة أننى ذات مسـاء بدأت أسمع روايـات تتنافـس مع بعضها عما جرى : لا .. أنت لا تعرف كل الحقيقة .. لقد كان فى السـهرة خمسـة وزراء .. لا .. لا .. كان هناك فلان وفلان من الأمراء العرب . لا .. لا .. الكلام ده من سـنين وسـنين .. إياك تكون فاهم إن بليغ هو اللى بيصرف على نفسـه .. تحـب أقول لك عن آخر شـيك جاله مـن الأمراء دول ؟ .. أقول لك كمـان إيه اللى كان بيحصل فى بيته كل ليلة ؟ ..

يـا خـبر ؟ كل ليلة ؟ وبمثـل تلك «المعلومات» الدقيقـة ؟ إذن كيف وجد بليغ الوقت ليلحـن ٣٠٠٠ أغنية ؟ منها إحدى عشـرة أغنية لأم كلثوم أكـبر عملاق غنائى فى تاريخ العرب ؟ لابد أن بليغ هذا يعيش بسبع أرواح .. كده .. والا إيه ؟ . لكن لا جواب . عند الحجة والمنطق والعقل .. لا جواب .

فبعـد كل مـا جرى من إثارة صحفيـة . واغتيال معنوى للشـخصية ، أصبح الجميع يسـتحلون لأنفسـهم أن يصبحوا قضاة ، بل جاهزون مسـبقا بأحكام الإدانة . وفى مسار تلك القضية كانت هناك أكثر من علامة اسـتفهام وأكثر من استدارة حادة .. بعضها أصبح عبئا على العقل والقلب . وبعض النفوس المريضة تسـتفز مشـاعر الناس بإشاعات مجهولة المصدر والدوافع .

الناس .. الناس .. الناس .

. كانوا حلم بليغ حمدى . الآن أصبحوا قضاته . ولأنهم من الأصل يرتبطون معه بعلاقة من الحب ، فقد أصبح يتم رسميا طمأنتهم باستيفاء الشكل .الآن أصبحت اللهجة هى : جهزوا حبل المشنقة .. حتى نبدأ فى المحاكمة العادلة لهذا المتهم .

❑❑❑

. ذات غداء سألنى الموسيقار محمد عبد الوهاب مداعبا : يا أخى أنا والله مستغرب من صداقتك مع بليغ حمدى . طيب .. كمال الطويل .. معقول . محمد الموجى .. عبد الحليم .. معقول . إنما .. أنت وبليغ ؟ من أين يأتى التوافق ؟ هو قصير وأنت طويل . هو يحب الفوضى وأنت تحب النظام . هو يرتاح فى الدوشة وأنت ترتاح فى الهدوء . هو يحب السهر كثيرا وأنت تنام مبكرا . هو مسرف فى مجاملاته وأنت عقلانى جدا . هو يأخذ نظام حياته باستخفاف وأنت تأخذه بجدية . هو يعشق الزحام وأنت تألف الوحدة . هو مناور أحيانا وأنت صريح دائما .. عايز أعرف .. كيف تتحمله ؟

.. لحظتها قلت لمحمد عبد الوهاب : ولماذا لا تعكس السؤال ؟ لماذا لاتقول .. كيف يتحملنى هو ؟

ضحك محمد عبد الوهاب .. مقررا بذكاء أن عليه تغيير الموضوع .

ودارت الأيام . فبعد ذلك الحادث المفجع فى بيت بليغ حمدى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨٤ ، وبالتأكد من أن الحادث انتحار ، تم حفظ الدعوى الجنائية . لكن بعد شهور قليلة ، ومع تعيين نائب عام جديد ، جرى فجأة تحريك الدعوى الجنائية من أول وجديد .

هكذا جرت المحاكمة جلسة بعد جلسة .. وفى المتابعة القانونية كرر بليغ حمدى خطأه المعتاد : لقد وضع ثقته الكاملة فيمن لا يستحقها .. معتمدا على حقيقة أنه مظلوم وضحية فى القصة كلها .

وفى العاشر من فبراير ١٩٨٦ أصدرت محكمة أول درجة حكمها : حبس بليغ حمدى لمدة سنة مع الشغل . وكفالة ألف جنيه لوقف التنفيذ . ووضعه تحت مراقبة الشرطة مدة مساوية لمدة العقوبة .

قبلها بشهر تقريبا كانت مأساة بليغ حمدى هذه موضع حوار مطول بينى وبين محمد عبد الوهاب . كنت فى حينها قد توليت رئاسة تحرير جريدة صغيرة اسمها «الأحرار»

كتجربـــة مؤقتة أخوضها إلى جانب عملى فى «أخبار اليوم» .. مدفوعا إلى التجربة بدوافع عديدة فى مقدمتها أننى ممنوع من الكتابة أساسا فى جريدتى الأصلية ، ولأننى كذلك أريد أن أختبر فى التطبيق مفاهيمى الخاصة للصحافة المختلفة .

اندمجت تماما فى هذا التحدى المهنى .. محاطا بطوفان من مشـــاعر الحب أكرمنى به زمـــلاء وزملاء من الصحفيين الموهوبين الذين تركوا صحفهم لكى يعملوا معى ولو بملاليم ، وأيضا من شباب واعدين ما يزالون طلبة فى كليات الإعلام . وبقدر سخاء المشاعر كان فقر الإمكانيات . لكن مع تبلور التطوير الجديد فى الجريدة بدأ إقبال القراء يتجســد فى أرقام التوزيع . فبعد انهيار توزيع الجريدة سابقا إلى أقل من ثلاثين الف نسخة ، تحرك التوزيع بانتظام وســرعة إلى خمســين .. إلى سبعين .. إلى مائة ألف .. وفى نهاية المطاف إلى مائة وستين ألف نسخة حينما تركت الجريدة .. أو تركنى أصحاب الجريدة .

فى مســار تلك التجربـــة ، ومنذ الأعداد الأولى التى توليت رئاســة تحريرها .. كانت تلاحقنى مكالمات أصدقاء كبار عديدين .. فى مقدمتهم الموســيقار محمد عبد الوهاب . إنه يتحدث معى مهنئا بحرارة ، مشجعا لى على المزيد ..

وسألته ذات مرة : هل هذه الكلمات للمجاملة .. أو لأنها رأيك بجد ؟

رد عبـــد الوهاب ضاحكا : آه .. أنا عـــارف إنك دايما بتتهمنى بكثرة المجاملة . لكن أحلف لك بإيه المرة دى علشان تصدق ؟

قلـــت لـــه : لا تحلـــف . فقـــط .. اعمـــل لى خدمـــة .. اكتـــب مقالا باسمك لأنشـــره بالجريدة ..

ســكت عبد الوهاب لحظات قبل أن يســألنى : أنت بتتكلم بجد ؟ طيب أنا موافق .. لكن طبعا إنت اللى تكتبه لى ..

وأجبته : نعم .. سأكتبه لك من حصيلة مناقشاتنا معا . أليس من رأيك ان بليغ حمدى مظلـــوم ؟ وأن الصحافـــة مذنبـــة ؟ وأن البلوى التى جرت لايجب أن تجعل الناس قســـاة القلـــوب على بليغ حمدى لأنه هو أيضا ضحية ؟ وأن الحملة الجارية والمتصاعدة هى أكبر جدا من بليغ حمدى وتمتد لتشمل كل ما هو فن مصرى ؟

قاطعنى عبد الوهاب مستدركا : لكن ...

قلت له قبل أن يكمل : نعم هناك دعوى تأخذ مسارها أمام القضاء . والمقال الذى أقترحه عليك لن يتعرض لها مطلقا . وحتى اسم بليغ حمدى لن يرد فى المقال بالمرة . فقط سنتناول فى المقال قيمة الفنان . قيمة مصر . مسئولية المجتمع . معنى العطاء . خطورة التشفى . جناية الإثارة الصحفية . وبذكاء القارىء المصرى سيعرف الجميع أنك تتحدث عن بليغ حمدى .

مرت دقيقة من الصمت بيننا عبر أسلاك التليفون تخيلتها دهرا كاملا .

وفجأة .. قال محمد عبد الوهاب : أنا موافق .. اكتب المقال باسمى .. وعلى خيرة الله ..

تنفست الصعداء .. وقلت له : سأكتب المقال فورا .. لكن لا بد أن أقرأه عليك كلمة كلمة لأنه فى النهاية سيحمل اسمك . إذن .. بالكثير بعد ساعة سأطلبك لكى تعدل فيه كما تشاء .

□□□

أن محمد عبد الوهاب الآن فى رحاب الله . والرجل كانت له فى نفسى مكانة كبرى بمثل ملايين من الناس . وهو كانت له خصال إيجابية عديدة . لكن لم يكن من بينها الشجاعة فى مواجهة الرأى العام . كما أن العلاقة الشخصية بينه وبين بليغ حمدى لم تكن دافئة . ثم إننى فى سن أولاده . وهو نفسه كان يداعبنى كثيرا بقوله : «فى أحيان كثيرة أحس أنك ابنى . لكن فى أحيان أخرى ، لا أنت ابنى .. ولا أنا أعرفك».

لم تكن لى إذن أية سلطة يخشاها محمد عبد الوهاب .. ولا مصلحة يتبادلها معى . كل ما فى الأمر هو قدر من الثقة المتبادلة زرعتها التجارب بيننا . ولو كان محمد عبد الوهاب قد رفض فكرتى فإننى لم أكن لألح عليه . لكنه - بتجرد ونزاهة وعقل يقظ - لم يعدل كلمة واحدة فى مشروع المقال حينما قرأته عليه .

وهكذا فإن ذلك العدد من الجريدة الذى صدر فى ١٣ يناير ١٩٨٦ حمل فى صدر صفحته الأولى إشارة إلى محمد عبد الوهاب الذى يكتب مقالا لأول مرة . أما المقال فعنوانه «إننى أشكو الصحافة .. إلى الصحافة» . ويكفى هنا أن استرجع منه . وهو المقال الذى يحمل توقيع عبد الوهاب وصورته . فقرته الأخيرة التى يقول فيها : «.. وحينما يبالغ

البعض فى تحميل سلوك هذا الفنان أو ذاك بأكثر مما يحتمل .. وحينما يمارس البعض محاكمات مستمرة لكل الفنانين المصريين بحجة أو بأخرى .. فإنهم بذلك لا يقللون من مكانة الفن والفنانين فقط ، ولكنهم بذلك يقومون - بغير وعى غالبا - بوضع المزيد من الألغام فى طريق الريادة الفنية المصرية فى العالم العربى . إن هناك دولا نعرفها جميعا مستعدة لإنفاق ملايين الملايين حتى يكون لها بعض هذه الريادة المصرية فى العالم العربى . فدعونا لا نعطى عن حسن نية ذلك النوع من الذخيرة الذى يستخدم فورا ضد مصر والمصريين جميعا» .

فى اليوم التالى اتصل بى بليغ حمدى قائلا فى تأثر بالغ : أريد أن اشكرك ..

قلت له متسائلا : على ماذا يا بليغ ؟

قال بليغ : معقول عبد الوهاب يعمل كده ؟ طبعا أنت اللى أثرت عليه ..

قلت له : أنت مخطىء يا بليغ . الفكرة كلها من عبد الوهاب ولا دور لى فى أى شىء سوى الصياغة . وإذا كان هناك من يستحق الشكر منك فهو عبد الوهاب نفسه . أرجوك يا بليغ .. هو متعاطف معك جدا .. وسيكون شيئا جميلا لو أنك طلبته لتشكره ..

كنت فى الحقيقة أريد أن أمتص جزءا ، ولو يسيرا ، من تلك المرارة التى تراكمت داخل بليغ حمدى من الناس . كل الناس . وفى إحدى النقاط لم أعد أعرف أيهما أكبر من الآخر : الوحشية التى يتم بها سلخ سمعة بليغ حمدى ومكانته .. أم مرارة بليغ نفسه مما يجرى به على رءوس الأشهاد .

وحينما صدر حكم أول درجة بحبسه سنة ، لم تكن هى الكلمة الأخيرة ، فالقضاء المصرى يستمد ضماناته للعدالة من داخله . لكن المسألة أصبحت هى «الثمن» . كم من الثمن سيصبح على بليغ أن يدفعه من سمعته وكرامته وحياته وسط جبال من علامات الإستفهام.. قبل أن ينصفه القضاء المصرى فى نهاية المطاف ويرد إليه اعتباره !

❑❑❑

نعم أنصفه القضاء . أنصفته محكمة النقض .. أعلى محكمة فى القضاء . وعاد بليغ حمدى بعد خمس سنوات فى الغربة الموحشة . وهو الذى لم يكن يطيق الابتعاد طويلا عن مصر .

وقبيل صدور حكم محكمة النقض بأسابيع قليلة كانت السيدة المطربة عفاف راضى قد جاءتنى باكية ، وبصحبتها السيدة «صباح» راعية بيت بليغ حمدى وفى مقدمة الأوفياء له . كانت عفاف قد تلقت لتوها مكالمة تليفونية من بليغ فى باريس . مكالمة خلاصتها أنه يريد العودة إلى مصر ويدخل بقدميه إلى السجن بغير أن ينتظر حكم البراءة من محكمة النقض .. لأن وطأة الغربة أصبحت مرضه المستجد بقسوة .. فأصبح يريد أن يموت فى مصر ، ولو سجينا ، ولا يعيش حرا فى باريس .

يومها كان يزورنى الصديق مكرم محمد أحمد ، وهو فى حينها رئيس تحرير مجلة «المصور» ورئيس مجلس إدارة دار الهلال . وأصبحت وطأة الانفعال طاغية حينما تساءلت عفاف راضى : هل يمكن توفير الأدوية اللازمة لبليغ فى السجن بقدر ما أصبحت تستلزمه حالته الصحية المتدهورة ؟ مجرد الأدوية ؟

استمرت التساؤلات والتساؤلات .. ومعها استمرت أيضا مراحل القضية . ثم .. جاءت الكلمة الأخيرة للقضاء المصرى لكى تبرىء بليغ حمدى وترد إليه اعتباره .

لكن بليغ العائد أصبح شخصا مختلفا . أصبح شبحا ز أو ظلا . أو خيالا من ماض متوهج ، وحاضر لم يكتمل . وعلى حد تعبير محمد الموجى فإن بليغ كان مملوءا بالموسيقى . الشجن والوحدة والغربة والعذاب والفوضى والألم ... والموسيقى .

❑❑❑

كيف تزورنى إذن . يا صديقى بليغ . لكى تطلب منى لأول مرة أن أكتب ؟ إنك حتى لم تسعفنى بالا ووقتا وصحة . لقد كانت هناك بحار عميقة أخرى من الذكريات بيننا .. والأحلام الغضة فى قلوبنا .

لكنك يا أخى فاجأتنا بالصمت .. والرحيل .

كيف أكتب إذن .. وأنت الصديق الذى اختار الرحيل فى منتصف الجملة .. الموسيقية ؟ وعن أى جزء أكتب : عن نصف الجملة الذى قلته .. أو النصف الآخر الذى كنت تريد أن تقوله ؟

فيما بعد النشر ..

بعض وقائع ....

واقعة أولى : لم أكن أعرف أن مجلة «أكتوبر» يجرى طرحها فى القاهرة مساء الجمعة ، فالعدد يصدر حاملا دائما تاريخ السبت . عرفت ذلك فقط حينما أيقظنى رنين التليفون بجانبى فى السادسة صباحا .

وعلى الطرف الآخر جاءنى الصوت مختنقا ومتقطعا . إنه صوت الصديق الموسيقار محمد الموجى يطلب منى رقم التليفون الخاص بالصديق الأستاذ صلاح منتصر ، رئيس تحرير مجلة «أكتوبر» .

صباح النور يا موجى . لماذا فى هذا الوقت المبكر وأنت الذى تستيقظ فى العادة متأخرا ؟

رد محمد الموجى : لأننى جئت معى فى عودتى إلى المنزل بعد منتصف الليل بمجلة «أكتوبر» حينما وجدتها تفرد غلاف العدد كله لصورة بليغ حمدى ، منوهة بمقال عنه يحمل اسمك . الآن فقط انتهيت من قراءة المقال للمرة العاشرة والدموع كادت تنساب من عينى . أنت لم تنصف بليغ حمدى فقط .. أنت أنصفت الفن والحقيقة . إنما الجديد هو أن يختار رئيس التحرير الاهتمام بالمقال وإبرازه على هذا النحو . من هنا أريد الاتصال به شخصيا لكى أعبر له عن امتناننا جميعا ....

واقعة ثانية : لم يكن قد مر على رحيل بليغ حمدى سوى أسابيع قليلة . تدفق خلالها حب الناس له كالشلال .

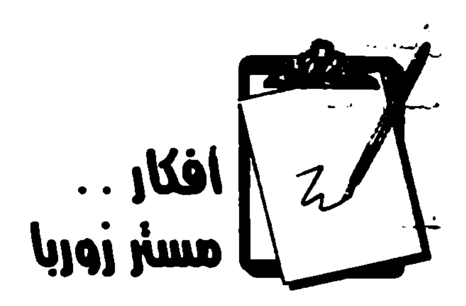
وباسم الحب ، أو نوع خاص مزيف من الحب . ظهرت فرقة جراد بشرية فى المدينة ، أو فرقة مرتزقة معنى آخر ، لكى تبشر بأنها فى سبيل إعداد فيلم سينمائى محوره انتحار تلك السيدة المغربية فى بيت بليغ حمدى . ضاع الفن . ضاع التاريخ . ضاعت الحقيقة . وبقيت فقط «فهلوة» الارتزاق من بليغ حمدى راحلا بعد أن انتهى الارتزاق منه حيا .

واقعة ثالثة : اتصلت بى «صفية» الشقيقة الكبرى لبليغ حمدى فى خمس مكالمات تليفونية متتابعة . مكالمات

بدأت بحديثها عن حضورها الليلة لحفل غنائى بمسرح البالون تكريما لبليغ حمدى . لكنها تشتم شيئا غير مستقيم فيما توارد إلى سمعها . فى مكالمة ثانية وثالثة تلح على بتفسير قد أملكه لشىء لم أعرفه أصلا . فى المكالمة الرابعة تحول صوتها إلى ما يشبه الاستغاثة.. والبكاء . تصور .. يقولون فى الكواليس إن الحفل يتأخر عن موعده لأن الموسيقيين يشترطون تقاضى أجورهم أولا .. رغم أنهم جاءوا اصلا متطوعين بالعزف مجانا.. وفاء لبليغ حمدى . فى المكالمة الخامسة يتهدج صوت صفية وتتقطع كلماتها بينما هى تشرح لى التفسير الذى قاله لها الموسيقيون لتصلبهم . هم رحبوا أصلا بالمجىء وبالعزف مجانا تكريما لاسم ومكانة بليغ حمدى . لكنهم قبل رفع الستار اكتشفوا سرا مفاجئا كشف عنه شجار بين اثنين من «صراصير» المدينة .. كل منهما يقول ان الحفل من تنظيمه هو ، ولحسابه هو ، وكل منهما باع تسجيلات الحفل مقدما وقبض الثمن . من هنا غير العازفون موقفهم . أرادوها فنا .. وأرادها «صراصير» المدينة استرزاقا وتجارة .

مكالمة صفية الأخيرة انتهت فى الحادية عشرة مساء.

وفى الصباح التالى قرأت بالصفحات الأولى من الصحف الخبر المروع : وفاة صفية ، شقيقة بليغ حمدى ، بالسكتة القلبية . الوفاة جرت بمسرح البالون . الوفاة جرت فى الحادية عشرة والربع مساء .



أفكار ..
مستر زوربا

«.. كنت أريد نجاحا مدويا فكان نصيبى فشلا مدويا .. أنا جربت طعم الهزيمة مرات كثيرة وسنوات طويلة . لأن الحياة تلسعنا أحيانا ، ولكنها حرقت أصابعى غالبا .. أنا معك فى أننى مثل أى ممثل آخر ، جائع لشهرة أكبر ، ومال أكثر .. ولكننى أختلف عن أى إنسان آخر فى أننى أريد أولا طعما أحلى لحياتى .. آه .. أختلف أيضا فى شيء آخر : أولادى .. أنا خدعت الناس أحيانا ، وخدعونى كثيرا ، ولكن لا مرارة .. أنت تذكرنى بشبابى كثيرا ، فهل .. هل .. تسمع أغنيتى المفضلة ؟!»..

كانت الكلمات تتساقط هكذا من بين شفتى الممثل العالمى أنتونى كوين ، بينما نحن - هو وأنا وصديق ثالث - نتناول العشاء معا فى فندق هيلتون بمدينة نيويورك . إن إعجابى بأنتونى كوين كممثل فوق العادة يجعلنى متحفظا . إنه يتكلم ويبتسم ويتذكر ويضحك ويتكلم من جديد .. صوته عريض عميق له نبرة مؤثرة . عيناه واضحتان وملامحه تبدو جافة الآن ورقيقة بعد لحظة . وجهه يتجعد بسهولة ويبتسم فى بساطة . وجه غير وسيم . وجه قروى . وجه متشرد . وجه ربما تراه مرة واحدة ولكنك لن تنساه أبدا . إن الأبيض فى شعره بدأ يتزاحم مع الأسود (عمره ٥٧ سنة) . والبساطة فى حديثه تطغى على الخبرة . إننى سرحت كثيرا أثناء حديثه ، ولكننى أفقت على هذه الجملة منه : «إننى أخشى أن أصبح عجوزا دون أن أدرى»! كلمات يؤمن بها أنتونى كوين . نقلا عن الزعيم الفرنسى الراحل شارل ديجول . عظيم .

إن عظمة أنتونى كوين بالنسبة لى الآن تتركز فى الكبارى الكثيرة التى عبرها فى مراحل حياته . إن الطعام يدخل فمى متبادلا الدور مع الكلمات التى تدخل أذنى من حديثه.

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٢/٦/٢٤ .

إنــه يقــول : «.. الناس ينجحــون غالبا قبل الثلاثين . أنا لم أكتشــف حظى إلا قبل الخمســين .. وفى وقت ما أحســـت بأننى لو خرجت من الدنيا نصف عاقل فهذه نعمة من الله !..

«طبعا تعلم أننى كنت فى الأصل أعمل مساعد مخرج . مساعد المخرج العظيم الراحل سيسيل دى ميل .. وعندما أتاح لى سيسيل فرصة ضخمة ، بإعطائى مهمة إخراج فيلم (القرصان) سنة ١٩٥٨ ، فشل الفيلم بجدارة ، وفشلت أنا معه بقسوة . لقد كانت كارثة العمر ..

«.. أنــا لا أحب اليأس . لهذا نهضــت وحاولت من جديد . حاولت وحاولت وأعتقد أننى حققت الآن شيئا فى السينما .. شيئا لنفسى على الأقل ..

«.. فى الخمســة وعشــرين عاما الأخيرة هبط جمهور السينما الأسبوعى هنا فى أمريكا من ثمانين مليونا إلى ١٦ مليونا .. تصور ؟ لقد هبط الإنتاج أيضا من ٣٧٨ فيلما إلى مجرد ١٤٣ فيلما فى السنة . هذه أزمة كبرى . أزمة لن ينقذنا منها سوى حلين : التكنولوجيا.. والقصة ...»

«.. القصــة الجيدة هى المفتاح الســحرى لحل أزمة الســينما .. الــدم الجديد . القصة الشــابة . القصة التى لا تبتعد كثيرا عن الواقع الإنســانى . قصتى وقصتك وقصة الرجل العادى . رجل الشارع . القصة هى المشكلة . والقصة هى الحل ..

«.. إن هوليود مدينة مليئة بالنفاق . الممثلون فقدوا صلتهم بإنسانيتهم . صلتهم بالمعنى الإنســانى للحياة . بالغضب الحقيقى ، أو بالحب الحقيقى . صلتهم بالسعادة البسيطة.. أو بالخــوف الــذى تتذوقه .. أو الفكرة التى تحترق بها . الشــعور بأن الحياة تدق داخل عظامك ..

«.. اسمــع ، أنا أحب أن يكــون لى صديق مثلك فى القاهرة ، أدعوه ويدعونى .. لماذا لا تحضر معى الآن هذا المشــهد الذى ســنصوره اليوم ؟ إذا لم تفعل ذلك من أجلى ، فعلى الأقل من أجل صديقك وصديقى : فؤاد .. هه ؟ إيه رأيك ؟»..

قلت : أوكى .. أنتونى ! ..

قال : سمنى تونى ..

قلت : فى الحقيقة أنت بالنســبة لى دائما مســتر زوربا اليونانى . مع ذلك .. أوكى ، تونى !

□□□

جاهزين ؟

أجاب مدير التصوير على سؤال المخرج : نعم .

بدأ التصوير .

السيناريو : «أنتونى كوين – اسمه فى الفيلم (ماتيللى) – يسير ثم يقف هناك ، محملقا فى لا شىء بقوة عاتية . إنه يفكر .. ربما فى حمامه القادم . ربما يفكر أيضا فى زوجته . إنه يهز رأسه عدة مرات ، كما لو كان يقول : هذا شىء لم يحدث .. لايمكن أن يكون صحيحا .. ومع زوجتى نفس الشىء . إنها مخطئة .. ولكن ، كيف تدرك هى ذلك ؟ ..

ستوب ..

توقف التصوير . انتهى المشهد . أنتونى كوين يجلس فى الركن على بعد عشرة أمتار منا . إنه أمامنا ولا يرانا . إنه الآن يقرأ المشهد التالى . بعد أن وضع النظارة الطبية فوق أنفه . لقد بدأ يقرأ . بدأ يمثل . بدأ يعيش . بدأ يتنفس . إن هذا الرجل الذى كان يتعشى معنا منذ ساعة لم يعد موجودا . بدلا منه .. نحن الآن أمام «ماتيللى» . ضابط البوليس «ماتيللى» . شخصية أكثر واقعية وتعقيدا من الرجل الذى تعشى معنا . إن «ماتيللى» له الآن طريقة مختلفة فى التنفس ، فى التفكير ، فى التدخين ، فى السعال ، فى الحديث ، وفى مضغ الفول السودانى .

فؤاد سعيد يهمس فى أذنى : هل أنت مستريح ؟

إن فؤاد هو المنتج المشارك للفيلم الذى يجرى تصويره الآن . فيلم يتكلف مليونين من الدولارات . فؤاد هو أيضا مخترع نظام الأستوديوهات المتنقلة – يسمونه هنا سينيموبيل – الذى أنقذت به هوليود نفسها فى السنوات السبع الأخيرة . فؤاد مصرى هاجر منذ ١٧ سنة وهو الآن أمريكى الجنسية . فؤاد هو – أخيرا – الذى عرفنى بأنتونى كوين ، وحجز لنا حجرتين متجاورتين فى الهيلتون . هكذا أصبح علينا نحن الثلاثة – أنتونى كوين وفؤاد وأنا – أن نعيش معا ليل نهار لعدة أيام تالية .

قلت لفؤاد سعيد : نعم أنا مستريح ولكن .. لماذا لا نتجول بالسيارة قليلا ؟

حسنا . ليه لأ ؟

□□□

الصباح . الجو اليوم ممطر . بارد ورطب وممطر .

□□□

سؤال يثير فضولى : لماذا يمثل .. الممثل ؟

حينما يأتى أنتونى كوين الليلة .. لابد أن أسأله هذا السؤال .

□□□

فى عقلى .. مغص . فى تفكيرى ، فى تصرفاتى ، فى برنامجى .. مغص وتوتر ورغبة فــى الفــرار . الفرار من هذه المدينة ـ نيويورك . أريد أن أقــول وداعا لصباحى المتكرر فى الأوتوبيس المزدحم .. للخمســة وثلاثين ســنتا التى أدفعها لسائق متجهم عبوس . لفنجال القهوة الذى أشــربه فى علبة الورق المقوى . لمســحوق شربة الفراخ الذى أذيبه كل يوم فى المياه الســاخنة . للأسانســير المزدحــم الذى يتوقف فــى الأدوار ١١ و١٢ و١٥ . للصفحة الأولى فى «النيويورك تايمز» . لكل تلك الحياة المعلبة التى أعيشــها فى نيويورك (وإقامتى مدعــوا فــى فندق الهيلتــون أو فندق بيير أو فــى فندق بلازا هى مجــرد جملة اعتراضية مؤقتة) . هذه مدينة تعيش بالفيتامينات . إن الإنسان يعيش بالساندويتشات ، نعم . ولكن بالفيتامينات ؟ لا .. لا .. لا ..

□□□

يخطفك ؟ اخطفنى ؟ ألقنى أرضا.. ماذا يعنى هذا ؟ لا أعرف . لغز . تعال مرة أخرى وأخرى . رمز ؟ حقيقة ؟ ربما أحدهما ، أو لا شىء منهما .

ما هذا الذى تقرأه يا تونى ؟

رد أنتونى كوين ، طارحا الكتاب من يده على السرير : هذا حوار من الرواية الجديدة «برتقالات الدم» . إنها رواية طموحة ، كتبها واحد من روائيى الصف الأول فى أمريكا .

– رواية جيدة ؟

– سيئة جدا .. وجيدة جدا .. فى وقت واحد .

قلت : هل تقرأ كثيرا ؟

رد أنتونى كوين : وهل للإنسان قيمة قبل أن يقرأ .. كثيرا ؟

□□□

الغرفة معبأة بدخان السجائر .

أنتونى كوين يقول : لماذا لا أدعوك ، مع فؤاد سعيد ، إلى سهرة غريبة الليلة ؟ سهرة فى ملهى هيبيز ؟ ملهى اسمه «شنب أبوك» ؟!

أدهشتنى الفكرة .

□□□

شنب أبوك .

فى علم النفس نظرية معروفة قليلا اسمها «نظرية لومبارد» . نظرية تقول إن المتحدث يرفع مستوى صوته تلقائيا فى انعكاس أوتوماتيكى لارتفاع الضجة المحيطة به . ولكن .. مع ارتفاع صوت الإنسان يقل وضوحه .

هكذا قل الوضوح فى كلماتنا ـ نحن الثلاثة ـ رغم أن المائدة بيننا عرضها ستين سنتيمترا . الآن إذا .. لا حوار . لا مناقشة . لا وضوح . مجرد شفاه تتحرك . مجرد تهتهة . نحن نتكلم . كل إنسان فى هذا الملهى يتكلم . يرقص . يغنى . يشرب ويرقص ويغنى من جديد .. بالى هو .. هولابالو .. بالى هو .. هولابالو .. بالى هو .. هولابالو ....

ها نحن نجلس وسط الرقص والضجة وعنفوان الموسيقى . ها نحن نجلس .. كبارا كالحياة . قصارا كالعمر . ضائعين كالحقيقة . إن أنتونى كوين غريب أمامى . بالأمس رأيته فظا فى مشهد للتصوير . فظا . غليظا . جافا . شجاعا . الآن رقيق .. قابل للكسر كزهرة .. قابل للسخرية كمهرج . إنه الآن يغنى . الآن يغضب . الآن يبتسم . الآن يسخر . الآن يصيح . انه يصيح كالراقصين حولنا . الناس حولنا يرقصون ويشربون . من بينهم يرتفع صوت بربرى .

من داخلى أنا يقفز سؤال : تونى .. المخدرات تبدو منتشرة هنا .. أليس كذلك ؟

– طبعا . طبعا . طبعا .

– هل أنت تتعاطاها ؟

– لا . لأننى أحب أن أضحك وأرقص . ولكننى لا أحب أن أنسحب من الوعى . من الحياة .

– هل تشرب الخمر كثيرا ؟

– أبدا .. نادرا ..

– اسمع يا تونى .. هناك سؤال يتدحرج الآن على لسانى .. ماذا تعتقد أنك تشبه ؟

تراجع أنتونى كوين إلى الوراء وهو يرد مندهشا : أوه .. هذا سؤال مضحك !

قلت : إذن .. أجب على سؤال مضحك .

رد أنتونى كوين مفكرا : أنا .. سيارة ! أعيش فى بيتى وأسرتى وبين أولادى ، لأشحن نفسى بكمية من البنزين والطاقة .. تكفينى للسير فى الحياة لعدة ساعات تالية . ساعات لا أمثل فيها على نفسى ، ولكننى أمثل على الناس ، وعلى المجتمع .

– ما رأيك فى المجتمع .. أى مجتمع ؟

– منافق . المجتمع دائما منافق .

– هل تعيش بصراحتك مع نفسك .. أم تعيش بنفاق المجتمع ؟

– أنا ؟ .. أنا أعيش بنفسى أولا ، ولنفسى أولا . أعيش لنفسى ولأولادى .. هذه قضيتى . هذه قلعتى .

□□□

التليفزيون الملون فى غرفتى معطل اليوم . لعن الله التليفزيون والهيلتون . كل تليفزيون وكل هيلتون .

□□□

ذكريات الطفولة معظمها أكاذيب . إننا نتلطف معها . إننا نتخذ فيها ومنها وضعا خاصا . إننا نحتفظ على لساننا بكلمات جوفاء جاهزة عن طفولتنا . كلمات نرددها ونصدقها .. ويصدقها الآخرون معنا . كلمات وذكريات نخصم منها الجراح التى لايمكن شفاؤها . إننا ننسى أننا فى طفولتنا قاسينا وعانينا وتعذبنا . ننسى أن طفولتنا مليئة بالثقوب نسدها . وبضعف نحتقره . وبألم نتناساه .

أنتونى كوين لا ينسى .

يقول : تصور ؟ فى طفولتى ضاع منى حنان الأبوة عندما انفصل أبى وأمى عن بعضهما . فى صباى كنت أدرس نهارا وأعمل ليلا . كهربائيا مرة . سائق تاكسى مرة . أعمل ماسح أحذية مرة . نجارا مرة . ترزيا مرة . عامل أسمنت مرة . وملاكما مرات عديدة .

قلت : الآن أنت ممثل .

قال وكأنه لايسمعنى : ربما . ولكننى لم أتوقف عن الملاكمة . لم أتوقف عن ملاكمة الحياة .. ولم تتوقف الحياة عن ملاكمتى .

سكوت . الأوراق فى حجرتى ما زالت متناثرة كما هى منذ دخلها أنتونى كوين . زاد عليها الآن .. السكوت .

قلت بعد دهر من السكوت : ماذا كانت أحلامك المبكرة ؟

أنتونى كوين يتذكر : حلم واحد كبير عشت فيه وبه طويلا .. أن أكون كاتبا . لقد التحقت بمدرسة خاصة لهذا الغرض . بعد شهر كتبت أربعين صفحة عن يوم كامل فى حياتى . كان هذا بطلب من المدرس . إن كتابتى لم تعجب المدرس . ولكنها أعجبت أولادى . أنا أحب أولادى .

قلت : وما الفرق ؟ أقصد .. كيف ترى الفرق بين الكاتب والممثل ؟

رد أنتونى كوين ـ هذه المرة بوجه يحترق : أوووووه ... الفارق كبير . فى السينما مثلا ، على الممثل أن يكون هو الآلة التى يعزف عليها المؤلف .. والمرآة التى تظهر عليها جميع الألوان التى رسمها المؤلف بريشته .

قلت : نعم ، ولكنك الآن ممثل .. أليس كذلك ؟

رد قائلا : طبعا . وإذا لم أكن ممثلا .. فماذا أكون ؟

قلت : ماذا تكون ؟

رد : إنسان عادى له أحلام غير عادية .

– تونى .. تحب أطلب منك حاجة ؟

– طبعا .. طبعا ..

– أنت بالنسبة لى دائما زوربا اليونانى .. أريد رقصة زوربا ..

ـ تحبها ؟

– أموت فيها . أعبدها . إنها تعيد إلى الشوق والبساطة والرقة والحنان والطبيعة والأعشاب والأشجار وأوراق الأشجار . تعيد إلىَّ أيضا الألم والعذاب وصوت الكلاب . الكلاب حول زوربا .

❑❑❑

وحشتنى القاهرة .

❑❑❑

فى أحلامى : أنا أرقص . أرقص وأرقص وأرقص وأرقص ـ زوربا اليونانى ـ حاملا فى يده ساندويتش طعمية . أين الطعمية ؟ ضاعت . لقد ضاعت البساطة . بقى فى أذنى صوت الكلاب . لقد استيقظت من نومى باحثا عن الكلاب ـ أو عن البشر .

لا أحـد .

□□□

توقفت لأشترى سجائر من كشك للصحف فى شارع برودواى : بعد لحظة وجدت نفسى أحملـق فى إحدى المجلات مقلبا بعض صفحاتها . عن هوليود تقول المجلة : «المنتجون فى السينما بدأوا يبحثون عن وسائل جديدة لتمويل أفلامهم ، بعد أن بدأت البنوك ترفض تقديم خطابات ضمان لهم . أحد المنتجين حصل على نصف مليون دولار من أحد مشـايخ البترول فى الخليج العربى» !

اشتريت علبة كوكاكولا لأقرأ الموضوع ، ودفعت ربع دولار . الدولار بـ ٦٨ قرشا مصريا. إذن : الكوكاكولا بـ ١٧ قرشا . خراب جيب . تسقط الكوكاكولا . يحيا العرقسوس .

□□□

فكـرة تافهة : عطية يدعونى للعشـاء فى مطعمه الليلـة . عطية مليونير مصرى يملك مطعما مصريا كبيرا اسمه «كليوباترا» فى شارع برودواى . عطية يقول لى تليفونيا : تستطيع أن تدعو أى عدد من الناس معك . كلام اسكندرانية .. مش كلام دمايطة !

هل أدعو أنتونى كوين وفؤاد سعيد من الباطن ؟

□□□

امـرأة وقورة ، تدخل علينا الحجرة فى فندق هيلتون . السـكرتيرة . ذراعاها كفخذى البقـرة . صدرهـا فى حجم الكرنب . إنها تسـتطيع أن تلد جيشـا ، أو ربما قامت بذلك فعلا . مع هذا .. وجهها باسم ومريح . نعمة من الله .

أنتونى كوين يستدير إلـى : هل كنت تسألنى من قبل ؟

قلـت : لا .. لم أكن أسـألك . كنت أتذكر أدوارك التـى أحبها . أتذكر رجل القبيلة العربى فى فيلم «لورانس» . أتذكر الرجل الفرنسـى فى «الحصان الباهت» . أتذكر العمدة الحكيم الأبله فى «سر سانتا فيتوريا» . أتذكر الإنسان البسيط فى فيلم «الزيارة»...

رد تونى : أه .. فى هذا الفيلم قامت أنجريد بيرجمان بدور عظيم .. عظيم ..

قلت : نعم ، ولكن .. أنا يعجبنى الرجل الذى يقف بمفرده ضد الأغلبية . لقد كنت رائعا فى هذا الدور . دور الرجل الوحيد أمام أغلبية اشترتها امرأة ..

رد أنتونى كوين : نعم ، نعم .. لاشىء ولا أحد .. غير المرأة والسلطة .. يستطيع أن يشترى الناس . ضمائر الناس .

□□□

المساء . الزبائن كثيرون . الطلبات تتوالى . المطعم مزدحم . مطعم «كليوباترا».

أنتونى كوين يطلب العشاء . كباب .

الطرشى والكباب والموسيقى والغناء . إن الإسطوانة التى نسمعها الآن هى من غناء فرانك سيناترا . اسطوانة «غرباء فى الليل» .

أنتونى كوين يأكل وينسجم ويدندن . إنه يدندن على صوت ونغمات فرانك سيناترا .

عطية – ابن البلد صاحب المطعم – يسأله بالإنجليزية : عاجباك الأغنية ؟

أنتونى كوين يرد بسرعة : طبعا . طبعا . طبعا .

عطية يكلمنى أنا بالعربية : أه .. لو يعرفوا ! ألف رحمة عليه .. سيد درويش !

□□□

هارلم . شارع ١٢٥ . التصوير لم يبدأ بعد . من الدور العشرين فى العمارة التى يتم التصوير فيها أستطيع أن أرى حى «هارلم» – حى السود فى نيويورك – كله بوضوح كامل . كل شىء هنا اسود . الناس والمبانى والأنوار والأحلام .الحياة هنا كابوس طويل لا ينتهى . كابوس أسود .

رجل أسود قال لى منذ لحظات : «سيدى .. إذا أجلستنى أنت على مائدتك وبدأت أنت تأكل بينما أنا أراقبك بلا شىء فى طبقى .. هل أقول إننى تعشيت ؟ إن مجرد الجلوس على المائدة لا يعنى أننى تعشيت .. إلا إذا أكلت شيئا مما فى الطبق . إننى فى أمريكا . ولكن هذا لا يجعلنى أمريكيا . ولدت فى أمريكا ـ نعم ـ ولكننى لست أمريكيا . فى الباسبور أمريكى . فى الحياة .. أنا لست أمريكيا . لست بشرا . لست أى شىء . أنا مجرد رجل أسود» .

قلت : ألم يقل الزعيم الزنجي «مالكولم إكس» هذه الكلمات ؟

– نعــم . كلنــا هنا «مالكولم إكس» . بفقره .. ولكن بغير فصاحته . نحن ســود . نحن بشــر مزيفون . هكذا يعتبرنا المجتمع الأمريكى . نحن – بالكثير – بشر صغار . أنا رجل صغير .

قالها الرجل ، وانصرف . لقد بدأ التصوير . بدأ الفيلم .

❑❑❑

«.. ولكن ، لماذا تسألنى هذا السؤال بالذات ؟ هل فى تصرفاتى ما يوحى بأننى مريض نفسيا ؟»..

قلــت لأنتونــى كوين : أبدا أبدا . كل المســألة أننى قرأت أمــس كتابا فى علم النفس للدكتور «ســيدنى برنس» يتحــدث فيه عن خبرته فى معالجة نجوم الســينما فى هوليود نفسيا .

رد أنتونى كوين : آه .. أعتقد أن الحال الآن أحسن كثيرا . الناس الآن أصبحوا أفضل قليلا فى هوليود . أقل إدمانا للخمر والمخدرات . أكثر حرية . أقل شذوذا . المخرجون أيضا تطوروا . لم يعد هناك الصراع الذى اشتهرت به هوليود من قبل . لم تعد هناك فجوة الكاتب العظيم الراحل «سكوت فيتزجيرالد» . فجوة كنت تلمسها فى هوليود بين الفن والتجارة .

– أنت شخصيا .. فنان أم تاجر ؟ أراك فى هذا الفيلم تقوم بالدورين .. ممثل ، ومنتج منفذ ..

ابتســم أنتونى كوين ، وهو غالبا يبتســم ، ثم قال : أنا فنان أولا .. المال عندى فى الدرجة العاشرة .

– لماذا لا تعود إلى الإخراج ؟ ألم تعمل من قبل مساعدا للمخرج الكبير الراحل سيسيل دى ميل ؟

– نعم . ولكننى لا أستطيع الآن أن أكون مخرجا . مستحيل . مستحيل السيطرة على الممثلين . ليس لدى الصبر . لكن ـ افتراضا ـ لو عدت إلى الإخراج .. تعرف أول عمل أعمله إيه ؟ أضرب كل الممثلين بالرصاص ..



الرصـــاص . المشـــهد الذى يجـــرى تصويره الآن فـــى فيلم «شـــارع ١١٠» يبدأ بإطلاق الرصاص . ثم يأتى دور أنتونى كوين .

سألته : تونى .. لماذا تمثل ؟

• تحركت عيناه بسرعة وغيظ ودهشة وضحكة وإجابة : سوف أعطيك ثلاثين ثانية لكى تفكر فى سؤال أفضل ..

قلت : لن أفكر فى سؤال أفضل .. لماذا تمثل ؟

تـــردد قليـــلا وفكـــر كثيرا ثم : أعتقد أننـــى أردت فى البداية أن أهرب من نفســـى .. فمثلت .

- والآن ؟

- الآن .. أنا : نفسى . الدنيا كلها لاتساوى عندى حلما عاش معى منذ الطفولة . لقد حلمت دائما بمنزل . بأشـــجار . بأســـرة . وفوق كل شىء .. بأطفال . عندى الآن سبعة . أربعة من زوجتى الأولى وثلاثة من يولندا ... زوجتى الحالية . إن الدنيا كلها لا تســـاوى واحدا من أطفالى . ان طفلى هو أنا . هو نفسى . هو مرآة أرى فيها نفسى . ان الدنيا كلها لاتســـاوى صورة لابنى أضمها إلى صدرى وأنا أموت . إن البنت تعطينى شـــعورا بالفرحة . الولد يعطينى شعورا بالاستمرار و ...

بارى شير - مخرج الفيلم - يصيح : تونى .. احنا جاهزين للتصوير .

□□□

التصوير . الصمت . جاهزين . السيناريو . المشهد ١٠٦

ضابـــط البوليـــس كابتن «ماتيللـــى» - أنتونى كوين - يتحرك . إنه ببســـاطة يقف فى الظلام . لايلحظ شـــيئا وليس لأى شـــىء رد فعل على وجهه . ولكـــن التعبير على وجهه لايســـتمر حادا لمدة طويلة . إنه يبدو كالغريق . غريق وســـط حرب العصابات بين الســـود والبيض . إنه غير متأكد من أى شـــىء . نظراته تتحرك ببطء . بســـرعة . ثم : بســـرعة البرق . إنه يطارد . يتناول مسدسه ويطارد . يقذف بقبعته ويطارد .. ستوب .

سألته : كيف حالك الآن ؟

رد متهالكا : سعيد جدا جدا جدا . مرهق جدا جدا جدا .

□□□

الجو صحو بالنسبة لنيويورك ، وبالنسبة لشهر مايو . الدرجة ٦٧ فهرنهايت . نسيم .

سألت أنتونى كوين ونحن نتمشى فى ظلام حديقة " البارك " فى نيويورك : تونى .. لماذا تصر دائما على أن ترتدى الكرافتة والجاكيت ؟ الجاكيت .. نعم .. ولكن .. الكرافتة ؟!

أنتونى كوين يضحك .. ويضحك .

و .. قلت : يخيل لى أنك لا تخلع الكرافتة ، حتى وأنت تنام مع زوجتك فى السرير !

أنتونى كوين يضحك ويضحك ويضحك .

□□□

النوم . الأحلام . أحلام بأثر رجعى . أحلام تعيد إلى أجزاء نسيتها من بعض أفلام أنتونى كوين أفلام أخرجها له فيلليني : لورانس .. زوربا اليونانى .. أحدب نوتردام .. مدافع نافارون . إن الفيلم الذى صحوت عليه هو «سر سانتا فيتوريا» . المشهد الذى فتحت عينى عليه هو الذى صاح فيه فيلسوف القرية الإيطالية هائجا : «اسمعوا يا مدينة الأوغاد .. أنتم لا تعرفون معنى أن يموت موسولينى . إنه أعظم يوم فى تاريخ إيطاليا . فبعد عشرين عاما لن يكون هناك غش لأول مرة» .

ولكن القرية الصغيرة لا تبالى . أن يموت موسولينى ، أو لا يموت .. شىء لايهم كثيرا . إن المهم هو النبيذ الذى تعيش القرية على صناعته . هذا نبيذهم . هذه حياتهم . هذه مصلحتهم .

ثم .. تحرك الجميع أخيرا ، وتحرك معهم أنتونى كوين فى بلاهة نموذجية ، هاتفا ضد الديكتاتور الراحل . ساعتها قالت له زوجته الساخطة عليه دائما : أنت دائما هكذا .. يعيش موسولينى .. يسقط موسولينى .. نعم .. لا .. لقد كنت دابة لمدة ١٦ سنة . دابة طوال حياتك معى !

□□□

أشرقت الشمس في نيويورك مبكرا . أشرقت حولى . لم تشرق فى داخلى .

□□□

أعجبتنى تشبيهات أنتونى كوين اليوم . أعجبتنى كلماته .

كلماته هى : «الأسلوب الأمريكى فى صناعة السينما هو كالأسلوب الأمريكى فى حرب فيتنام : انفاق ضخم ، فى غير موضعه . أعمال مريحة ، وتسخير للتكنولوجيا ، ولكن مع الابتعاد عن الواقع الإنسـاني . ان كلا من لعبة الحرب ولعبة السـينما لها واقعها الخاص بها طبعا . كل منهما تدار ببنادق حقيقية وكاميرات حقيقية وناس حقيقيين . ناس يحبون فنهم فى السينما ، وناس يحيون بلدهم فى فيتنام . وهؤلاء يعملون بتصميم . هؤلاء يريدون استقلال بلدهم . هؤلاء يدافعون عن أرضهم . وأولئك يدافعون بصلابة أيضا .. يريدون إنقاذ صناعتهم من الانهيار . فى هذه الصناعة ، هذه السينما ، نحن الممثلين .. هم اللاعبون . ونحن أيضا : أوراق اللعب !».

كلمـات أنتونـى كوين تفتح شـهيتى لمقارعته أفكارا بأفكار .. عن السـينما ، وحرب فيتنـام . ربما فى جلسـات تاليـة أراجعه فى آرائـه . لكن فى هـذه اللحظة تحديدا : النوم سلطان .

□□□

اكتشاف : أحسن الممثلين هم الذين يتقمصون الصفات البارزة لشعوبهم . من الذى يفوق فى أمريكيته سبنسر تراسى وهنرى فوندا وسيدنى بواتييه ؟ من الذى يفوق فى إيطاليته آنا مانيانى ؟ من الذى يفوق فى مصريته محمود المليجى وحسـين رياض وعبد الوارث عسر ؟ من الذى يفوق فى صدقه وبساطته أنتونى كوين ؟ انه مكسيكى الولادة ، أمريكى الجنسية ، ولكنه فى الواقع بلا جنسية . إنه فنان صادق . هذا يكفى . يكفى . يكفى .

□□□

انتباه . النقود تتسـرب من جيبى بسـرعة العرق الذى يتصبب الآن من وجهى . الجو حـار جـدا جدا جدا . فى القاهرة ، وفى مثل هذا الوقت ، يكون الجو حارا أيضا . ولكن الكوكاكولا ليست بـ ١٧ قرشا !

□□□

– هالو ؟

– هالو .. مين ؟ يولندا ؟ حبيبتي يولندا .. فورا .. فى انتظارك .. فى انتظار صدرك لأرتمي عليه .

ثم : ارتمى أنتونى كوين على السرير .

– ماذا جرى ؟

– زوجتى .. لقد وصلت حالا إلى المطار .

– لماذا لم تحدثنى عن زوجتك من قبل ، وعن حياتك الشخصية عموما ؟

– لأننى أكره التحدث عن حياتى الشخصية . هذه زوجتى . هذه أسرتى . إنها ملجئى من الحياة والناس والمجتمع . إذا تناثرت حياتى ، إذا شرختها المشاكل ، امتدت الشظايا إلى عقلى وقلبى . إلى فنى . مع زوجتى ، مع نفسى ، أكون أمينا . أكون صريحا . أكون صادقا . هذا أفضل من أن أكون عاقلا . هل تدرك ما أعنيه ؟

– تماما .. تماما .

□□□

رأيت فؤاد سعيد اليوم . متوترا ثائرا أحمر العينين . معه الحق . حينما تزيد تكاليف تصوير المشاهد الخارجية للفيلم فى نيويورك سبعين ألف دولار ، فهو الوحيد ـ باعتباره منتجا ـ الذى تحمر عيناه .

□□□

حجرتى . حقيبتى . تحياتى .

أنتونى كوين يدخل . يتكلم : هل لى أن أعتبرك صديقى فى القاهرة ؟ هل لى أن أهديك هذه ؟ نعم .. أنت سمعتها عندى ومعى عشرين مرة طوال الأيام التى قضيناها معا ولاحظت اندماجك معها . ولكننى أريد من هذه الإسطوانة أن تذكرك بصداقتى كلما سمعتها فى القاهرة . الآن سأسمعها معك لآخر مرة قبل سفرك.

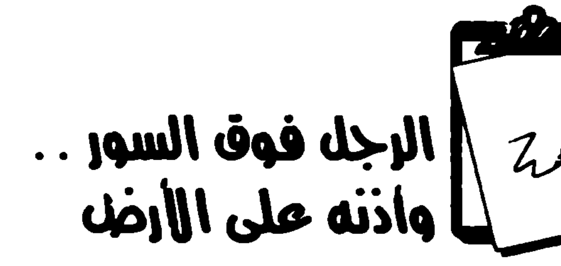
الإسطوانة . الأغنية .

«سوف أحلم يا صديقى حلما مستحيلا ..

سوف أحارب الخصم الذى لا يقهر
وأحتمل الحزن الذى لا يطاق
وأتقدم حيث لا يجرؤ الشجاع
وأصحح الخطأ الذى لايمكن تصحيحه
وأحب من بعيد ... بصفاء وعفة
وأحاول حينما تضعف ذراعاى
وألمس النجوم البعيدة فى السماء
.. هذه ، يا صديقى ، "قضيتى".

شخصيات وصور





الرجل فوق السور .. وأذنه على الأرض

الفيلسوف هو الرجل الذى يعرف : ماذا يريد الإنسان .

والمؤرخ هو الرجل الذى يعرف : ماذا فعل الإنسان .

أما السياسى .. فهو الذى يعرف : ماذا يفعل الإنسان .

فرجل السياسة ، اذن، مهمته أصعب من المؤرخ .. وأعقد من مهمة الفيلسوف .إنه يبدأ بالحاضر .. لكى يصل إلى المستقبل . وهو لايملك فى سبيل ذلك سوى أداة واحدة : الاستكشاف . فالاستكشاف هام فى السياسة ، مثلما هو فى الحب .. وهام فى الحرب .

من هنا يقول المؤرخون دائما إن السياسى رجل .. مهمته أن يجلس عاليا فوق السور .. بينما يحتفظ بأذنيه على الأرض .

والسياسة وجدت منذ وجد العالم الذى نعيش فيه . قبل ٢٣٠٠ سنة قال أرسطو : إن الإنسان – بطبيعته – حيوان سياسى .

ومنذ أرسطو حتى الآن اختلفت مفاهيم السياسة وتطبيقاتها .

فى البدء كان العالم ينقسم بين اثنين فقط : الله .. وقيصر .ولذلك كان يقال : ان السياسة هى فن منع الناس من التدخل .. فيما يعنيهم .

لكن العالم فى العصر الحديث أصبح ينقسم بين ثلاثة : الله .. وقيصر .. والناس . فالشعب – أى شعب – أصبح هو محور السياسة وطاقتها المحركة . ولذلك أصبحت للسياسة معان جديدة .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٧/٩/٩ .

أن لينين مثلا يقول : إن السياسة .. هي اقتصاد مركز . ونابليون يقول : السياسة تخلق الحوادث .. وليس العكس . وبسمارك يقول : السياسة .. هي فن التعامل في حدود الممكن . أما ميكيافيلي فيقول : لا أخلاق في السياسة . وبعد ٤٠٠ سنة جاء شخص آخر في الشرق الأوسط ـ هو ديفيد بن جوريون الزعيم الحزبي في اسرائيل – ليرفع نفس الشعار مرة أخرى : لا أخلاق في السياسة .

□□□

والواقع ان السياسة هي مزيج من كل هؤلاء : لينين ونابليون وبسمارك وميكيافيلي . أصبحت مهمة السياسي تأتي بعد المؤرخ ، وقبل الفيلسوف . ومن حاصل جمع السياسة والسياسيين خرج في السنوات الأخيرة شيء جديد اسمه : النظرية السياسية .

ما هي النظرية السياسية ؟

هذا هو السؤال الذى تخصص فيه انسان مصرى مؤخرا ، وظل يدرسه ١٧ سنة . إنه يقول : إن النظرية السياسية هي مختلف الوسائل التى تسمح بالتحكم في ، وضبط ، النشاط السياسي للأفراد والجماعات .

والكلام قد يبدو صعبا في البداية . ولذلك سأذهب معك الآن إلى هذا الإنسان المصرى لكي يفسر لنا أكثر : ما هي النظرية السياسية ؟

لكن دعني أولا أقدم لك هذا الر جل . إنه عبارة عن حاصل جمع الأرقام التالية : ٩٧ كيلو (وزنه).. متر و٨٠ سنتيمتر (طوله) .. أربعون سنة (عمره).. مائة جنيه (مرتبه).. ثلاثون ألف كيلومتر (رحلاته).. عشرة آلاف كتاب (مكتبته).. ألفان وأربعمائة صفحة (مؤلفاته).. أربع حجرات وصالة (مسكنه).. ثلاث وعشرون بوصة (جهاز تليفزيونه – ماركة نصر).

لكنني نسيت أهم حقيقة عنه .. فأولا : اسمه حامد ربيع ، ووظيفته الآن أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة .ونسيت أيضا أن أقول انه ليس شخصا واحدا . انه دكتور واحد – هذا صحيح – ولكنه مضروب في سبعة . فهو دكتور سبع مرات .. أو رجل حصل على سبع شهادات دكتوراه .. حسب ما يقول هو .

لقد حصل على شهادة الدكتوراه خمس مرات من جامعات ايطاليا في : تاريخ القانون .. فلسفة السياسة .. العلوم السياسية .. العلاقات الدولية .. الحضارات القديمة . ثم حصل على الدكتوراه مرتين من باريس في : القانون .. وعلم الاجتماع

السياســى . والخيط الرفيع الذى يربط بين شــهاداته العلمية السبع هو موضوع واحد : النظرية السياسية .

□□□

– ماذا تقصد يا دكتور حامد بالنظرية السياسية ؟

ويقول الدكتور (ســبع مرات) حامد ربيع : النظرية السياســية هى اصطلاح لم يتردد فى العالم إلا منذ عشرين عاما فقط . وفى تعريف النظرية السياسية نجد ثلاثة اتجاهات . الإتجاه الأول يقصد به الفلسفة السياسية . إنه اتجاه قديم ، ظهر أساسا فى القرن التاسع عشــر . أما المفهوم الثانى لتعبير النظرية السياســية فهو المفهوم الماركســى . هذا المفهوم يرى أن النظرية السياســية ليســت إلا علما تطبيقيا .. يدور حول استخلاص نتائج الخبرة الماركســية فى مختلف المجتمعات . أما المفهوم الثالث – الحديث والمســلم به – للنظرية السياســية فيقول إنها عبارة عن مختلف الوسائل والأدوات الفكرية والتجريبية التى تسمح بالتحكم فى النشاط السياسى .

وبهذا المعنى فإن كل منا يصدر يوميا – أو ينفذ – قرارا سياســيا . وبهذا المعنى أيضا فإن السياســة الحديثة تســتخدم فى تحليلاتها العقل الإلكترونى .. وتلجأ إلى الأساليب الرياضية والإحصائية .. ويعبر عالم السياسة عن مفاهيم السياسة بمعادلات رياضية كعالم الذرة تماما .

«وعندما تعطى لطفل صغير صورة فيل مثلا .. وهى ممزقة إلى أجزاء صغيرة .. دون أن يعــرف أن الصورة لحيوان معين .. ثم يظل الطفل يجمع أجزاء الصورة ويوفق بينها .. إلى أن يكتشف فى النهاية أنها صورة لحيوان معين هو الفيل ..

«إن هذه العملية هى – فى بســاطتها – تعبير عن نفس المهمة التى يقوم بها التحليل السياســى . فعالم النظرية السياســية ، عندما يحلل موقفا سياســيا معينا ، يظل يجمع العناصر المتناثرة .. ثم يلجأ إلى علمه وخياله معا .. لكى يخرج فى النهاية بصورة متماسكة تعبر قدر الإمكان عن الواقع الحى» .

وأسأل الدكتور حامد ربيع : ماهى شروط نجاح عالم النظرية السياسية ؟

ويرد معددا بيده اليمنى على أصابع يده اليسـرى : أولا يجب أن يكون صاحب نظرة واضحــة وصريحــة وحكم قاطع علــى الأحداث .. أى لابد من موقف سياســى واضح من

البداية . هذا لايعنى أن عالم النظرية السياسية يجب ألا تكون وظيفته مطلقا التصفيق والطبل والزمر على غرار جماعة المنتفعين الذين يزدان بهم كل نظام سياسى .. والذين وجدوا منذ أن وجدت السلطة وبريقها ..

«بعد ذلك هناك ضرورة توافر الإعداد المهنى للممارسة السياسية .. فالسياسة اليوم لم تعد هواية . والسياسة اليوم ، كأى مهنة أخرى ، لابد لها من دراسة طويلة إلى جانب المواهب الطبيعية . والسياسى كالجراح مثلا .. يجب أن يكون لديه استعداد معين وثقافة أكاديمية معينة . فكما أن حلاق الصحة مهما ارتفع بخبرته لايمكن أن يصبح جراحا .. فكذلك الممارسة السياسية ..

«والسياسة هنا إطارها واسع جدا . إن إقامة مدرسة مثلا فى هذه القرية دون تلك .. هو قرار سياسى . وإقامة مصنع لإنتاج هذه السلعة دون تلك .. هو قرار سياسى . والسياسة نفسها مستويات تتراوح بين السياسة الخارجية وبين اتخاذ القرارات السياسية وبين التنفيذ ثم المتابعة . ولكل مستوى شروطه ومواصفاته . فالابتكار والقدرة على التنبؤ الدقيق شرطان أساسيان فى خبير السياسة الخارجية .. بينما الأمانة فى النقل والاستقبال ثم الارسال شرط له الأولوية فى المنفذ السياسى».

وأسأل من جديد : ما هو الفرق بين السياسة .. والنظرية السياسية ؟

ويرد حامد ربيع : السياسة هى تدبير أمور الدولة . هى قيادة مجتمع ما . وبهذا المعنى فكل منا سياسى بشكل أو بآخر .الأب سياسى داخل أسرته . والناظر بمدرسته . والموظف بمكتبه . أما النظرية السياسية فهى اكتشاف القوانين التى تحكم التطور السياسى بواسطة البحث العلمى . إنها تفسير لظاهرة السلطة .

سؤال آخر : ماذا يلفت نظرك فى دراسة التاريخ السياسى المصرى المعاصر ؟

ويرد : هناك ظاهرتان فى تاريخنا السياسى . أولا : ان جميع الحضارات الأجنبية التى دخلت إلى مصر انتهت باندماجها فى الواقع المصرى .. أى حدثت لها عملية تمصير.. بينما لم تكن القاعدة كذلك فى مجتمعات أخرى كثيرة . قارن مثلا بين الحضارة الإنجليزية عندما دخلت مصر بعد الإحتلال فى سنة ١٨٨٢ .. وبينها عندما دخلت إلى الهند . فى الهند حدث تجاوب حضارى . فى مصر لم يحدث .

«هــذه واحدة . أما الظاهــرة الثانية فهى وجود تقاليد ثورية مســتمرة بغير انقطاع فى التاريــخ المصــرى . كانت هناك تقاليد ثورية يمثلها عمر مكــرم أيام محمد على . ويمثلها أحمد عرابى فى ١٨٨١ ثم ســعد زغلول فى سنوات ثورة ١٩١٩ .. وللأسف لم تدرس هذه التقاليد بطريقة علمية ..

«ومرة أخرى .. لو أتيحت هذه الدراســة العلمية للتاريخ السياســى المصرى ، لاكتشفنا أنه فى ســنة ١٨٨٢ عرفت مصر نظاما سياســيا أكثر تقدما مما كان موجودا فى كل أوربا بما فيها روســيا وايطاليا وألمانيا (وباســتثناء فرنســا وبريطانيا) . كان هذا النظام يسلم ، على الأقل ، بمبدأ مسئولية السلطة السياسية أمام ممثلى الشعب .. ولذلك أسقطه الإنجليز بمجرد احتلالهم لمصر».

❑❑❑

قلــت متحدثا عن الفترة التالية فى تاريخ مصر : هل تســتطيع أن تحدد لى شــخصية مصرية تمثل نموذجا للكفاءة السياسية من الوجهة العلمية ؟

قال حامد ربيع : طبعا . هذا النموذج واضح جدا فى سعد زغلول . لقد كان تعبيرا عن قوة وصلابة فى الشــعب المصرى يندر أن تجدها فى مجتمع آخر معاصر فى تلك الفترة . خــذ مثلا عندما جاءت لجنة ميلنر الإنجليزية إلى مصر لبحث أســباب الاضطرابات إبان ثــورة ١٩١٩ . ان اللجنة لم تســتطع أن تجد مصريا واحــدا يتفاوض معها . إن قيمة هذه الظاهــرة تتضــح حينما نتذكر أنه لم يكن فى مصر خــلال تلك الفترة أى رأى عام منظم ، أو وســائل منظمة للثقافة العامة ، كما لم تكن هناك أية حماية لسياســى مصرى ، وكانت وســائل التعذيب الوحشــى متبعة على نطاق واســع . ومع كل ذلك لم يقبل مصرى واحد التفاوض مع لجنة ميلنر . وحينما اخترت لك ســعد زغلول نموذجا للبراعة السياســية .. فإننى اخترته فى إطار العصر الذى عاش فيه والظروف التى أحاطت به .

وأسأل من جديد : ماهو النبوغ السياسى ؟

قال حامد ربيع : هو معرفة واقع مجتمع معين والتعبير عنه بأساليب هذا المجتمع .

قلت : ومن هو الرجل السياسى ؟

أجــاب : هــو الرجل الذى يؤمن بفكرة ويســعى لتحقيقها عن طريــق تغيير المجتمع الــذى يعيش فيه . فالرجل السياســى لايمكن أن يكون ســلبيا . ولايمكــن أن ينعزل عن

الحــوادث ، أو يعزلها عنه ، ويجعل هدفــه فى الحياة تطويع ظروف المجتمع للتجاوب مع هذا التغيير .

هنا وجدت نفســى أعود إلى التاريخ السياسى المصرى .. فسألت الدكتور حامد ربيع : كيف تحدد التطور السياسى الذى جرى فى مصر خلال تاريخها الحديث ؟

قال أستاذ العلوم السياسية : الواقع ان هناك ثلاث ثورات دخلتها مصر وتواجهها فى وقت واحد . فأولاً هناك الثورة الوطنية .. أى الثورة التى تستهدف تحقيق الإستقلال وعدم التبعية .. وقد بدأت منذ التدخل الأجنبى فى شـئون مصر أيام الخديو اسماعيل .. وكان الزعيم الأول لهذه الثورة هو أحمد عرابى .. وظلت حلقاتها تتابع إلى أن اسـتكملت مصر استقلالها السياسى بعد ثورة ١٩٥٢..

«أمــا الثورة الثانية فهى الثــورة الحضارية .. بمعنى الثورة لتطويــر قيمنا الاجتماعية ونظمنــا الثقافية حتى تصبح صالحة للقرن العشــرين . وهذه الثورة بدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى قبل وصول محمد على إلى الحكم . ورغم أنها تعثرت فى أكثر من مرحلة من مراحلها فإننا مانزال فى مدخلها ..

«أمــا الثــورة الثالثة فهى الثــورة الوحدوية أو الاندماجية . وهــى تعنى اندماج العالم العربــى فــى دولة عربية واحدة . وهذه الثورة لم تبدأ فــى التبلور إلا بعد الحرب العالمية الثانية ..

«إن كل من هذه الثورات الثلاث لها طبيعتها المســتقلة . وتاريخنا السياســى يواجهها جميعــا فــى وقت واحــد ، وهذا يزيد من صعوبتها . خذ مثلا غــرب أوربا . إنه يمر الآن بالثــورة الوحدويــة أو الاندماجية ، فقط ، لأنه انتهى مــن الثورتين الأولى والثانية . بينما دول افريقيا تواجه الثورة الأولى لتحقيق الاستقلال الوطنى سياسيا واقتصاديا ولم تدخل بعد أيــا من الثورتين الثانية والثالثة . خذ مثلا الهند أيضا . إنها تواجه الآن الثورة الحضارية فقط ، لأنها انتهت من الثورة الوطنية ، ولا تواجه الثورة الاندماجية».

سألته : ماهو مقياس الثورة الحضارية فى رأيك ؟

أجــاب : المقياس هو مدى احتفاظ الدولة بمجموعة من القيم التى يجب على الفرد أن يحترمها بدافع من وعيه الخاص . تســتطيع أن تســميها روح الجماعة . تستطيع أيضا أن

تسـميها احترام المصلحة العامة . فبهذا المفهوم لاتنحصر المصلحة العامة فى نصوص آمرة وقوانـين جامدة .. بل تصبح جزءا من التقاليد الاجتماعية والوعى الاجتماعى . وأحب أن أنبه إلى أن هذا المفهوم للدولة العصرية يختلف عن مفهوم آخر موجود فى الفكر السياسى . إن المفهـوم الثانـى يقصد إلى ضـرورة وجود دولة حديثة . دولة كـفء . دولة قوية . وأنا أتذكر أحد الزعماء الفرنسـيين حينما رد على روبسـبير ابان الثورة الفرنسـية قائلا له : اختر الشيوعية أو اختر الإشتراكية أو الفردية .. اختر كما تشاء .. ولكن لابد – وقبل كل شيء – أن تعطينى دولة قوية .

سؤال آخر : هل هذا المفهوم للعصرية له أساس سابق فى الفكر السياسى عندنا ؟

قال بعد أن خلع عن عينيه نظارته الطبية ووضع يده اليمنى على جبهته مسـتذكرا : نعم . لقد كان مفهوم الدولة العصرية موجودا فى الحضارة الإسـلامية .. أو على الأقل .. موجودا نظريا فى كتابات فقهاء الحضارة الإسلامية . خذ مثلا الفصل ١٥٢ من مقدمة ابن خلـدون . لقـد تصور فيه أنه يكتب خطابا إلى أحـد الحكام وعدد له مظاهر الدولة الكفء – أو العصرية أو القوية .. حسب التعبير الذى تفضله . قال ابن خلدون إن الحاكم يجب أولا أن يكـون ناجحـا فى حياتـه الخاصة .. ثم يجب ، وهذا ضـرورى ، أن يمتنع عن التدخل فى أعمال المتخصصين .. أو الفنيين أو الخبراء بالتعبير المعاصر ..

«بـل وأقـول لك أكثر مـن ذلك : إن ابن المقفع عبر أيضا عن نفس المفاهيم فى رسـالة مشهورة له قبل ابن خلدون واسمها رسالة الصحابة».

□□□

بالمناسبة : أود أن أنبه القارئ إلى شيء لافت للنظر . فالجامعة العبرية فى اسرائيل هى من أكثر جامعات العالم اهتماما بدراسـة مؤلفات ابن خلدون .. واهتماما بإجراء الأبحاث حولها . أليست تلك ظاهرة غريبة حقا ؟

وبالمناسبة ، مرة أخرى ، تذكرت اسرائيل فور الحديث عن الجامعة العبرية . فسألت الدكتور حامد ربيع : هل تعتقد أن اسرائيل تمثل ايديولوجية خاصة فى الشرق الأوسط ؟

ورد أسـتاذ العلوم السياسـية : طبعا .. لأن اسـرائيل دولة قامت أساسـا على فكرة التعصب العنصرى . وبالنسـبة لإسـرائيل هناك نقطتان أود الضغـط عليهما . فأولا – ان

اســرائيل من الداخل مكونة من مجتمع غير متجانس . والشــىء الوحيد الذى يجمع بين سكانها هو أنهم .. يهود . ولذلك نجد أن الحروب المتكررة التى تخوضها اسرائيل ليست فقط مســألة سياســية . بل تمثل الفرصة الوحيدة لتحقيق الاندماج والانصهار بين العناصر غير المتجانسة التى يتكون منها مجتمع اسرائيل .

«وثانيــا : ان اســرائيل تمثل امتدادا لأوربا فى الشــرق الأوســط . فهــى تقوم بدورها الاســتعمارى والعســكرى نيابة عن القوى الأوربية والغربية .. قديمها وجديدها وصولا إلى الولايات المتحدة» .

❑❑❑

وأمســكت بساعتى فاكتشفت إنه قد مضى ســاعتان وربع ساعة على هذا الحديث مع الدكتور حامد ربيع .

و ... لقد قلت فى أول هذا الحوار إنه رجل واحد مضروب فى ســبعة . وأســحب الآن تلك الجملة لكى أكتبها من جديد هكذا : انه عقل واحد .. مضروب فى سبعة . وسأكتب أيضا : إن قيمة أى أمة ، على المدى الطويل ، هى قيمة الأفراد الذين تتكون منهم .

ولكن .. هل هذه حقيقة جديدة ؟



رجل .. بأثر رجعى !

حجر . حجر آخر . يمر الإنسان ويرى الحجرين يقعان جنبا إلى جنب . ولكن : ماذا يعرف هذا الحجر عن الحجر الذى يجاوره ؟ أو .. ماذا تعرف مياه النيل عن البحر الذى تصب فيه ؟ أو .. هل تعرف النجوم فى السماء أن هناك أرضا تحتها ترصدها وتتابعها ؟ أو - للمرة الأخيرة - ماذا يعرف الجيل القديم عن الجيل الجديد ؟

إنهما جيلان . يعيشان فى عصر واحد . فوق أرض واحدة . غالبا داخل منزل واحد . ومع ذلك ، فكل جيل منهما غريب عن الآخر . غريب تماما . سماء مختلفة . قيم مختلفة . بطولات مختلفة . أحلام مختلفة .

نحن إذن غرباء . غرباء فوق نفس الأرض ، وداخل نفس المنزل .

غرباء .. لماذا ؟

لماذا هذا الشعور بالغربة بين الذين هم آباؤنا مؤقتا ، وبيننا نحن .. أبناؤهم مؤقتا ؟

لأن صفة الأبوة عند الجيل القديم ، وصفة الشباب عند الجيل الجديد .. لاتعطى لأحدهما ميزة على الآخر . الأبوة والشباب هى أصلا كالرجولة والأنوثة : إنها ليست اختلافات فى النوع - فليس أحدهما أفضل من الآخر - ولكنها اختلافات فى الوظيفة . ومشكلة الجيل الجديد - وأنا واحد منه - أنه جيل بلا وظيفة . وبدقة أكثر : نحن جيل يبحث عن وظيفة . عن اختصاص . عن دور . هذه هى المشكلة .

لماذا هذه المشكلة ؟ ولماذا الآن ؟ ثم .. لماذا مع هذا الرجل ؟ لماذا أثيرها مع الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن السكرتير العام المساعد لمنظمة الأمم المتحدة ؟ إنه مصرى مثلى

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٩/٨/٣ .

– هذا صحيح – ولكننا نقف فى موقعين مختلفين . إنه من الجيل القديم ، وأنا من الجيل الجديد . حكم السـن . إنه من الآباء .. وأنا ـ حتى الآن على الأقل ـ مازلت من الأبناء . حكم الصدفة . إن رأسماله هو ماضيه . وأنا رأسمالى هو مستقبلى . صفقة غير متساوية .

لماذا إذن هذا الرجل ، وكل شىء فينا يبدو ضد الآخر من البداية . كل شىء فينا غريب عن الآخر مقدما .

إن السـبب بسـيط بقدر ما هو محدد : إن هذا الرجل هو واحد من القليلين الذين حلوا المشـكلة . واحـد من الذين حولوا التناقض المبدئى بين الجيـل القديم والجيل الجديد إلى ميـزة لصالحه . واحد من الذين تخصصوا فـى إعطاء فرص للجيل الجديد ، لا من الذين تخصصوا فى سحب الفرص من الجيل الجديد . واحد من الذين استخدمهم الجيل الجديد جسـرا إلى المسـتقبل ، ولم يجدهم سـدا عاليا يحجز عنهم المستقبل . ثقة فى النفس . إن عشرات من الشباب البارزين فى بلدنا الآن هم أمثلة حية لما أقول : فى البحوث الذرية ، فى التخطيط ، فى الإدارة ، فى الصناعة .

ابراهيم حلمى عبد الرحمن هو إذن اسـتثناء على قاعدة عامة . أليس من الطبيعى إذن أن نحاول فهم الرجل ، بعد أن حاول هو فهمنا .. نحن الجيل الجديد ؟ إننى أجلس معه فى مكتبه بالدور الثامن عشر من مبنى الأمم المتحدة بمدينة نيويورك . مبنى ضخم أقيم فى سنة ١٩٥١ . إننى فى مقعد المستمع . بينما ابراهيم حلمى عبد الرحمن يتكلم :

«... إن الانفصال الحالى بين الأجيال له أسبابه المشتركة فى العالم كله ، بالإضافة إلى أسبابه المحلية فى كل مجتمع ..

«إن التطور التكنولوجى والعلمى الذى تم فى العشـرين سنة الأخيرة مثلا يبلغ أضعاف التطور المماثل الذى حققته البشرية طوال ألف سنة . كل يوم اختراع جديد . منتج جديد . وسيلة جديدة .

«قبـل عصـر محمد على فى مصر مثـلا .. ظل المجتمع يأكل ويعيـش ويلبس ويعمل بنفس الطريقة مئات السنين . بل حتى الأغانى والمواويل ظلت هى هى لم تتغير . أما الآن فابنتـى مثـلا تفضل أغانى مختلفة عـن ما أفضله أنا .. فما بالـك باختلاف تفكيرها عن تفكيرى أنا ؟

«هناك إذن عوامل كثيرة – علمية وتاريخية وثقافية – حولت التوازن المستمر بين الجيل القديم والجيل الجديد إلى خلخلة مستمرة . هناك أحماض كيماوية تقلب علاقة الجيلين يوما بعد يوم . هناك تفاعل مستمر إذن . وحينما لايتم هذا التفاعل فى جو صحى مفتوح تكون النتيجة دائما هى سوء فهم مستمر بين الجيل القديم والجيل الجديد . إنك تستطيع الآن أن تقسم الناس حسب أعمارهم بأكثر مما تستطيع أن تقسمهم حسب مركزهم الاقتصادى . مجرد اختلاف السن أصبح مؤشرا على اختلاف التفكير واختلاف أسلوب النظر إلى الأمور .

«ومع ذلك فإن سوء الفهم هذا من الممكن تفاديه مقدما لو أن المناخ العام فى المجتمع يعطى الفرصة أولا بأول لتبادل وجهات النظر بين الجيل الجديد والجيل القديم . إذا لم يحدث ذلك تكون النتيجة تراكما مستمرا للاستياء المتبادل بين الجيلين . مرض . إن أخطر سمات هذا المرض أنك لا تكتشفه إلا متأخرا جدا . إنك تنظر إلى مياه النهر فتتصور أنها هى هى لم تتغير منذ سنين ، مع أن تيارات المياه تندفع تحت السطح باستمرار . لقد كان هذا هو سبب اصطدام الشباب بالجيل القديم فى أمريكا وألمانيا وفرنسا وفى العالم كله ، وهى الظاهرة التى نتناقش فيها الآن .

«إنك تعطينى أكثر مما أستحق حينما ترى أننى أعطيت فرصا ضخمة لعدد كبير من الشباب . فى الواقع كانت هناك ظروف موضوعية تسمح بذلك . مثلا ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت كل المجتمعات ـ المنتصرة والمهزومة ـ تحس بحاجتها إلى إعادة النظر فى نفسها . إلى مراجعة قيمها وأسلوب تفكيرها . السبب : إن الحرب خلقت توازنات جديدة ومراكز جديدة وكشفت فى نفس الوقت عن أخطاء قديمة . النتيجة : الحاجة إلى دماء جديدة . إلى أفكار جديدة . هذا فى حد ذاته حافز قوى لإعطاء فرص للجيل الجديد وفتح المجال أمامه ليشارك ويفكر ويعمل و .....» .

□□□

التليفون يدق . الحديث ينقطع . السماعة ترتفع . على الطرف الآخر يتكلم أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة . يبدو أن الحديث لن يكون قصيرا . وبينما كان الدكتور ابراهيم يتحدث مع أوثانت كنت أنا أراجع نفسى فى بعض انطباعاتى عن الرجل .

إن الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن يبدو لأول وهلة كإحدى شخصيات قصص نجيب محفوظ : متهادن ، مستسلم ، مستمر ، ساخر . إنه يبدو هكذا مع أنه بعد لحظة

يبدو أقرب إلى الشـخصيات المنتشـرة فى مسـرحيات توفيق الحكيم : مفكر .. محاور .. منطقى .. مشـغول بالمستقبل .. وساخر . إنه إذن عنصر السخرية الذى يجعلك تخلط بين أصل شخصيته وطبيعتها .

لكننا لسنا فى حاجة إلى الاستعانة بشخصية تشبهه فى قصص أحد الكتاب . السبب: أن الرجل قد نحى شخصيته جانبا ، ثم قام هو بتأليفها وإخراجها وتصويرها – بل حتى بنقدها – على موضة الأيام التى ولد فيها (يناير سنة ١٩١٩) .

ان الكلمات تخرج من فمه بسهولة ولكن بهدوء . ابتسامته مفاجئة ولكن مشرقة . نظارة طبية تحتضن وجهه ولكن برفق . أذنه فى مكانهما تماما . شعره بدأ يتململ فوق رأسه بعد أن ظل ثابتا فى مكانه خمسـين سـنة . مدة كافية . والرجل نفسه تبدو عليه المتعة عندما يناقش ، ولكن الأسـئلة التى تتناول حياته الشـخصية مثلا لا تأخذ منه فى الإجابة سوى مجرد «نعم» أو «لا» أو «لم أكن» . مع ذلك ، فإننى سـأحذف هذه الكلمات عندما أتناقش معه . وها نحن نعود إلى المناقشة .

أقـول : تعرف .. أحيانا أحس أن علاقة الجيـل القديم بالجيل الجديد تماثل علاقة الاسـتعمار الجديد بالدول النامية . إن الجيل القيم يظل يتحكم فى حياتنا وتفكيرنا أطول وقـت ممكن . ثم يكتشـف الجيل القديـم أن جلاءه عن حياتنا أمـر حتمى . حينئذ فقط يعطينا الاسـتقلال . اسـتقلال وهمى . اسـتقلال لم يتم إلا بعد أن اكتشـف الجيل القديم وسائل جديدة للتحكم فى حياتنا وتفكيرنا . هذه هى الظاهرة التى لمستها فى أمريكا وألمانيا وفرنسا أيضا .

– ولكن هذه النتيجة يمكن تفاديها ..

– حسنا .. اخبرنى كيف تفاديتها أنت ؟

– لم أكن أخشى من أحد على أى مركز شغلته .

– لماذا ؟

– لسبب بسيط . لقد حرصت دائما على ألا أكون عبدا للوظيفة . للسلطة . إن الوظيفة هى مجرد وسيلة للعمل . ومن ناحيتى فإننى لم أكن أشغل وظيفة إلا إذا كنت قادرا مقدما على الاسـتغناء عنها فى أى لحظة . كنت أحـرص دائما على حقى فى تطليق الوظيفة .

هـذه واحـدة . نقطـة أخرى : إننى كنت ومـا أزال حريصا فى حياتـى العادية على أن أعيش عند الحد الأدنى المقبول . الحد الأدنى من الالتزامات المادية أو الأدبية . ربما كان بعض السـبب فى ذلك أزمة مالية مرت بى فى مطلع حياتى . أزمة خرجت منها بنتيجة أساسـية : يجـب أن أكـون قادرا على نفسـى أولا .. قبل أن أكون قـادرا على غيرى . النقطـة الثالثـة هى أننى كنت حريصا على ألا أكون الرجـل الأوحد فى أى مجال أعمل به . لابد من صف ثان . إن اختفاء الصف الثانى فى أى وقت هو خرافة . الصف الثانى موجـود دائما . ووجود الصف الثانى شـرط جوهرى لنجاح الصـف الأول . حتى الأنبياء كان لهم حواريون . الفارق الوحيد هو إحساسك بأنك تمارس رسالة أو بأنك تعيش بمجرد الأقدمية . إذا أحسست بأنك تمارس رسالة فأنك ستكون حريصا على استمرارها من خلال صف ثان يخلفك .

قلـت: ألا يتغير شـعورك هـذا عندما يحقق أحـد تلاميذك نجاحا أكـبر مما حققته أنت ؟

أجاب الرجل : مطلقا . المسـألة مسـألة رسـالة كما قلت لك . عندما أحب الموسيقى مثـلا .. فإننـى أتمنى أن يحبها معى كل الناس . عندمـا أكون تاجرا صغيرا مثلا ويصبح ابنى أستاذا فى الجامعة .. فإننى لن أشعر بمنافسة منه .. بل إننى سأكون مسرورا وفخورا به لأن النجاح امتداد لكل من ساهم فيه .

□□□

توقفـت عنـد الجملة الأخيرة . إنها فى مكانها جدا . فى الواقع هى تنطبق تماما على الدكتور ابراهيم نفسه . لقد قلت قبل ذلك إن عددا كبيرا من الشباب البارزين فى بلدنا الآن أخذوا فرصتهم الأولى منه . هنا بالضبط نكتشف أن ابراهيم حلمى عبد الرحمن هو رجل .. بأثر رجعى . إنه رجل اليوم .. بما حققه لنفسـه : أكبر منصب يتولاه مصرى فى منظمة دولية . وهو رجل بما حققه لغيره : إناس ساعدهم على شق الطريق فأصبح من بينهم علماء ووزراء . وهو رجل منذ التاريخ الذى اكتشفهم فيه عند نقطة مبكرة تماما من حياتهم .

ولعل الشـىء الذى سـاعده على ذلك هو البيئة التى تربى فيها والمجالات التى عمل بهـا . لقـد ولد فى قرية «كفر الولجا» بمنيا القمح (محافظة الشـرقية) : بيئة قروية تماما بعيدا عن نفاق القاهرة . ولقد عاش الطفل واحدا ضمن اثنا عشر أخا وأختا : عائلة عادية

بمقاييس تلك الأيام . ثم حصل الشاب على بكالوريوس الفلك من كلية علوم جامعة القاهرة (١٩٣٨) بتقدير الامتياز : مؤشــر مبكر لإجتهاده . بعدها حصل الرجل على الدكتوراه فى الفلــك من جامعة «أدنــبره» ببريطانيا . احتكاك مبكر بحضــارة مختلفة . إلى هنا وحياته تسير بأنغام بطيئة تتجه نحو السرعة : مدرس بكلية العلوم جامعة القاهرة . أستاذ مساعد . انتداب فى مجلس الوزراء بعد قيام الثورة . ســكرتير لمجلس الوزراء (١٩٥٤). ســكرتير للهيئــة العليــا للتخطيط (١٩٥٤) حينما دخلت كلمة التخطيــط الاقتصادى لأول مرة فى القاموس السياســى المصرى الجديد . ســكرتير عام لمؤسسة الطاقة الذرية منذ أنشأها جمال عبد الناصر (١٩٥٥) تنبها لمجال علمى جديد يجب أن تلحق به مصر . ســكرتير للجنة التخطيط القومى (١٩٥٥) . سكرتير للمجلس الأعلى للعلوم(١٩٥٦) . وكيل لوزارة التخطيط .. مدير لمعهد التخطيط و ... لا ... إن القائمة طويلة طويلة . يكفى أنه منذ ســنة ١٩٦٣ اختارته هيئة الأمم المتحدة ليكون ســكرتيرا عاما مســاعدا لها لشــئون التنمية الصناعية . وفى يناير ١٩٦٧ أنشئت منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية فأصبح مديرا لها . إن مقر المنظمة الآن هو مدينة فيينا عاصمة النمســا . ولكن الدكتور ابراهيم يســافر إلى نيويورك من وقت لآخر ليناقش تقارير نشاط المنظمة مع أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة . وأنا ألتقى به الآن فى إحدى هذه المرات . الســاعة السابعة مساء . كل موظفى الأمم المتحدة انصرفوا بعــد انتهاء مواعيد عملهم . لايعمل فى المبنى الآن ســوى مجلس الأمن . والمكتب الوحيد المفتوح هو مكتب الدكتور ابراهيم .

داخل المكتب نستأنف الحديث : أنت عملت فى مجالات كثيرة .. من الفلك إلى الذرة إلى الصناعة إلى التخطيط إلى الإدارة .. ماذا يربط هذا كله ؟

– المنطق العلمى .

– ما هو المنطق العلمى ؟

– إنه مقدمات تؤدى إلى نتائج . الارتباط بين النتائج يتطلب التجربة . تعدد التجارب يعطيك نظرية . النظرية تحتاج دائما إلى تأكد .

– ما هو التفكير العلمى ؟

– إنه التفكير الذى لا يصل إلى نتيجة إلا بعد التجربة والتحقيق .

– هل يوجد مجتمع علمى ومجتمع غير علمى ؟

– ليس بالضبط .

– إذن سأغير السؤال : هل يوجد مجتمع مشجع للعلم ومجتمع غير مشجع له ؟

– طبعا . المجتمع المشـجع للعلم هو الذى يعطى للبحث العلمى قيمة كبرى ويحصل فيه العلماء على أضخم احترام اجتماعى . مثل هذا المجتمع يخلق العلم وينميه ويسـتفيد منه . وعلى العكس من ذلك مجتمع يتحدث عن العلم ولا يمارسه . يعلن احترامه للخبراء ولكن يبتعد عنهم . هذا مجتمع غير مشجع للعلم .

– تقصد مجتمع محصن ضد العلم ؟

– إنه محصن ضد المستقبل ، وليس ضد العلم فقط .

– ما زلت أسأل : ماذا يربط أيضا بين مجالات عملك السابقة غير المنطق العلمى ؟

– التخطيــط يربــط بينها . العلم يعتمد على تخطيــط . الاقتصاد يعتمد على تخطيط . الإدارة تعتمد على تخطيط .

– كم عدد أولادك ؟

– بنت واحدة .

– صدفة .. أو تخطيط ؟

– صدفة .. على ما أعتقد .

❑❑❑

إنه يعتقد ذلك . ربما . ولكن الرجل لم يترك أشـياء كثيرة فى حياته للصدفة . لقد قال منــذ دقائق إنه يفضل أن يعيش حياته عند الحد الأدنى . قليل من كل شــىء .. ولكنه مايزال مقبولا . هذا صحيح . إنه يقول كلمة « لا » لنفســه كثيرا قبل أن يقولها لغيره . لقد عاش حياته بالقاهرة فى شقة متواضعة بإيجار شهرى تسعة جنيهات . كان يستطيع دائما أن يغيرها بشقة أفخم فى حى الزمالك أو مصر الجديدة مثلا . لكن : لا . مازالت الشــقة هى نفسها فى حى المنيل . لايدخن . منتظم الصيام والصلاة . يقرأ كثيرا ويكتب أقل . السبب صحى . لا سينما . لا تليفزيون . لاوقت .. حتى فى فيينا أو نيويورك .

وأسأله : هل أنت سعيد ؟

– ربما ..

– لماذا «ربما» ؟

– لأن السعادة ومضات . ولكن هناك شيء آخر هو الرضا .. أو الارتياح . إنه يختلف عن السعادة . الرضا معناه أنك تقبل الحياة على ما هى عليه .

قلت : هذا استسلام وليس رضا ..

أجاب : ليس دائما . فأحيانا يكون السخط على الحياة مرضيا لك .

❑❑❑

ونعود خلفا . ولا أدرى لماذا أحرص على مناقشة الفجوة بين الجيل القديم والجيل الجديد مع الدكتور ابراهيم حلمي عبد الرحمن بالذات . الرجل يعيش الآن فى مجتمع مختلف . وبرغم ماضيه العريض فإن اسمه لايعيش معنا دائما . شيء طبيعى بقدر ما هو متناقض . طبيعى لأننا نجد – بحكم الخبرة – أن البرميل الفارغ صوته أعلى من البرميل المليء .

والدكتور ابراهيم رجل مليء ، جسما وعقلا . ولذلك أسأله : أرجو أن تعتبر نفسك مؤقتا من الجيل القديم . كيف إذن ترى حدود المشكلة بيننا وبينكم ؟

– الحدود واضحة . انكم – كجيل جديد – قد أعلنتم تمردكم علينا واستياءكم منا ، ومعكم فى ذلك الحق والقدرة . لقد حققنا لكم الشيء الكثير . ومع ذلك فأنتم تقابلونه بجحود كامل . حتى فى هذا ربما يكون معكم الحق أيضا ، لأننا صنعنا كل شيء بغيركم . لأننا حرصنا على أن نقوم ببطولة المسرحية ، واخترنا لكم مقاعد المتفرجين .

قلت : آسف لمقاطعتك ولكنك الآن تعزف على وتر مؤلم . المشكلة فعلا هى أن الجيل القديم يحدثنا دائما عن كم كان أمسه قاسيا ويومه مناضلا وغده مشرقا . بيد أن يومهم ذلك قد أصبح أمسنا نحن ، وغدهم أصبح يومنا . لقد اختاروا معاركهم.. وحاربوها . وعلينا نحن أن نختار معاركنا وأن نحارب يومنا . هذا هو حتى ما أحسسته جاريا فى أمريكا وفرنسا وألمانيا ومجتمعات أخرى غيرنا .

وعاد الرجل إلى الحديث : مع ذلك فإننى أرى أن الجيل القديم هو الذى يجب أن يساعد الجيل الجديد على الوصول إلى قرار . المشكلة هى أن الجيل الجديد بدأ يعشق التمرد على القيم السائدة بغير أن يحدد بالضبط ما هى القيم البديلة . لايهم ..

– إذن .. لمن المستقبل ؟

– المستقبل واضح . المستقبل دائما هو لكل جيل جديد . إن التمرد على القيم السائدة قد يبدو لفترة مؤقتة كما لو كان مجرد هدم للأمر الواقع أو حتى مجرد اندفاع لإثبات الوجود . لكن كل القيم الجديدة بدت هكذا فى البداية .

– .. وإلى أن توجد القيم الجديدة .. ما هو الحل ؟

– لا أرى حــلا . أرى فقــط فترة حتمية من الضياع قد تطول أو تقصر . الضياع هنا هو غير الإنحلال .. فما أسهل الإتهام . انه ضياع مؤقت حتى تتضح القيم الجديدة البديلة . أرجو أن تكون قيما أفضل .

– إذن .. ما هى الخلاصة ؟

– الخلاصة هى اننى متفائل ولست متشائما .. مع العلم بأن استمرار الخلخلة يمكن أن يؤدى إلى عواقب خطيرة . إن الإطار الذى تتم فيه الخلخلة أكبر كثيرا مما كان مألوفا . كل شــىء الآن محل مناقشة ومراجعة وتساؤل .كل شىء يعاد النظر فيه .. ابتداء من السياسة الى الاقتصاد إلى العلوم الاجتماعية إلى العادات والتقاليد ..

❑❑❑

قلت للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن : تكلمنا حتى الآن عن كل شىء تقريبا ما عدا مسألة أساسية .. عملك فى الأمم المتحدة ودور منظمة التنمية الصناعية التى ترأسـها ..

رد الرجل : أنت الذى تختار موضوعات المناقشة ولست أنا ..

قلت : حسنا . بالنسبة لمنظمة التنمية الصناعية فأنا أعلم أن مقرها الرئيسى فى مدينة فيينا عاصمة النمسا ، وأنها أقيمت منذ أول يناير ١٩٦٧ كمنظمة تابعة لهيئة الأمم المتحدة هدفهــا تنمية التعاون الصناعى والاقتصادى بين الــدول الأعضاء خصوصا الدول النامية ، وأنها تنفق ســنويا عشــرة ملايين دولار كمعونات فنية بالإضافة إلى عشــرة ملايين أخرى تمثل ميزانيتها . وأعلم كذلك أن دولا نامية عديدة قد لمســت بالفعل أهمية المعونات التى تتلقاهــا مــن المنظمة خصوصا فى مجال الخبرة الفنية (٤٠٠/٥٠٠ خبير) . فهل يكفى هذا بالنسبة للمنظمة ؟

– يكفــى .. إلا قليــلا . وما أود إضافته بســيط ولكن جوهــرى . فمنظمة الأمم المتحدة نشأت أساسا باتفاق بين الدول الخارجة من الحرب العالمية الثانية منتصرة وأعطت نفسها

بتلك الصفة امتياز المقاعد الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولى . مصر كانت نظريا من بين المدعوين من الولايات المتحدة فى المؤتمر التأسيسى فى سنة ١٩٤٥ للتصديق على ميثاق الأمم المتحدة . لكن عمليا استمرت الأمم المتحدة ناديا خاصا للقوى الكبرى . الجديد فى الموضوع هو أن مصر فى طبعتها الجديدة ورؤيتها المستجدة لدورها خصوصا بعد ١٩٥٦ ثم دورها الملموس فى المشاركة بقيادة كتلة عدم الانحياز – التى هى فى جوهرها الدول النامية – فرضت على الخمسة الكبار بالمنظمة قبول توسيع عضوية مجلس الأمن الدولى ليصبح الأعضاء غير الدائمين عشرة بدلا من ستة . وشىء آخر : قامت الأمم المتحدة أساسا للتعامل مع الواقع الدولى سياسيا . الجديد هو رؤية العالم اقتصاديا وبالتالى مسايرة الأمم المتحدة لهذا المنظور الجديد . الشىء الثالث هو أننى موجود هنا فى مقعدى هذا ومكتبى هذا لأن مصر هى التى رشحتنى لهذا المنصب . ربما يرى البعض أننى هنا لأننى أستحق . ممكن . لكننى لم أكن لأوجد هنا أصلا لولا أن مصر أصبحت دوليا تستحق .

– إذن أسألك : بعد سنواتك الأخيرة من العمل فى المجالات الدولية .. ما هو تقييمك لجدوى العمل الدولى المشترك ، خصوصا فى إطار الأمم المتحدة ؟

دقائق من التفكير ثم أجاب الرجل : بالنسبة للأمم المتحدة فإنها كمنظمة تمثل ظاهرة حديثة نسبيا فى العلاقات الدولية . دورها السياسى معروف . دورها الاقتصادى محدود . دورها فى تشجيع الصناعة مستجد وبإلحاح – حتى لا أقول بضغط – من الدول النامية وبالمقدمة مصر . المهم هنا نقطتان . أولا : أن هذا الدور يبشر بالأمل برغم كل الصعوبات القائمة حاليا فى العلاقات الدولية . وثانيا : هذا الدور تتزايد أهميته يوما بعد يوم . لكن ما تزال هناك نقطة أخرى هامة : أن الأمم المتحدة ليست حكومة عالمية ، بمعنى أنها لا تملك سلطة اتخاذ القرارات بمفردها ، أو سلطة تنفيذ القرارات التى تتخذها . ففى مجال الصناعة مثلا ليس أمامنا كأمم متحدة سوى تقديم الخبرة الفنية للدول النامية . أما عبء التنفيذ ، وعبء النجاح .. فيظلان من مسئولية الدول النامية نفسها .

□□□

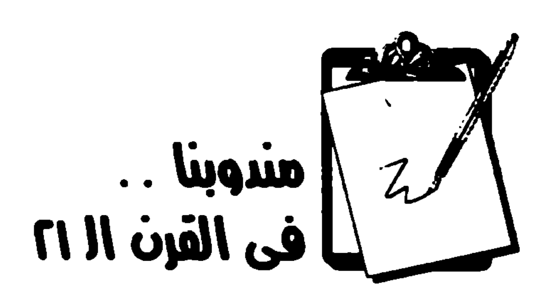
.. فعلا .

من المهم تماما أن نعرف الظروف الحقيقية لمنظمة الأمم المتحدة . إن طاغور – الشاعر الهندى البارز الراحل – كانت له أبيات شعرية تقول : يا قلبى اسمع ... صوت الرعد

في السحاب ... يا قلبي كن شجاعا ، واقتحم ... واذهب إلى المجهول ..

أن داج همرشـــولد السكرتير العام الراحل للأمم المتحدة سمع تلك الأبيات ذات مرة في سـنة ١٩٥٥ . يومها قال همرشـــولد : «إنني أعتقد أن هذه الأبيات تصلح لأن تكون شعارا لهذه المغامرة التي تسـمى .. الأمم المتحدة . إننا قد نسـمع أحيانا صوت السـحاب منذرا بالـبرق والرعـد ، ولكن يجب ألا نفتقد أبدا الشـجاعة التي تجعلنـا نقتحم ..ونرحل إلى المجهول» .

لقد رحل همرشولد . ولم تتم اللوحة . لكن أبيات طاغور ماتزال صادقة على الاثنين : الأمم المتحدة .. والجيل الجديد . كلاهما يخوض آفاقا جديدة لم يسبقهما إليه أحد .



... ...

السـطور - البيضاء - السـابقة .. هى كل ما خرجت به من جلساتى الأربع الأولى مع هذا الرجل . أما المقابلة الخامسة .. فكانت شيئا آخر .

يقـول الرجـل : «العلم فى مجتمعنـا أصيب بالصدأ. هذا الصدأ له سـبب : إننا فقدنا اتصالنا بالتيار العلمى فى العالم . كأن العالم يسير أماما .. ونحن محلك سر . هناك سبب آخر : نحن لا نحترم تقاليد العلم . والعلم - يا أخى - كالتصوف . كالصلاة . هل تستطيع أن تصلى قبل أن تخلع حذاءك ؟ حسنا . نفس المسألة فى العلم» .

ويقول الرجل أيضا : «إذا اسـتمر التعليم بأسـلوبه الحالى فى الجامعات . فلا أتوقع علماء يظهرون فى الجيل الجديد. إن العلم هو أحد فروع المعرفة التى لابد فيها من الوراثة . لابد من مدارس علمية . إنها المفتاح إلى النهضة العلمية الصحيحة . والتقدم العلمى كالتجديف ضد التيار .. مالم تتقدم .. تتأخر.وعندما تختفى المدارس العلمية والتقاليد العلمية .. ينتحر العلم .

«لا أعتقد أن المشكلة الأساسية فى التخلف العلمى عندنا هى نقص الأموال . إنها طبعا مشكلة . ولكن الأهم منها اختفاء الأسلوب العلمى . اختفاء التقاليد العلمية .هل ترى مكتبى الضخم هذا؟ وهذه هى عقدة العلم عندنا . إنه يبحث عن الواجهة . عن الديكور.. قبل أن يبحث عن المضمون ..

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٨/٢/١٧

«لاتقل عنى إننى عالم كبير . لا يا أخى . فكلما ازداد الإنسان علما اكتشف جهله.الله وحده هو العالم. والعلم الذى نمارســه مثل مياه البحر المالحة.. كلما شــربت منها أكثر .. شعرت بالعطش أكثر ..

«أنا يا أخى تربيت تربية عادية جدا. فقيرة جدا.توفى والدى وعمرى تســع سنوات . ربانى أخى الأكبر الدكتور حسن . كان الأول على كلية الطب.تخرج فى الكلية وعمل طبيبا بالأرياف لينفق علينا. ربانى أخى صغيرا .وقد أصبح عمرى الآن خمســين ســنة . ولكننى ما زلت حتى الآن أقبل يده كلما قابلته.. وأنا لا أتميز بشــىء يا أخى عن باقى خلق الله. أنا أقول فقط مع رسول الله : أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

❑❑❑

ولكن .. مهلا .. مهلا ..

لقــد تحدثنــا إلى الرجل قبل أن نتعرف عليه .آســف . إن معظمنا قد لايعرف الرجل. هذه غلطتنا نحن وليست غلطته هو . فكل الدوائر العلمية فى العالم تعرفه . يعرفونه عالما ومحاضرا وأستاذا .

الرجل هو الدكتور أحمد مصطفى .عمره تسع وأربعون سنة ونصف سنة . وهو الآن مدير المركز القومى للبحوث بالقاهرة . كان ســابقا (حتى ثلاثة أشــهر فقط) رئيسا لقسم الكيمياء العضوية بكلية العلوم فى جامعة القاهرة.

والرجل له مؤلفات كثيرة .من بينها مثلا ثلاثة كتب علمية يجرى الآن تدريســها فى جامعــات الولايات المتحدة واليابان وبريطانيا وألمانيا الغربية وفرنســا وتشيكوســلوفاكيا. والرجــل فى جيبــه الآن دعوات لإلقاء محاضــرات علمية فى جامعــات البرازيل والهند واليابان .وهو عندما يسافر إلى الولايات المتحدة مثلا (كما حدث فعلا فى شهر مايو الماضى) يطلبــون منه إلقاء محاضرات علمية على كبار أســاتذة الجامعات ومراكز البحوث هناك . والأجر الذى يصرفونه له هو ٢٥٠٠ دولار فى الشهر .

وعلى فكرة :هذا المبلغ يعادل مرتب شــهر واحد لثلاثة وســتين موظفا بالحكومة على الدرجة الســابعة . أو يســاوى مرتب تسعة شهور لرئيس مجلس الإدارة فى معظم شركات القطاع العام .

الرجــل إذن عالم مشــهور تعرف قــدره كل جامعات العالم . ونحــن الآن فى طريقنا للتعرف عليه .

□□□

رجل مرح وجاد.شعره أسود سنجابى .. ولكنه بدأ فى السنوات الأخيرة ينسحب من مقدمة رأســه متراجعا إلى الخلف .صوته العالى نسبيا يجذب الانتباه، إنه صوت معبر بما يكفى لكى تنصت له.جســمه متين.طويل.وجهه ملىء بالزوايا الحادة القاطعة دليل على التصميم . عيناه حادتان كعينى صقر موضوعتين خلف نظارة طبية .الكلمات تخرج من فمه سريعة متلاحقة ، تخلق لديك إحساسا بأن صاحبها يجيد الحديث. ولكن تعبيرات وجهه الحية تسير فى اتجاه عكســى . فهى تخلق لديك إحساســا بأنه يجيد الصمت. والواقع أن الرجل هو الاثنان معا. فهو كمعظم الصامتين .. تخرج الكلمات من فمه كأنما ســبق تخزينها فى حصالة. وهو كمعظم المتحدثين المتعين : تدخل الكلمات إلى أذنيه فتظل بداخلها كأنما دخلت بئرا من الصمغ .

والحديث معه عن العلم . والعلم له تعريفات كثيرة .أفلاطون مثلا كان يقول : العلم هو الإدراك الخارجي. ويقول سبنســر: العلم هو المعرفة المنظمة.ويقول برتراند راســل: عناصر العلم ثلاثة.. تفكير استطلاعى .. واستنتاج مبدئى.. ثم تجريب عملى .

أمــا الدكتور أحمد مصطفى فيقول: «فى العلم – كما فى الحياة – الغنى يزداد غنى .. والفقير يزداد فقرا.هذه مشــكلة . فالذين بدأوا الســباق متأخرين يواجهون كل يوم مشاكل اللحاق بمن بدأ السباق مبكرا . والوصف الأول ينطبق على الدول النامية جميعا» .

قلت : تتكلم عن الدول النامية . ما أسباب تخلفها العلمى فى رأيك ؟

والرجــل يجيــب : أولا .. الأولويات.فالــدول النامية تحارب التخلــف العلمى على جبهــات طويلــة متعددة تتزايد كل يوم .إنها تريد كل شــىء .. وفورا . وفى حربها على التخلــف العلمــى أمامها موارد محدودة ووقت ضيق . هذا يســتدعى الإتفــاق مقدما على أولويــات للجبهات التــى يتركز فيها البحــث العلمى. لأن توزيع البحــث العلمى على جبهات كثيرة يشتت الموارد ويضعف النتائج المنتظرة. -

«وهنا ينبغى أن نفرق بين نوعين من المشــاكل . مشــاكل رئيســية .. وهى التى تتطلب جهــودا مركزة على المســتوى القومــى للدولة. ثم مشــاكل الحياة اليوميــة . التى تتمثل

فيما قابله كل مصنع مثلا من مشاكل . المشاكل الأخيرة تحتاج أيضا إلى بحث علمى، وإلى حوافز تدفع المسئولين عن المصانع لتنمية البحث العلمى .

«أما المشاكل الرئيسية فيجب أن تكون قليلة العدد ويتم اختيارها على أساس تقدير الأولويات . وما يزال تقدير أولويات المشاكل الرئيسية محل نقاش حتى الآن فى بلد نام كبلدنا نحن مثلا . فنحن نختلف حول من أين نبدأ.. بالرغم من أننا بلد نام .

«نقطة أخرى : أن الهواة هم أول من يجنون على البحث العلمى . إن ترك البحث العلمى فى يد الهواة هو عملية قتل له يرتكبها المجتمع .. وانتحار يرتكبه العلم . وليس فى العالم عصا سحرية تجعل من رجل غير رجال العلم الحديث .. رجلا من رجاله أو متخصصا فيه . هذا يقودنا إلى نقطة أخرى . أنا أفضل أن نؤجل كلمة البحث العلمى ونتحدث أولا عن الأسلوب العلمى . إن كل مجتمع يحتاج أولا إلى الإيمان بالأسلوب العلمى قبل إيمانه بالبحث العلمى . فبالأسلوب العلمى نستطيع أن نوفر المناخ لإنجاب علماء على مستوى دولى» .

❑❑❑

أه .. المستوى الدولى .

اننا – ومعنا كل الدول النامية تقريبا ـ فشلنا حتى الآن فى أن نقدم إلى العالم .. علماء على مستوى دولى . أبرز مثل لذلك جائزة نوبل فى العلوم مثلا . لقد قرأت كتابا صدر فى الشهر الماضى يحلل شخصيات العلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل فى العلوم خلال السبعين سنة الماضية .

والكتاب يكشف عن ظاهرة خارقة تقول : إن متابعة تاريخ الحائزين على الجائزة تكشف عن وجود «شجرة أسرة » فى العلوم يتفرع منها معظم الحائزين على جائزة نوبل . فهناك ١٧ عالما على الأقل من الحاصلين على الجائزة يرتبطون فى النهاية بأستاذ واحد عاش منذ خمسة أجيال .. هو العالم الألمانى الكيميائى فون بيير . ولو شملنا علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذين كان يمكن أن يكسبوا الجائزة بالتأكيد لو كانت موجودة حينئذ .. فإن نفس شجرة الأسرة هذه يمكن أن تشمل تسعة أجيال من العلماء . إن هذه الأجيال التسعة تحكمها علاقة واحدة هى علاقة (الأستاذ / الطالب). فكلها بدأت باستاذ

واحد ربى تلاميذ علماء .. ثم قام هذا الجيل بتربية جيل جديد .. وهكذا .. حتى الآن . وكانت النتيجة ... انهم جميعا حصلوا على جائزة نوبل .

□□□

وأسأل الآن الدكتور أحمد مصطفى :ما رأيك فى هذا الكلام ؟

وهو يقول : صحيح مائة فى المائة . إن الأستاذ البارز والتلميذ النابغة يميلان إلى اختيار بعضهما دائما. وظاهرة تسلسل الأجيال العلمية من بعضها البعض نجدها منتشرة بالذات فى المدرسة العلمية الألمانية . ولو تابعت تاريخ العلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل فى العلوم فستلمس أن اتصالهم المبكر بالأساتذة البارزين كان له أكبر الأثر فى مستواهم العلمى .

قلت : هل لمست هذه الظاهرة بنفسك أثناء تلمذتك على أيدى العلماء الألمان ؟

أجاب الرجل بحسم : نعم . ان أحد أساتذتى مثلا هو الكسندر شمبرج ، أستاذ الكيمياء العضوية فى جامعة برلين التكنولوجية. ان عمره الآن خمس وسبعون سنة . ومع ذلك فما زال يمر على تلامذته فى الساعة السابعة صباحا كل يوم .. مهما بلغت برودة الجو .

قلت : هل تتميز المدرسة الألمانية فى العلم عن غيرها ؟

أجاب : نعم . المدرسة الألمانية تؤمن بالتجربة أولا ..ومنها تستخرج الظواهر العلمية بعد ذلك . أما المدرسة الإنجليزية مثلا فهى تؤمن بالعكس .. تحدد الظواهر مقدما ثم تجربها عمليا بعد ذلك .

قلت : وما هو الطابع المشترك بين المدرستين ؟

قال: احترام التقاليد العلمية . فالعلم له تقاليد. هذه التقاليد لها طابع دولى . ولا يمكن أن تكون عالما بغير تقاليد . فالعلم نوع من التصوف . أو قل العلم كالصلاة . هل تستطيع أن تصلى قبل أن تخلع حذاءك مثلا؟ نفس المسألة فى العلم .

قلت : من فى رجال العلم فى مصر يؤمنون بالتقاليد العلمية ؟

قال : عندك مثلان بارزان لذلك . الدكتور أحمد زكى . والدكتور مصطفى مشرفه . وما بعدهما نتيجة لهما .

قلت منتقلا إلى مجال جديد : هل هناك فردية فى العلم ؟

أجــاب الرجــل : كان العلم فرديا فى البداية . ولكن الآن انتهى عصر المخترع الفرد . فالعلــم اليوم أصبح متقدما ومتطــورا إلى الدرجة التى أصبح يتطلب فيها عمزا كاملا لمجرد متابعة مايجرى . إننا الآن فى عصر الاختراع الجماعى . بمعنى أن العمل الجماعى أصبح الآن شرطا لتحقيق أى نتائج علمية هامة . وهذا التطور لم يتم على حساب الفرد . فالفرد لــه أهميتــه القصوى فى النمو العلمى . فالعلم لاينمو مثلا فى مجتمع من العبيد ، ولا ينمو مثلا فى مجتمع من الهواة» .

❑❑❑

.. والكلام معقول .

أن الفن هو «أنا» . أما العلم فهو «نحن» . فالفن شخصى ، بينما العلم موضوعى . الفن فردى ، بينما العلم جماعى .الكلام معقول إذن .. والتحفظات عليه معقولة أيضا .

فلو أن مائة من الرجال – مائة فقط – كانوا قد قتلوا فى طفولتهم منذ مائتين وخمسين سنة .. لما كنا نعيش اليوم فى هذا العصر الذى نعيش فيه الآن . فبغير هؤلاء .. كنا سنعيش اليــوم بغير ســيارات نركبها ولا طائــرات نحلق بها ولا تليفونات نتكلــم فيها ولا كهرباء نستضىء بها ولا تليفزيونات نشاهدها ولا أفلام نسجلها و .. لاصحف نقرأها.

والصفة الوحيدة التى يحملها هؤلاء الرجال هى أنهم : علماء . وتحت هذه الكلمة مائة خط .. وخط .

فنحن الآن فى عصر العلم . وقد وصلت إلينا هذه الأشياء بعد طريق شاق افتتحه رجال العلم منذ حوالى ٣٠٠ ســنة . فالعلم ، كما يقول برتراند راســل : «لم يصبح العلم قوة هامة إلا منذ جاليليو». ولم يصبح العلم عنصرا هاما فى تحديد شكل الحياة اليومية للناس عامة إلا فى أثناء المائة وخمســين ســنة الأخيرة . لقد حدثت فى تلك الفترة القصيرة تغييرات عظمــى لم يحــدث مثلها منذ أيام المصريين القدماء . ان مائة ســنة من العلم كان لها تأثير ضخم عجزت عنه خمســة آلاف ســنة من ثقافة ما قبل العلم . وســوف يستمر العلم لفترة طويلــة قادمة هو المقياس الحديث للحضارة والتقــدم . ولذلك فنحن الآن فى محاولة لفهم العلم .. بعد أن عجز العلم عن فهمنا .

أقــول للدكتــور أحمد مصطفى : هل من الصدفة مثــلا أن نجد أن أكثر من نالوا جائزة نوبل فى الكيمياء كانوا من الألمان ؟ وأن ألمانيا هى التى سبقت العالم إلى إنتاج البترول من الفحم ، والمطاط الصناعى ؟

والرجل يجيب : لا .. ليس هذا الأمر صدفة . فالعلم لاينمو بالمصادفات. الأمر ببساطة له سـببان .أولهما أن الأسـلوب الألمانى يؤمن جدا بضرورة المدارس العلمية . وكل أسـتاذ عظيم هناك له مجموعة من التلاميذ يكونون مدرسـة له. وهذا الطريق هو المفتاح الحقيقى لأى نهضة علمية. أما السـبب الثانى فهو الجامعات الألمانية . ففى العهد الذهبى الألمانى – هو الممتد بين سنتى ١٨٥٠ و ١٩٣٣ – كانت المنافسة العلمية قائمة فى ألمانيا بين أكثر من عشر جامعات ألمانية . وهذا هو السبب الأول والأهم للنهضة العلمية فى أى مجتمع .

قلت : وصلنا للمهم .. لماذا أصبحت الجامعات عندنا برجا عاجيا كما يقولون ؟

أجاب الرجل بحدة : أه .. أنت إذن تسمى الجامعات عندنا أبراجا عاجية ؟

قلت : لست أنا على أى حال مخترع هذه التسمية. ومع ذلك فلسنا هنا بصدد متابعة الأصل التاريخى للكلمة ..

قال أحمد مصطفى : مهما يكن .. أنا يا أخى كنت حتى ثلاثة أشـهر سـابقة أسـتاذا بالجامعـة. فلتكن الجامعة برجا عاجيا . والخطأ يا أخى ليس فى الجامعات. هناك دائما نوع من المعاهد العلمية يكون حلقة الإتصال بين الجامعات ومشاكل المجتمع اليومية. هذه المعاهـد هى التى «تترجم» البحوث العلمية الأكاديمية إلى واقع يجرى تطبيقه. ولقد فقدت الجامعـات عندنا الكثـير من رجالها لانتقالهم إلى العمل فى مجـالات الصناعة. كان هذا ضروريـا بالطبع . ولكننا وجدنا أنه بعد فـترة أصبحت لدينا لغتان. لغة الذين انتقلوا إلى التطبيق وآمنوا بعد خمس سنوات أو أكثر بأن هناك مشاكل فى حاجة إلى الأسلوب العلمى. ولغة الذين لم يلمسوا هذه المشاكل لبعدهم الفعلى والجغرافى عن موقع الإنتاج ، وانخراطهم فى مشـاكل التعليم الجامعى وتطويره وممارسـتهم البحوث الأساسية. وعلى أى حال فأنا مؤمن بأن رسالة الجامعة فى البلاد النامية هى العلم للمجتمع.

قلـت : ماهـو الأهم فى نظرك .. الحصول على الدكتـوراه أم النجاح فى بحث علمى تطبيقى ؟

قال : الدكتوراه هى الأخرى خطوة فى البحث التطبيقى .

قلت : مازال السؤال مطروحا .. أيهما أهم .. الدكتوراه أم البحث العلمى ؟

أجـاب الدكتـور أحمد مصطفى : شـوف .. الدرجـات العلميـة – كالدكتوراه – هى دليل رسمى بوجود قدر معين من المعرفة لدى الشـخص . ولكنها ليسـت الدليل الوحيد.

فـي الجامعـات الإنجليزية مثـلا هناك مجموعة كبيرة من الأسـاتذة لايحملـون أكثر من البكالوريوس .. ومع ذلك فهم أعضاء فى الجمعية الملكية للعلوم هناك .

قلت : ماذا ينقص جامعاتنا فى رأيك ؟

أجاب : كثير .. لكن أهمها فى رأيى هو اختفاء التقاليد الجامعية .

قلت : لو اسـتمر التعليم الجامعى عندنا بأسـلوبه الحالى .. فهـل تتوقع وجود علماء نابغين فى الجيل الجديد ؟

قال : لا أعتقد. ولكن هذا الأمر يمكن تداركه فى المدى القصير بأسلوب واحد .. التركيز على الإهتمام بالدراسات العليا. إنها مقياس صالح لكفاءة الخطوة السابقة عليها وهى دراسة البكالوريوس. وهذا أيضا علاج مؤقت .

❑❑❑

ونستريح قليلا ..

فلا أعتقد أننا تعرفنا تماما إلى الرجل الذى نجلس معه . وهناك تفاصيل كثيرة لايسمح لنفسـه بأن يرددها. هناك مثلا الولاء الشـديد من هذا الرجل للعلم. وهو يصمم وقته اليومى ليسـاعده فى تحقيق هذه المهمة . إنه يسـتيقظ يوميا فى الخامسة والنصف صباحا. صلاة الفجر. ثم قراءات وأبحاث علمية . الإفطار فى السابعة . عودة إلى القراءة حتى التاسعة . من التاسـعة إلى الرابعة عصرا عمل . سـابقا فى الجامعة والآن فى مركز البحوث . الغداء فى الخامسـة. جلسـات علمية فى منزله مع طلبة من الخامسة عصرا حتى التاسعة مساء. ثم النوم. وفى اليوم التالى تبدأ الدائرة من جديد .

والرجل حصل على جائزة الدولة مرتين . فى المرة الأولى (سـنة ١٩٤٨) طلب تحويل الجائـزة إلى بعثة سـفر فى الخـارج. المرة الثانية فى سـنة ١٩٥٢. الجائزتـان كانتا فى الكيميـاء العضوية التى تخصص فيها . مـرة ثالثة حصل على جائزة فولبرايت من أمريكا سـنة ١٩٥٥ . قبلها بسـنة دعته اليونيسـكو لإلقاء محاضرات فى جامعة اسطنبول بتركيا والجامعـة الأمريكية فى بـيروت. بعدها حتى الآن دعى لإلقـاء محاضرات فى جامعات الولايـات المتحـدة وألمانيا والمجر والهنـد. ودعى لمؤتمرات علمية فى الإتحاد السـوفيتى وتشيكوسلوفاكيا وكندا . إن الأسماء كثيرة فلا داعى للحصر .

والدكتور أحمد مصطفى لم يتزوج إلا في سنة ١٩٥٠ بعد أن أصبح عمره ٣٢ سنة. زوجته هي الدكتورة وفية عسكر وهي الآن أستاذة للكيمياء بكلية علوم جامعة القاهرة. إنها نفس تخصصه العلمي . السبب في رأيه هو أن «الحياة الزوجية يجب أن تكون أيضا حياة منتجة هادفة».وله الآن بنت واحدة في مرحلة تعادل المرحلة الإعدادية . انه لايساعدها في المذاكرة ولكن «.. والدتها تساعدها أحيانا» . هو نفسه كان يعتمد على نفسه في المذاكرة.. فلا دروس خصوصية ولا وساطات دراسية . آه .. نسيت : انه لايؤمن بالوساطة أبدا ولم يقبل الوساطة من أحد مطلقا .

والرجل أعصابه هادئة . لايثور إلا نادرا. خذ هذه الطريقة السهلة لإثارته : حاول أن تمس كرامة أستاذ جامعي زميل له . حاول أيضا أن تعرف منه قصة الذين كان له عليهم فضل علمي ثم طعنوه في ظهره. أستطيع أن أعطيك أمثلة .. فهذا النوع منتشر بكثرة في هذه الأيام. ولكن لاداعي لأن الرجل يقول «.. الله خير حافظ» حتى من الانتهازيين والوصوليين .

والرجل بعد ذلك له مدرسة علمية في مصر. لقد نال ١٦٠ دارسا على يديه شهادات الماجستير والدكتوراه.

وأسأله الآن : ألا تندم على الوقت الذى قضيته مع تلاميذك؟

وهو يرد : مطلقا .. كيف أندم على ما أستمتع به؟

قلت له : لاتحاول أن تسألني .. فسؤالي يتمشى مع الموضة هذه الأيام. ولكن .. دعني أغير السؤال.. لماذا لم تسع إلى أى منصب رسمي طوال حياتك ؟

قال الرجل ضاحكا : يسعدني أنني بقيت دائما أستاذا جامعيا. ان خلفي ٣٢ سنة من البحث العلمي . ولو بهرتني المناصب – وكثيرا ما كان هذا ممكنا – فإنني لم أكن سأصبح الآن كما أنا: أحمد مصطفى .

قلت : ما الذى خرجت به من الـ ٣٢ سنة في البحث العلمي ؟

قال : خرجت بشيء واحد.. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

سألته : فقط ؟

قال : خرجت بشيء آخر .. علم الإنسان مالم يعلم .

قلت : إن كلامك (كالجمل الســابقة) وتصرفاتك (كالحرص على صلاة الفجر حاضرا وصلاة الجمعة فى مسجد الحسين) توحى بأنك متدين. هل العلم يؤمن بالله ؟

أجاب الرجل بوجه تغطيه الدهشة : طبعا يا أخى. إن العلم إذا درسناه بتعمق كاف .. لوجدناه يثبت وجود الله ..

قلت : من هو العالم فى رأيك ؟

قال : العالم هو الله ..

قلت : طيب .. من هو رجل العلم ؟

أجاب : هو الشخص الذى .. كلما ازداد علما اكتشف جهله ..

سألته : ما أهم صفة تحرص عليها ؟

أجاب : التواضع العلمى بين طلبتى .. والاحترام المطلق لأساتذتى .

قلت : ما الذى تأخذه مقياسا لعملك ؟

قال : رأى طلبتى فـى . فتلميذى هو مقياس نجاحى . وأنا أحس بأننى كبرت حجما كلما زاد تلميذى علما .

قلت : ما سبب نجاحك ؟

قال : أدبنى ربى .. فأحسن تأديبى .

قلت : متى تشعر بالسعادة ؟

أجاب : عندما أصلى .

□□□

عودة إلى الجامعات . ولا أدرى ســببا لهذه العودة ســوى ما يقوله لنا التاريخ. فالتاريخ يقــول لنــا إن العلم الحديث بدأ فى الجامعات الإيطالية فى القرن الحادى عشــر .. وظل منتعشا هناك إلى منتصف القرن السابع عشر .وازدهار العلم فى ألمانيا بدأ بنفس الطريقة : بدأ فى الجامعات الألمانية فى القرن التاسع عشر .

هذا عن التاريخ القديم نسبيا . أما فى التاريخ الحديث جدا فأمامنا دراسة أعدتها باحثة أمريكية تقول فيها إن أكثر من نصف الذين حصلوا على أرقى الشهادات العلمية فى أمريكا ..

تخرجوا فى أربع جامعات بالذات هى : هارفارد – كولومبيا – بيركلى – برنستون . ومعظم الذين حصلوا على جائزة نوبل من أمريكا فى العلوم يعملون فى الجامعات ، بينما فى بريطانيا هناك ١٢ من كل عشرين يعملون فى الجامعات .هذه نقطة .

• نقطة أخرى نستخرجها من المناقشات الحامية التى دارت فى بريطانيا منذ ثلاثة أشهر بصدد السياسة العلمية هناك. لقد سيطر على المناقشة سؤال رئيسى : أيهما أفضل .. توزيع الموارد المالية الإضافية على كل الجامعات بالتساوى .. أم تركيزها فى عدد قليل من الجامعات تكون بمثابة مراكز للتفوق العلمى ؟ إن تاريخ الحاصلين على جائزة نوبل يثبت أن تركيز الموارد لخلق مراكز تفوق علمى هو الحل الفعال فى البحث العلمى .

وأسأل الآن الدكتور أحمد مصطفى : أيهما أفضل فى رأيك بالنسبة لنا .. توزيع مواردنا المحدودة على كل الجامعات بالتساوى .. أم تفضيل جامعة أو جامعتين بالذات لتكونا مراكز للتفوق العلمى ؟

ويرد الرجل : إن الحل فى رأيى هو أن تكون عندنا ميزانية بحوث ، وليست ميزانية جامعات أو مبان أو أشخاص . هذا هو الحل الفعال.

قلت : أنت تعمل الآن مديرا للمركز القومى للبحوث . لن أسألك عنه ، فمازلت حديثا فيه . لكننى أسألك .. ما أهم ما يملكه هذا المركز ؟

أجاب الرجل بحسم : الإنسان .. الإنسان عندى هنا هو أغلى ما أملكه فى هذا المركز .

قلت : هل تعتقد أنك تستطيع أن تفعل شيئا فى هذا المركز ؟

أجاب : لست أنا الذى أستطيع . انهم ١٥٠٠ انسان فى هذا المركز هم الذين يستطيعون أن يفعلوا الكثير .

قلت : حسنا : كلمنى عن المركز إذن..

قال ضاحكا : أعتذر. لا أستطيع أن أحدثك عن المركز الآن .

سألته : إذن .. متى تستطيع ؟

أجاب : عندما نعمل شيئا يستحق الحديث .

ومرت لحظة صمت. ثم ضغط الرجل على جرس بجانبه قائلا لى .. ايه رأيك .. تشرب قهوة ؟

قلت له جامعا أوراقى : لقد شربت فعلا ..

سألنى : متى ؟

أجبته : شربت هذا الحوار . إنه قهوتى هذا الصباح .

□□□

و ... لقد قلت فى بداية هذا المقال إننى لم أخرج بشىء من مقابلاتى الأربع الأولى مع هذا الرجل. فى الواقع أنا أراه منذ شـــهرين وبالفعل لم أكتب شــيئا. ولكن .. أليس العلم هكذا : يحتاج إلى صبر طويل قبل أن يعطينا نتائج مشجعة ؟

لقد قلب العلم حياتنا رأسا على عقب . مثلا .. النجوم التى نشاهدها اليوم فى السماء ليلا . إنها نفس ما كان يشـــاهده الفلاح المصرى فى الســـماء منذ ألفى سنة . لكن السماء لم تعد هى نفســـها مطلقا. الآن أصبحنا نعرف النجوم فى الســـماء أكثر وأكثر وأكثر . أصبحنا أيضا نجهل عنها أقل وأقل واقل . والسبب فى كل ذلك : رجال العلم .

ونحن نعلم أنه من بين كل مائة عالم عرفتهم البشرية طوال تاريخها .. هناك ٩٥ عالما يعيشون فى عالمنا المعاصر الآن . فالعلم الحديث كان متأخرا فى وصوله .. مبكرا فى إظهار نتائجه .

وفى مصر .. نحن نبذل جهدا خارقا للحاق بعصر العلم . للحاق بالقرن العشرين .

و ...

الوحيد الذى يستطيع أن ينجز لنا هذه المهمة هو : رجل العلم . إنه مندوبنا فى القرن الحادى والعشرين .



رجل .. يخترع المستقبل

لا تستطيع مصر أن تقدم استقالتها من القرن العشرين . استقالة مرفوضة . (مع أننا فعلنا ذلك أحيانا بحسن نية) !

وما دام الأمر كذلك .. فإن المشكلة الملحة جدا هى أن نبنى فى مصر مجتمعا علميا . هذا شرط مبدئى لا نستطيع قبله أن نتفاهم مع عصرنا .

إلى هنا سنجد أنفسنا متفقين تماما على هذه الحقيقة .. شعار آخر من بين الشعارات . ثم يبرز سؤال : هل نحن مستعدون لدفع الثمن ـ ثمن إيماننا بالعلم أسلوبا لتفكيرنا وقيدا على تصرفاتنا ؟

.هنا بالضبط – بالضبط – نبدأ فى الاختلاف .

العلم يتطلب أولا موهبة الشك . ونحن نحتفظ فى مجتمعنا بمجموعة ضخمة من المقدسات والمسلمات والحقائق المطلقة المعفاة من النقد والمراجعة . والعلم يتطلب ألا نترك حياتنا للصدف والطوارئ .. فى حين أن مشكلتنا مع المستقبل هى أنه يصل عادة قبل أن نستعد له .

ونحن نجامل الفقر والمساواة كثيرا على حساب الكفاية ، بينما العلم يرفض أن يعطى للجائع سمكة . إنه يعلمه كيف يصطاد سمكة .

ونحن نربى أجيالنا الجديدة على الإيمان تماما – وجدا – بالأمر الواقع .. بينما العلم يبحث دائما عن المجهول . عن المستقبل .

وحينما تنمو بيننا فكرة جديدة .. فليس هذا لأننا شجعناها مقدما .. بل لأننا تنبهنا إلى قتلها بعد فوات الأوان . المسألة حظ وصدفة . تماما كالأسطورة الإغريقية القديمة التى

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٨/٩/٧ .

تحكــى عن ثلاثة أمراء كانوا أثناء رحلاتهم المســتمرة يكتشــفون - بالعقل أو بالصدفة - كل الأشــياء التــى لم يبحثــوا عنهــا أصلا . المســألة - باختصار - هــى وصاية يفرضها حاضرنا على مســتقبلنا . وتكون النتيجة : الحاضر يصاب بفقر الدم ، والمســتقبل يموت بموافقة الأغلبية .

فــى مثــل هذا المناخ - آســف - فى مثل هذا الجو القاتل مقدمــا للأفكار الجديدة .. لايكون المجتمع وحده هو الخاسر ، بل الخسارة تمتد أحيانا لتشمل الإنسانية بأسرها .

إن أوضح وأضخم مثال فى التاريخ على ذلك هو اكتشــاف الطاقة الذرية . لقد اكتشــف أحد العلماء - عالم إيطالى - سر الطاقة الذرية قبل اكتشافها فعلا بخمس سنوات . حدث ذلك فى شهر مايو سنة ١٩٣٤ . ولكنه لم يجرؤ على إعلان اكتشافه . بل إنه - هو الآخر - لم يتنبه لما رآه .. بسبب سيطرة النظريات العلمية السائدة فى ذلك الوقت ، وكلها تقول إنه من المستحيل انشطار ذرة اليورانيوم .. وهو الذى جعل صنع القنبلة الذرية ممكنا.. وهو أيضا الذى فتح أمام الإنسانية أوسع أبواب تقدمها : الطاقة الذرية .

❑❑❑

وأسأل الآن الدكتور محمد عبد المقصود النادى ، رئيس قسم الطبيعة النووية بكلية علوم جامعة القاهرة : ما هى - أصلا - الطاقة الذرية ؟

ويرد الرجل : « عندك الشــمس مثلا .. حولها مجموعة من الكواكب نســميها علميا المجموعة الشمســية . هناك جســم فى الوســط - كالشــمس - هو النواة . وثمة مجموعة تــدور حولها - كالكواكب - هى الإلكترونــات . إن النواة هى التى تضم الطاقة الذرية . والذرة هى جزء صغير جدا لايمكن رؤيته بالعين المجردة . وهناك ميكروسكوب اليكترونى يكبر الأشــياء مائة ألف مرة . ومع ذلك فإن قوة تكبير الميكروســكوب لاتكفى لرؤية الذرة . الطريقة الوحيدة لرؤيتها تكون بميكروســكوب يكبر الأشــياء مليون مرة . إن هذه النواة (الذرة) عندما تصطدم بنواة أخرى ســريعة الحركــة ، تتولد منها طاقة كبيرة جدا تنطلق كالديناميت . هذه الطاقة هى الطاقة الذرية .. التى يمكن بعد ذلك اســتخدامها حربيا أو سلميا» .

قلت : لماذا اخترت أنت هذا التخصص الصعب ؟

أجاب الرجل (وهو الثانى فى الشرق الأوسط الذى يتخصص فى الطبيعة الذرية بعد المرحوم الدكتور مصطفى مشرفه) : «الحقيقة هى أننى عندما كنت طالبا فى المرحلة الثانوية كنت كثيرا ما أقرأ قراءات حرة . كنت أقرأ الصحف والمجلات وكتب الأدب . وكانت هناك مجلة شهرية وقتها اسمها (المقتطف) .. كانت تنشر مقالات علمية مترجمة ، تمتاز بالبساطة والسهولة . استهوتنى كثيرا تلك المقالات ، خصوصا ما كان منها يتناول نظرية النسبية والطاقة الذرية . وبمرور الوقت اكتشفت أنه قد تولد عندى شغف شديد بالموضوعات العلمية عموما ، وبموضوعات الطاقة الذرية بصفة خاصة . آه .. هناك مسألة أخرى . لقد كانت وزارة المعارف العمومية تجرى مسابقات سنوية فى القراءات الصيفية لطلبة المدارس . وكنت أجد لذة كبيرة فى الكتب العلمية التى تضمها تلك المسابقات .. ثم النجاح فى المسابقات نفسها . وبالطبع كنت أجد نفسى شغوفا أكثر بقراءة الكتب العلمية المبسطة . هذه هى بدايتى الأولى . بداية متواضعة كما ترى» .

❑❑❑

.. ولكننى لا أراها بداية متواضعة كما يقول الدكتور النادى . إننى أراها فقط بداية مبكرة . والحقيقة هى أننا لو درسنا تاريخ كبار العلماء فى العالم .. لوجدنا أن معظمهم بدأ حياته باهتمام متواضع جدا بالموضوعات والأفكار العلمية المبسطة . مثلا : عالم الذرة الألمانى شيزنبيرج كتب عن نفسه ذات مرة قائلا : «لاحظت فى نفسى اهتماما بالقراءات العلمية المبسطة منذ سن التاسعة . وفى سن الحادية عشرة أهدانى أخى الأكبر لعبة صغيرة تمتاز بأنها تحتاج إلى مجهود عقلى بسيط لممارستها . وكنت أجد لذة كبرى فى ممارسة تلك اللعبة . ثم بدأت أبحث عن لعبة أخرى تحتاج إلى مجهود عقلى أكبر . ثم أكبر .. فأكبر . إلى أن وجدتها .. الطاقة الذرية» .

❑❑❑

وأسأل الآن الدكتور محمد عبد المقصود النادى . رجل فى الخمسين من عمره وعدة أشهر . أشيب الشعر . اسمر الوجه . متردد الكلمات . متوتر الحركات . منتظم التفكير . سهل الحديث . طويل القامة . يحيط الجزء الأمامى من وجهه بحزام أسود اللون يحمل دائرتين شفافتين فى الوسط . حزام يرتكز على الجزء العلوى من أنفه . إنه : نظارته الطبية .

أقول : بعد أن تابعت معك بدايتك العلمية المبكرة .. أستطيع الآن أن أتابع خطواتك العلميـة التالية . أنت التحقت بكلية العلـوم لتحقيق أمنية صباك . ثم تخرجت فيها فى سنة ١٩٤٠ فى تخصص الطبيعة بتقدير الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى . ثم أنت تابعت دراسـتك فحصلت على الماجيسـتير فى الطبيعة فى سنة ١٩٤٥ . بعدها بعثة إلى بريطانيا لدراسـة الطبيعـة الذرية .. حتـى حصلت على الدكتوراه فيها من جامعة لندن فى سـنة ١٩٤٨ ، فمدرسا بكلية العلوم بجامعة القاهرة عدة سنوات ثم أستاذا مساعدا ، فأستاذا ، فرئيسـا لقسـم الطبيعة النووية . إلى هنا أسـتطيع أن أقول إنك واحد ضمن ١٢٠٠ أسـتاذ تضمهم جامعاتنا .. فهل هذه البيانات دقيقة ؟

– نعم .

قلت : ولكنك فى الواقع سـرعان ما أثبت أنك رجل غير عادى . فأنت حصلت على الدكتـوراة مـرة ثانية هـذا العام فى الطبيعـة النووية . قبلها حصلت علـى جائزة الدولة التشـجيعية ثلاث مرات منذ سـنة ١٩٥٣ . وأثناء تلك الفترة فأنت عملت أستاذا بجامعة «ييل» الأمريكية لمدة سنة . ثم أصبحت لك سمعة دولية متميزة ، بحيث أصبحت بحوثك العلمية تنشر فى أكبر المجلات العلمية الدولية . ووجهت إليك الدعوات لإلقاء محاضرات عن أبحاثك فى الإتحاد السـوفييتى وبريطانيا وألمانيا الغربية وعدة دول أخرى لا أتذكرها الآن . هل هذا صحيح ؟ حسـنا . هنا بالضبط أريد أن أسـألك : هل تعتقد أننا وصلنا إلى المستوى الدولى فى بحوث الطبيعة الذرية ؟

أجاب الرجل بعد لحظات من التفكير : «أعتقد أننا أصبنا شـيئا من النجاح فى بعض موضوعـات الطاقة الذرية .. مثل موضـوع التفاعلات النووية . فالواقع ان الطبيعة النووية موضوع واسـع ومتطـور ، وبالرغم من ذلك فإن لنا أبحاثـا دولية فى موضوعات محددة . أبحاثا نشرت فى المجلات العلمية الدولية ونالت الكثير من التقدير».

قلت : أشـكرك على هذا التوضيح . بقيت لدى نقطة أخرى أريد اسـتيضاحها قبل أن نتعمق فى المناقشـة . ألا يعتبر إسـرافا من الدول النامية – ونحن من بينها – أن تنفق من مواردهـا المحدودة علـى بحوث الطبيعة الذرية ؟ إنه تخصص علمى هام . هذا صحيح . ولكنه مكلف جدا ومعقد للغاية .. بما لايسـمح للدول النامية – هكذا يقول البعض – بأن تحقق فيه نتائج ملموسة .. فما رأيك ؟

أجـاب الرجل : «أمـا عن ارتفاع تكاليف بحوث الطاقة الذرية .. فهذا صحيح . إنها فـرع من العلوم باهظ التكاليف . وفيما عدا أمريكا والإتحاد السـوفييتى .. فلا توجد دولة تستطيع أن تتحمل وحدها تكاليف البحوث المتعددة فى كل ميادين الطاقة الذرية . .

«.. هى بحوث باهظة التكاليف . هذا صحيح . ولكن الطاقة الذرية هى المسـتقبل . وهى ضرورية وأساسية للدول النامية بأكثر مما تتصور . ولايمكن لدولة نامية أن تفاضل بين المشاكل العاجلة وبين مشـكلة تطوير بحوثها النووية . فالطاقة الذرية هى أيضا مشـكلة عاجلة . لكن على الدولة النامية أن تتخصص . أن تختار . فهى تستطيع أن تختار مجالا معينا من مجالات البحـوث النووية وتركز أبحاثها ومواردها فيه . إن الدولة التى تفعل ذلك تسـتطيع بعد فترة قصيرة أن تحقق نتائج كبيرة تستفيد هى منها بشكل أساسى ، ثم يستفيد العالم كله» .

قلـت : أنت ذكـرت منذ لحظة أن بحوث الطاقة الذرية هى الأخرى مشـكلة عاجلة بالنسـبة للدول النامية . هل تسـتطيع أن تذكر لى أمثلة لنوع المشاكل التى تستطيع الدول النامية أن تحلها بواسطة الطاقة الذرية ؟

أجـاب الرجـل فورا : «نعم . خذ عندك مثلا اسـتخدام الإشـعاعات الذرية فى إبادة الحشرات . هذا موضوع له أهميته الاقتصادية بالنسبة لدولة كمصر . فلو كان هذا من بين المجالات التى ركزنا فيها جهودنا وخبرتنا فإن التوصل إلى حل نهائى لمشكلة دودة القطن سـيصبح أمرا مؤكدا خلال سـنوات قليلة قادمة . مشـكلة أخرى : تحويل مياه البحر إلى مياه عذبة . إن استخدام الطاقة الذرية فى هذا المجال هو الحل الوحيد فى المدى الطويل – بل حتى القصير – لمشـكلة الطعام والسـكان فى مصر . تصور أنت ماذا يمكن أن يكون الحال لو ركزنا جهودنا وخبراتنا وبعثاتنا ونشاطنا العلمى – طبيعة وكيمياء وغيرهما – فى التوصـل إلى طريقـة اقتصادية لتحويل مياه البحر إلى مياه عذبة نروى بها أراضى الصحراء الشاسعة ببلدنا ..

«باختصـار أقـول لك : مع أن الدول النامية هى الأكثر فقرا بين دول العالم .. إلا أنها هـى الأكثر حاجة لبحوث الطاقـة الذرية . هذه هى المعادلة الصعبة – بل الصعبة جدا – التى يجب أن نتوصل إلى حل لها» .

❑❑❑

كلمـات خطـيرة ؟ لا .. بل أكثـر . إن هذه الكلمات التى يقولهـا الدكتور النادى هى إنذار . والمجتمعات لا تتقدم إلا بواسـطة الذين يملكون هذا الفن : فن إنذار المجتمع فى الوقت المناسب .

أن هـ . ج . ويلز له كتاب اسمه (النائم يستيقظ) . وفى الكتاب يخبرنا عن رجل نام مائة سـنة . ثم اسـتيقظ ليجد حوله عالما مختلفا جدا عما عرفه من قبل . والدولة النامية سوف تصبح هذا الرجل إذا اختارت لنفسها تأجيل الإهتمام ببحوث الطاقة الذرية .. لأنها فى هذه الحالة تؤجل مستقبلا لا يقبل التأجيل .

وهذا المعنى هو ما يحاول أن يؤكده الدكتور النادى . والواقع ان كلمات الرجل تتمشى مـع الإهتمام الذى يعطيه فى حياته الشـخصية لموضوعات الطاقـة الذرية . أنه يملك فى بيته أكبر وأحدث مكتبة فى الشرق الأوسط – أكرر : فى الشرق الأوسط – لكتب ومجلات الطاقـة الذريـة . مكتبـة رائعة . والرجل يعطى وقته كله لعلمه . لا مسـرح . لاسـينما . لا تليفزيون . لا سـهرات . لا تدخين . الاسـتيقاظ فى السادسـة صباحـا . النوم خمس ساعات . الباقى قراءة .. قراءة .. قراءة . إنه يقرأ المستقبل . لا .. بل يخترع المستقبل . هذا موقف كل رجل علم فى مصر يعمل الآن فى بحوث الطاقة الذرية .

والرجل يعطى حياته لحساب مستقبلنا . بل حتى معنى السعادة بالنسبة له هو : «أكون سعيدا جدا عندما أسمع عن تقدير دولى لأحد بحوثنا فى الطاقة الذرية» . أنه يعطينا حياته إذن .. ويعطينـا أولاده أيضـا . إن لديه أربعة .. ثلاثة أولاد .. وبنت . أصغرهم منقول إلى السنة الأولى ثانوى . أكبرهم فى بعثة الآن فى أمريكا . البنت طالبة فى كلية الصيدلة .

وكل ما يتمناه الرجل لأولاده هو أن : «يواصل واحد منهم ما بدأته أنا .. حتى يحقق مـا لم أحققـه أنـا» . ومع رغبته الملحة هـذه فى أن يواصلوا هم ما بـدأه هو .. إلا أنه لم يتدخل فى حياتهم الشـخصية كثيرا . مجر د نصيحة . لا . مجرد رأى .. فلا أحد يقبل بالنصيحة من أحد فى هذه الأيام !

□□□

.. ونعود إلى الذرة .

أقول للدكتور محمد عبد المقصود النادى : كم دولة نووية فى العالم الآن ؟

وهو يرد : خمس .. الولايات المتحدة .. الإتحاد السوفييتى .. بريطانيا .. فرنسا .. الصين .

– متى تصبح الدولة .. دولة نووية ؟

– عندما تستطيع أن تصنع الوقود الذرى وتحلله وتستخرج منه العناصر المختلفة .. ثم تعيد تحويلها مرة أخرى . .

– إذن .. ألا يعد وجود المفاعلات النووية فى دولة ما مقياسا لوصفها بالدولة النووية ؟

– لاطبعا . شراء مفاعل نووى مسألة سهلة .. تماما كشراء آلات مصنع . إنه ليس دليلا فى حد ذاته على أن الدولة صناعية . ولكن الدولة تصبح دولة صناعية عندما تتمكن من صناعة آلات المصانع نفسها .. وهكذا فى الذرة . وجود المفاعل النووى هو خطوة أولى . لكنه ليس فى حد ذاته دليلا على أن الدولة ذرية .

– وهل هناك دول كثيرة لديها مفاعلات نووية فى العالم الآن ؟

– نعم . كثير . إن أصغر الدول تتنافس الآن فى الحصول على مفاعلات نووية .

❑❑❑

منافسة طيبة .

فالواقع أن الطاقة الذرية التى أصبحت تحظى الآن بمثل هذا الإهتمام من الدول المختلفة.. قد بدأت بداية متواضعة جدا ، ومنذ سنوات قليلة جدا .

لقد كانت البداية هى تلك البداية المتواضعة التى قام بها العالم الإيطالى انريكو فيرمى (١٩٠١/١٩٥٤) . لقد أجرى فى مايو ١٩٣٤ أول تجربة حقق بها انشطار ذرات اليورانيوم . ولكنه لم يتنبه لما رآه لأن النظريات العلمية السائدة وقتها كانت – كما ذكرت من قبل – تقول إن من المستحيل انشطار الذرة . إن هذا العالم الإيطالى كوفىء قبل وفاته باعتباره (.. الرائد الذى كان أول انسان فى العالم كله يحقق تفاعلا ذريا) . ولكن تلك المكافأة جاءت بعد سنوات طويلة – طويلة – من تجربته الأولى فى سنة ١٩٣٤ . وكان من الممكن – بفضل تلك التجربة – أن يتم اكتشاف الطاقة الذرية قبل اكتشافها فعلا بخمس سنوات . ولكن هذا الاكتشاف كان جديدا وقتها إلى درجة لم تجعل أحدا يؤمن به .

والواقع أن المســألة هى - كما يقول اللورد ريتش كالدر ، الصحفى العلمى الإنجليزى المشــهور : «ان الثورات العلمية تحدث فقط حينما يســتطيع الرجــال العظماء أن يحرروا أنفســهم من القوالب الســائدة للتفكير» . صحيــح . فالأجيال تولد مــن بعضها البعض . وحينمــا يحــاول جيل مــا أن يفرض وصايته علــى الجيل التالى له فــإن المجتمع يصاب بأفدح الخسائر .

وأنا الآن أسأل الدكتور النادى : من - من الجيل السابق - تتلمذت أنت عليه ؟

ويرد الرجل بثقة : «ان أســتاذى فعلا كان المرحوم الدكتور على مصطفى مشــرفه . لقد درس لى مبــادئ الطبيعة النووية فى الســنة الرابعة بكلية العلوم . انه أول من حصل على الدكتــوراه فــى الطبيعة الذرية النظرية .. وأنا أول واحد بعده . لقد تعلمت من هذا الرجل أشــياء كثيرة غير مجرد علمه الواســع . وتعلمت أيضا من أستاذ ثان لى هو المرحوم الدكتور محمد فهمى . لقد كانا مثالين حقيقيين للأستاذ الجامعى» .

قلت مقاطعا : بالمناسبة .. ماهى طبيعة نظرتك لنظام التعليم المصرى الحالى ؟

قال الرجل : «الطالب المصرى عنده استعداد ضخم للبحث والدراسة . لكن ، للأسف ، هو لايجد التوجيه السليم لمواهبه بعد الثانوى ، ولا الفرصة العلمية الكاملة بعد الجامعة . النقطة الثانية : ســوء نظــام توزيع الباحثين على معاهد البحــث العلمى . النقطة الثالثة - بل المشــكلة الكبرى - هى نقص المجلات والكتب العلمية الحديثة . ان العلم يتطلب القراءة المســتمرة . فى الأدب أنت تبدأ بقراءة أقدم الكتب . فى العلم .. العكس .. يجب أن تبدأ بأحدث الكتب . ونحن نرتكب جريمة كبرى فى حق أنفسنا عندما نقصر فى حل هذه المشكلة .. لأننا نعزل أنفسنا تماما - باختيارنا - عن عصرنا » .

قلت : هذه نقاط هامة بلا شــك . ولكن .. ألا توجد إلى جانبها مقترحات لك لتحقيق نتائج سريعة ؟

أجاب : «شــىء واحد يعطيك نتائج عاجلــة : التركيز . نحن نحتاج إلى مراكز علمية أقــل عــددا ولكن أكبر قوة . إن هذه المراكز يجــب أن تمثل مدارس علمية . ولا يوجد علم بغــير مــدارس علمية . كل مدرســة علمية لابد مــن تدعيمها تماما وجــدا . لابد مثلا من اســتضافة العلمــاء الأجانب المتازين فى كل فرع علمــى . إن النتائج الكبرى فى العلم لن

تتحقق إلا باحتكاك أحسن كفاءاتنا بأبرز العلماء الدوليين . هذا هو ماحدث مثلا فى مجال الكيمياء العضوية ، ولذلك فهى تحقق نتائج كبيرة فى مصر ..

«.. نقطة ثانية ، هى بعثاتنا العلمية . هذه البعثات هى أيضا يجب تركيزها . ان المبعوثين يعودون بعد أن عاشوا وسط مدارس علمية متنافرة ومتعددة . ان التفاهم العلمى السريع صعب بين واحد عائد من المجر مثلا ، وآخر عائد من أمريكا ، وثالث عائد من روسيا ، ورابع من فرنسا ، وخامس من انجلترا .. الخ» .

قلت مقاطعا : لو سمحت .. أنت أشرت منذ لحظة إلى أهمية المدارس العلمية .. لماذا تأخذ فى رأيك هذه الأهمية ؟

أجاب : «لأن الحركة العلمية تتوقف كثيرا على العوامل الشخصية . فحينما يوجد لديك عالم نابغة فإن وجوده كفيل بخلق مدرسة علمية ..

«.. باختصار : ان العلم بقدر ماهو جماعى فى حركته .. فإنه شخصى فى نموه . ولذلك ففى معظم الدول المتقدمة .. عندما يصل الشخص إلى درجة أستاذ جامعى يقيمون له معهدا علميا مجهزا ويجعلونه مديرا له . لكى يتربى على يديه جيل آخر من بعده» .

❑❑❑

كلام معقول ؟

طبعا . وهناك كثيرون يتفقون مع الدكتور النادى فى رأيه . مثلا .. الدكتور «جيمس كونانت» الذى ظل رئيسا لجامعة هارفارد الأمريكية عشرين سنة حتى عام ١٩٥٣ . كان يؤكد كثيرا على الجانب الشخصى فى العلم . وعلى أن العلم هو أولا رجل عالم .. والباقى يجىء بعد ذلك . وكان يقول : «إن الثورات التى حدثت فى العلم .. إنما جاء بها رجال باحثون طليقون غير مقيدين . إن الجامعات هى المكان الطبيعى للبحث العلمى غير المقيد . العلم للعلم . ومراكز البحوث هى المكان الطبيعى للباحثين وفق برنامج وخطة . العلم للحياة» .

وهنا أعود إلى الدكتور محمد عبد المقصود النادى لأسمع منه :

«أنا أيضا أعتقد أن البحث العلمى ينمو أساسا فى الجامعات . إنها المكان الطبيعى للبحث العلمى الحر . بشرط أن نفهم أن الجامعة هى أستاذ .. زائد طالب .. زائد معمل .

أما معاهد البحوث فهى التى تتولى بحث المشاكل العاجلة ، إنها تتخصص فى موضوعات محـــددة تطبيقية وهامة للاقتصاد القومى . والمشـــكلة عندنا هى أننا خلطنا بين الاثنين .. فلا الجامعة قامت بدورها .. ولا المعاهد حلت محل الجامعة ..

«.. البيئة العلمية شرط أساسى لنمو العلم . أما الوحدة العلمية فهى قاتلة .

«.. الطاقــة الذريــة بدأت هـــى الأخرى كعلم للعلم . وانتهت إلى مـــا نراه الآن .. إنها مستقبل العلم .

«.. أمنيتى فى المســـتقبل هى أن أقيم فى جامعـــة القاهرة معملا للطبيعة النووية يحقق نتائج ذات قيمة» .

□□□

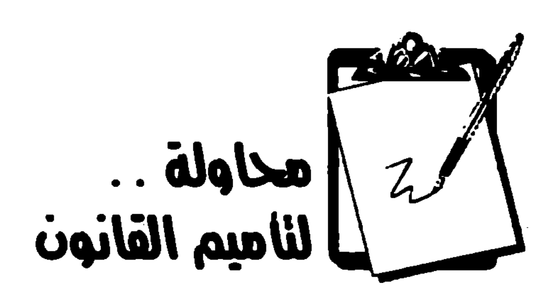
و .. ماذا بعد ؟

أن هناك مسرحية (النبيل البورجوازى) كتبها موليير . فى المسرحية حادث مشهور.. لقد شـــعر بطل المســـرحية بســـعادة بالغة عندما علـــم فجأة أنه كان طـــول حياته يتكلم .. النثر !

ولا شـــك أن معظمنا سوف يشعر بنفس السعادة عندما نجد علماء ، كالدكتور النادى ، مازالـــوا .. برغم كل ما نفعله ضد العلم .. يعيشـــون بيننا . نحـــن إذن لا ينقصنا العلماء . ربما . ولكن ينقصنا بالتأكيد : أن نفهم العلماء . أن نوفر لعقولهم مناخا علميا يستنشـــقون منه هواء صحيا .

و .. عند التاريخ ما يقوله لنا فى هذا الشـــأن . لقد عاشـــت أثينا واســـبارطه فى عصر واحد . اهتمت أثينا بحرية العقل . واهتمت اسبارطه بحرية العضلات .

النتيجة : انتصرت اســـبارطه يوما ، ولكن خلد ذكر أثينا . انتصرت اســـبارطه يوما ، وانتصرت أثينا ألف سنة .



محاولة .. لتأميم القانون

إعطنــى مــن وقتك ثلاثة أيام - ٣ أيام فقط لو سمحــت - لنقضيها معا داخل جدران أربعة . بعدها ســأحولك إلى إنســان آخر . ربما تصبح فيلســوفا جدا . ربما مجنونا جدا . ربما عاقلا جدا . ربما ثرثارا جدا . ربما صامتا جدا . ولكن المؤكد فى هذا كله : إنك فى النهاية ، سوف تصبح شخصا آخر . آخر جدا .

إن الله - وبعــض النــاس أيضــا - هو الذى يعلم ماذا يمكن أن يحدث لك فى هذه الأيام الثلاثة .. داخل الجدران الأربعة . وللإختصار ، فإن الشــىء الأســاســى هو : إننى سأمنع عنك العدل . سأمنع عنك القانون .

وســوف أســتطيع ذلك دائما ، ما دمت أنت ضعيفا وأنا قوى .. وما دمت بلا سلطة ، وأنا معى كل الســلطة . فالقوى هنا يفرض قانونه على الضعيف . إنها صورة حديثة جدا لانحراف الســلطة . وهى أيضا صورة قديمة جدا لانحراف القوة . مشــكلة بحثت البشرية عن حل لها ، حتى قبل أن يتحدث عنها أفلاطون فى جمهوريته .

ففى بعض القبائل البدائية شوهد المحاربون وهم يجهزون على العجائز .. ثم يلتهمون لحمهم . واحتاج الأمر إلى فترة طويلة من التطور ، قبل أن يكف الإنسان عن أكل أقربائه.. ليتجه إلى أكل أعضاء القبائل المجاورة .

ثم حدث - وكان لابد من ذلك - أن اكتشف الإنسان حاجته إلى القانون .. إلى مجموعة من القواعد المعروفة مقدما ، لكى تحميه من طغيان أخيه الإنسان . وعندما وضع جزاء على مخالفة تلك القواعد .. أصبح هناك ما نسميه الآن : القانون .

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٨/٧/١٣

فالقانون نشأ أصلا فى صورة تحفظات على القوة . تحفظات على السلطة . هذه التحفظات تقل فتنعدم فى مجتمعات الغاب . وتزيد فتتأكد فى المجتمع المتحضر .

هذا إذن هو السبب الأصلى الذى وجد القانون من أجله . وهو أيضا الموضوع الذى يتحدث فيه هذا الرجل : الدكتور ثروت أنيس الأسيوطى .

❑❑❑

يقول الرجل : «لايوجد مجتمع بلا قانون . فبمجرد اجتماع إنسان مع آخر .. ينشأ القانون فورا . بمعنى أنه فى كل مجتمع لابد من وجود قواعد للسير والسلوك . لقد وجدت هذه القواعد عند الإنسان البدائى فى صورة تحديد للأعمال المحرمة ، سماها الإنسان البدائى : التابو . ان (التابو) هى قواعد دينية تنسب إلى القوى الخارجة عن الطبيعة ، بمقتضاها يحرم الإنسان على نفسه أفعالا معينة ، وإلا تعرض لعقاب الآلهة ..

«.. ثم تطورت قواعد التابو بعد مراحل طويلة ، بحيث أصبح هناك ما نسميه الآن : القانون . وتعريف القانون ما يزال محل خلاف . البعض يقول إنه مجموعة من القواعد الملزمة التى تحكم علاقات الأفراد فى المجتمع . تعريف شكلى . أما التعريف الصحيح فهو :أن القانون هو مجموعة من القواعد التى يلتزم بها الأفراد فى المجتمع .. لخدمة مصالح الطبقة الحاكمة ..

«.. فالرأسمالية هى الطبقة الحاكمة فى المجتمع الرأسمالى ، ومن ثم فالقانون مسخر لخدمتها . والشعب هو السلطة العليا فى المجتمع الإشتراكى . ولذلك فعلى القانون أن يخدمه أولا ..

«.. حسنا . أنت تقول إننى هكذا مؤمن بالتفسير المادى للقانون . فعلا . فالقانون ليس ناشئا من أسباب مثالية أو أخلاقية . إنه ترجمة لصراع بين مصالح وطبقات متناقضة فى المجتمع . الطبقة التى تنتصر هى التى تضع فى النهاية كل القوانين» .

❑❑❑

ولكن – وهذه أصول المناقشة – من الواجب أن نتعرف مقدما على الرجل صاحب هذه الآراء . قبل أن نواصل معه المناقشة : أخذ وعطاء .

الرجل هو الدكتور ثروت أنيس الأسيوطى – ٤٢ سنة . أعزب . أستاذ مساعد بكلية الحقوق جامعة القاهرة . إنه الوحيد فى مصر المتخصص فى «فلسفة القانون» . وعن

تخصصه هذا حصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٥ ، ووسام الجمهورية من الطبقة الثالثة نتيجة لتفوقه العلمي ودراساته القانونية . وهو يجيد ٨ لغات أجنبية.
أكرر : ثماني لغات أجنبية ، هي : الإنجليزية .. الفرنسية .. الإيطالية .. الألمانية .. الإسبانية .. البرتغالية .. اللاتينية .. الروسية .

وهو يذكرني بنوع خاص من الناس . نوع تحس معه أن ماضيه كله .. هو مجرد مقدمات في كتاب طويل مفتوح . مجرد تمهيد . أو لنقل .. مجرد بروفة .. لأفكار أخرى لم تبدأ بعد في الظهور . مع مثل هؤلاء الأشخاص لا نستطيع أن نصل إلى حكم قاطع ، أو تنبؤ مؤكد ، حول نوع المستقبل الذى ينتظرهم .. فما زالت لديهم أشياء كثيرة لم يفصحوا عنها بعد . حسنا . هذا الرجل من هذا النوع .

والدكتور ثروت ترتيبه الثالث بين ستة إخوة . هذه من المرات القليلة فى حياته التى لم يكن ترتيبه فيها الأول . الإخوة بالتساوى : ثلاثة ذكور ، وثلاث إناث . وهو لا يدخن . لا يشرب . ينام قليلا . يتدين قليلا . مجرد مرة فى الأسبوع يذهب فيها إلى الكنيسة كل يوم أحد .

والرجل نفسه متعدد الزوايا : الجسم طويل نسبيا . الوجه أسمر تقريبا . خال من العواطف غالبا . العقل نشيط تماما . إنه عقل لم يعلن بعد عن كثير من محتوياته .

وهو إنسان من الذين تختلف معهم كثيرا ، وتحترمهم دائما . وتقل دائرة الخلاف تماما كلما كان القانون هو موضوع المناقشة . ولذلك فسوف أسأله فورا : أنت تخصصت فى فلسفة القانون .. أليس كذلك ؟ ما هى إذن فلسفة القانون ؟

أجاب الرجل : قبل فلسفة القانون هناك أولا النظرة العلمية للقانون . إن الأسلوب العلمى لبحث أى موضوع يقتضى مبدئيا الربط العالمى للظواهر . مثلا .. أنت يتعذر عليك فهم فيضان النيل فى القاهرة فى شهر سبتمبر كل عام ما لم تدرس حركة الرياح فوق المحيط .. وما تحمله من سحب كثيفة على جبال الحبشة وهضبة أوغندا ، حيث تتساقط الأمطار هناك بغزارة . ثم تتجمع مجارى المياه وتظل تتدفق إلى أن تصب فى مجرى نهر النيل الممتد إلى ساحل البحر الأبيض . فظاهرة الفيضان التى تراها فى القاهرة تتوقف إذن على ظواهر أخرى عديدة . أهمها سقوط الأمطار على بعد أربعة آلاف

كيلومتر جنوبا ، ثم التكوين الجغرافى من خط الإستواء إلى البحر الأبيض ، ثم طبيعة المياه فى الاندفاع... إلخ .

«.. ونفس الحال نراه بالنسبة إلى الظواهر الاجتماعية . فالإنسان يولد فى مجتمع . فكره وعاداته وأخلاقه مرتبطة بظروف هذا المجتمع . ولا تفسير لتصرفات الإنسان إلا بالرجوع إلى ظروف هذا المجتمع . وبالنسبة للقانون ، فإن هذا معناه ضرورة الربط بين القانون من جهة ، وبين الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والعلوم السياسية من جهة أخرى . فالقانون وليد لظروف اجتماعية متشابكة» .

قلت : ما زال السؤال مطروحا .. تعريف فلسفة القانون .

أجاب الدكتور ثروت أنيس الأسيوطى مسترسلا : «إن الفلسفة أصلا هى علم العموميات . فهى تهتم بمعرفة الأصول الأولى للأشياء وأسبابها . وفلسفة القانون – مثل كل فلسفة – تهتم بدراسة القانون كظاهرة تحكمها أسباب عامة مشتركة فى تطورها . فالفلسفة هنا تهتم بما هو كائن .. لكى تصل بعد ذلك إلى ما يجب أن يكون . إنها تهتم أولا بنشأة القانون ، ثم بغايته ، ثم بطرق تفسيره وتطبيقه» .

قلت : حسنا . نبدأ إذن من النقطة التالية .. لماذا نشأ القانون أصلا ؟

أجاب بعد صمت : «هناك رأيان فى هذا الصدد . أصحاب الرأى الأول – وزعيمهم فقيه إيطالى اسمه سافينى – قالوا إن القانون مثل اللغة ، يرتبط ارتباطا عضويا بطبيعة كل شعب من الشعوب . إنه يتكون بطريقة تدريجية غير محسوسة ، مستندا إلى الاقتناع العام من جانب الشعب .. مستقلا عن الاختيار الحر لكل فرد . فالقانون ينشأ أولا فى شكل عرف من خلال العادة والإيمان الشعبى ، ثم يتبلور عن طريق علم القانون ..

«.. وهناك رأى آخر مضاد فى تفسير نشأة القانون . الرأى يقول إن القانون يرجع فى نشأته إلى عوامل مادية لا إلى عوامل مثالية . فالقانون ليس وليد اقتناع الشعب ، بل هو يفرض عليه بالقوة . القوة ليست فقط مادية أو عسكرية ، بل هى أساسا قوى اقتصادية وسياسية . وإذا استخدمنا التعبيرات الحديثة قلنا .. إن القانون تفرضه مراكز القوة على الشعب لخدمة مصالح الطبقة الحاكمة ..

«وبالطبع أعتقد أن الرأى الأخير هو الصحيح . وخذ مثلا على ذلك فى العلاقة بين المالك والمستأجر . إننا نلاحظ أنه فيما مضى كان ملاك العمارات يتحملون ثمن المياه التى

يســتهلكها المســتأجر . ولكن فى معظم العمارات الحديثة أصبح المستأجر هو الذى يتحمل ثمنها . هل هذا التحول نشــأ نتيجة اقتناع المســتأجرين به ، أى نتيجة للعرف كما يقول أصحــاب الــرأى الأول ؟ طبعا لا . وإنما نشــأ هذا التحول نتيجة لوجود أزمة مســاكن .. جعلــت المســتأجر يتعرض لحالة ضغط اقتصادى من جانب المــلاك .. ومن ثم فإنه مضطر لتحمل ثمن المياه ، وإلا فلن يحصل على الشقة التى يحتاج إليها ..

«.. فالخلاصة إذن هى أن القانون يفرض على الشعب وهو فى ذلك يعبر عن مصالح الطبقة الحاكمة ، وعن مصالح مراكز القوة» .

قلت : وكيف يمكن أن يصبح القانون معبرا فعلا عن مصالح الشعب ؟

أجاب بســرعة : «لا يمكن إلا إذا أصبح الشــعب نفســه هو مركز قوة ، بحيث يطغى على مراكز القوى الأخرى».

❑❑❑

ويدق جرس الباب فى منزل الدكتور ثروت أنيس الأســيوطى .. ومن ثم فالحديث معه يتوقف مؤقتا . ولكن هذا لايمنع بالطبع من الحديث عنه . فدراســة حياته يمكن أن تضع لهــا عنوانــا من نوع (كيف تقاوم ظروفا أقوى منك وأضعــف من إرادتك) . أو لنقل (كيف تصعد من القاع إلى القمة فى زمن قياسى) .

ففى حياة الدكتور ثروت أشــياء كثيرة تستحق الحديث .. مع أنه يخفيها عن كثيرين من أصدقائه . من ذلك مثلا أنه اضطر إلى العمل فى مطلع حياته بجانب دراسته . التفسير اقتصادى . كالتفسير الذى يؤمن به بالنسبة للقانون . لقد اضطر إلى العمل صبيا فى شركة المحلة الكبرى للغزل والنسيج بيومية قدرها ثلاثة قروش ونصف القرش . كان ذلك فى سنة ١٩٤٠ . ثم فصل طبعا عندما اكتشف أحد مفتشى الشركة صغر سنه .

وفى ســنة ١٩٤٤ كان طالبــا بالتوجيهية (الثانوية العامــة) واضطر أيضا للعمل خلال دراســته . أعمــالا كثــيرة . من بينها مثلا صبى بقال . عامــل فى محل تجارى . مدرس خصوصى . ومع ذلك فقد نجح فى نفس السنة وكان ترتيبه الأول على جميع طلبة الثانوية العامة فى (القطر المصرى) . فى تلك السنة حصل على مكافأتين ماليتين نتيجة تفوقه . مجموعهما ٨٠ جنيها . إحداهما من وزارة المعارف .

ولكنه لم يلتحق بالجامعة فور حصوله على شهادة التوجيهية . لقد انقطع عن الدراسة لمدة أربع سنوات . حاجته إلى العمل هى السبب أيضا . ولكنه عندما التحق بجامعة القاهرة حصل منها على ليسانس الحقوق (١٩٥١) بدرجة الامتياز . ثم سافر فى بعثة دراسية إلى ألمانيا الغربية .. وحصل على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة ميونيخ (١٩٥٧) . بعدها بسنتين حصل من القاهرة على الدكتوراه مرة ثانية مع مرتبة الشرف الأولى . ثم سافر فى بعثة دراسية إلى أمريكا . من هناك حصل على درجة الأستاذية فى فلسفة القانون من جامعة نيويورك .

□□□

قلت له : ماهى أسباب تفوقك العلمى ..فى رأيك ؟

وابتسم الرجل . لا إجابة .

إذن سأجيب أنا بدلا منه . إنه : الهدف المقرر مقدما .. زائد الصبر الموجود دائما .. زائد الاستمرار . إن ساعات تفرغه للقراءة تصل إلى ثمانى ساعات يوميا أيام عمله . فى الإجازة الصيفية يرتفع المعدل إلى ١٦ ساعة يوميا . ست عشر ساعة من القراءة كل يوم .. تصور ؟ (وعندما يقل المعدل عن ذلك أشعر بقلق على نفسى) . إان مكتبته الخاصة فى منزله تضم خمسة آلاف كتاب . مكتبة أنيقة .

والواقع أن صبره فى القراءة له جذور فى حياته . وخلال سنتى دراسته فى أمريكا كان يقضى وقته يوميا فى مكتبة جامعة نيويورك . فى الصباح يأخذ معه حقيبة فيها زجاجة لبن وساندويتشات .. ثم يجلس فى المكتبة من الثامنة صباحا إلى الحادية عشرة مساء . قراءة بلا انقطاع . وكانت النتيجة هى كتاب من تأليفه بعنوان «نشأة المذاهب الفلسفية وتطورها» . كتاب ضخم . استعان فى تأليفه بـ ١٢٠٠ مرجع أجنبى بثمانى لغات . تصور ؟ (أعرف أساتذة جامعة فى مصر مراجعهم الوحيدة فى تأليف كتبهم هى مقالات الصحف .. العربية) .

المهم .. نعود إلى القانون .

فمن الأقوال المشهورة فى التاريخ قول أحد الفلاسفة : على الشعب أن يناضل من أجل قانونه .. تماما كما يناضل من أجل الدفاع عن أسوار مدينته .

وآخر كان يقول : إن الشعب الذى يسكت على الاعتداء على قوانينه .. إنما يوقع بيديه على قرار إعدامه .

أما بسكال فيقول : العدل بغير القوة عجز . والقوة بغير العدل طغيان . فيجب جمع العدل مع القوة .. بجعل العادل قويا ، والقوى عادلا .

وقبله قال فليتشر : لا تخبرنى بماذا يقول القانون . أخبرنى بماذا يقول الناس عن القانون .

❑❑❑

وأسأل ثروت أنيس الأسيوطى : هل تعتبر القانون قانونا .. حتى ولو كان لايطبق ؟

أجاب بسرعة : «لا طبعا . فالعبرة بالتطبيق . وإلا فلن يساوى القانون أكثر من ثمن الورق الذى كتب عليه» .

قلت : لماذا اعتبر كبار المفكرين دائما أن حماية القوانين من الاعتداء عليها هى واجب الشعب بأكمله ؟

أجاب : «لأن الشعب هو الذى سيخسر من هذا الاعتداء» .

قلت : حسنا . هذا يفتح أمامنا موضوعا جديدا .. ما هى وظيفة القانون أصلا ؟

استوى الرجل بقامته فى كرسيه . قامة صلبة . بعد لحظات أجاب : «القانون دائما فى خدمة الطبقة الحاكمة . فوظيفته خدمة مصالح الطبقة الحاكمة . ووظيفة القانون تختلف باختلاف هذه المصالح . وباختلاف القوة الاقتصادية المسيطرة على المجتمع .. يختلف القانون . مثلا .. الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر كانت لخدمة الطبقة البورجوازية وضد طبقة الإقطاع . وبالتالى فإن مجموعة قوانين نابليون التى صدرت فى فرنسا سنة ١٨٠٤ كانت مهمتها حماية الطبقة البورجوازية . فهى تنص مثلا على أن الملكية الخاصة حق مطلق . وهى تنص على أن العقد شريعة المتعاقدين ؛ فلا يضار المشترى من أية ظروف يتعرض لها البائع بعد إبرام العقد . وهى لا توجب المسئولية إلا حيث يكون هناك خطأ . فالعامل مثلا لا يحصل على تعويض عن إصابته فى المصنع إلا إذا ثبت وجود خطأ شخصى من جانب صاحب المصنع . طبعا هذا صعب .. إن لم يكن مستحيلا .. فى التطبيق ..

«.. وباختصـار ، فالقانـون فى المجتمع يخدم الطبقة الحاكمة . فى عصر الاقطاع كان فى أوربا تحالف بين رجال الدين والاقطاع . ولذلك كانت جرائم الدين هى أكبر الجرائم . فى عصر الرأسمالية يسـيطر الرأسماليون على الحكـم . لذلك فجرائم الاعتداء على الملكية الخاصة هى أهم الجرائم . فى المجتمع الإشـتراكى الشـعب هو صاحب السلطة . ولذلك فالجرائم الاجتماعية الموجهة ضد المجتمع كله هى أهم الجرائم» .

قلـت : هـل تضرب لى أمثلة على الفـارق بين وظيفة القانون فـى المجتمع الرأسمالى ووظيفته فى المجتمع الاشتراكى ؟

قال : «طبعا . فى المجتمع الرأسمالى جرائم الاعتداء على الأشخاص والأموال هى أهم الجرائم . خذ السـرقة مثلا . إن أقل حادث سـرقة يعاقب عليه الجانى بالسـجن سنتين على الأقل . فالقانون هنا ينظر للسارق باعتباره معتديا على حق من الحقوق الأساسية التى يحميها ، وهو حق الملكية . أما فى المجتمع الاشـتراكى فتصل عقوبة السـرقة إلى حدها الأدنى ، لأن القانون هنا يرى أن الجانى ما كان ليسرق لولا حاجته . فالمجتمع يعتبر أن علاج مشكلة الجوع هى مسئولية الشعب كله ، فلا يتحمل نتيجتها شخص واحد ..

«.. مثل آخر من مجتمعنا نحن : الأشخاص الذين حجزوا سيارات (نصر) لدى شركة النصر للسيارات . ثم مرت سنوات دون أن تفى الشركة بالتزامها بتسليم السيارة . لو أننا فى مجتمع رأسمالى .. فإن الشركة ستعتبر مسئولة عن تسليم السيارات للحاجزين بمقتضى العقد تحت أى ظرف من الظروف ، حتى ولو أعطتها الدولة العملات الصعبة اللازمة لها خصما من الرصيد المخصص لاستيراد المواد التموينية للشعب . أما فى المجتمع الاشتراكى فالعقـد ليس مقدسـا فى حد ذاته ، ولكنه أداة فى تنفيذ خطـة التنمية ، فيخضع بالتالى للظروف التى تتأثر بها الخطة . فإذا تغيرت أولويات الاستيراد ، بحيث خصصت العملة الصعبة لاسـتيراد الاحتياجات الأساسية للشعب كله – دون الإحتياجات الكمالية لبعض أفراده كالسـيارات – فإن الشركة لا تكون مسئولة عن عدم تسليم السيارات للحاجزين فى المواعيد المقررة» .

قلت : فى تفسيرك لقوانين كثيرة تبدو ميالا لتفسير بعضها – كالقانون التجارى مثلا – على أساس الصراع الطبقى .. أليس كذلك ؟

أجــاب الدكتور ثــروت : «فعلا . بل إنني أصل إلى أبعد مــن ذلك ، فأطالب بضرورة إلغــاء القانــون التجارى أصلا . إنه قانون طبقي . إنه تابع للنظرة الرأسمالية للقانون . لقد نشأ في القرون الوسطى من خلال الصراع الطبقى الذى احتدم بين الإقطاع والبورجوازية .. لقد خص التجار أنفسهم بقانون يحكم علاقاتهم أيام الصراع الطبقى الرهيب فى أوربا . ثم أخضعوا الشــعب كله لهذا القانون حينما يتعامل مع التجار . ولقد ألغى القانون التجارى فــى بــلاد كثيرة ، حتى فى بعض الدول الرأسمالية . ومن ثم فما زال رأيى فيه كما هو .. قانون طبقى» .

قلت : لماذا يقولون عنك إنك يسارى ؟

أجاب : «المســألة ليســت يمينا أو يسارا . المســألة هى : البحث عن الحقيقة . وهذه مشكلة أبدية» .

❑❑❑

ونعود إلى القانون .

إن أهــم كتــاب ألفه ثروت أنيس الأســيوطى حتى الآن هو «نشــأة المذاهب الفلســفية وتطورهــا» . أهــم كتاب .. بالمقاييس العلمية على الأقــل . فلقد أحدث ظهور هذا الكتاب ضجة علمية فى معظم الدوائر القانونية الكبرى فى العالم .

قالــوا عنــه فى اليونــان : إنه كتاب يفتــح آفاقا واســعة لأول مرة فى نطاق فلســفة القانون .

وقالوا عنه فى ايطاليا : إنه كتاب يذكرنا بأبحاث ونظريات العالم الإيطالى الكبير فيكو (وهو فقيه ايطالى له مكانة هناك كمكانة ابن خلدون عند العرب) .

وقالــوا عنه فى فرنســا : إن المرء حينما يقرأ كتاب الأســيوطى يفاجأ بغزارة معلوماته ودقتها خاصة بالنظر إلى ضخامة موضوع البحث وتعدد اللغات التى يســتخدمها والعقبات التى يتناولها منذ حمورابى إلى اليوم .. والواقع إن نظرية النسبية التى يعتنقها الكتاب هى النظرية الصحيحة الوحيدة التى تمكن من فهم أى فلسفة .

❑❑❑

قلت لثروت أنيس الأسيوطى : ماهى نظرية النسبية التى تعتنقها ؟

أجـاب الرجـل : «ملخصها أن القانون نسـبى وليس مطلقـا . إن النار تحترق بنفس الطريقة عند الفرس وعند الإغريق . القانون ليس كذلك . إنه نسبى . بمعنى أنه يعبر فقط عـن ظـروف المجتمع الذى يخاطبه ، والعصر الذى يصدر فيه . ولذلك فهناك مدرسـتان فى تفسـير القانون . مدرسـة نسميها علميا مدرسة (الشرح على المتون) .. أى هؤلاء الذين يفصلـون بـين مبادئ القانون وواقع الحياة . وتكتفى فى تفسـير القانون بشـرحه اللفظى والشكلى . ومدرسة أخرى - هى الصحيحة - تؤمن بضرورة الربط بين القانون من جهة، وبين الاقتصاد والاجتماع والفلسـفة والعلوم السياسـية من جهة ثانية . إنها ترى القانون نتاجا للواقع . ومن ثم فهى تدرس الواقع أولا لتفسر القانون بعد ذلك» .

❑❑❑

حسنا . نعود إلى الواقع .

والواقـع هنا هو مصر . فلو أخذنا معدل خريجى الجامعات المصرية كمقياس ، لوجدنا أنـه من بين كل ١٥ ألف مواطن يعيشـون الآن فى مصر هناك واحـد فقط يفهم القانون . أما الذين ينفذون القانون فعلا فأقل من ذلك كثيرا .

وأسـأل ثروت الأسـيوطى : هل أنت راض عن الأسـلوب الحالى فـى تدريس القانون بمصر ؟

أجاب الرجل بكلمات مبللة بالأسـف : «إن المشكلة الرئيسية فى التعليم الجامعى هى ضخامة عدد الطلبة من ناحية ، وقلة عدد الأساتذة من ناحية أخرى» .

قلت : لو كنت تنادى بتخفيض عدد الطلبة فأنت مخطئ .

أجـاب :«لا . ولكننـى أنـادى بزيادة عدد الأسـاتذة . لأن الوضع الحـالى معناه أن المحاضرات أصبحت مجرد حصص استماع».

قلت : بعيدا عن الجامعة .. هل تعلم أننى أختلف معك فى أشياء كثيرة ؟

- أعلم .

- ألا يضايقك ذلك ؟

- بالعكس .

- إذن .. هل تطبق ذلك على طلبتك ؟

– فعلا . إننى أكون سـعيدا لو عارضنى طالب فى مسـألة علمية . وأكون سـعيدا أكثر لو تأكد صوابه وثبت خطئى.

– هل تعتبر نفسك ناجحا ؟

– (بابتسامة) .. لا تعليق .

– ما هو مقياس نجاح الأستاذ الجامعى ؟

– رأى طلبته فيه .

– هل تتعمد التواضع هنا ؟

– لا . أنا أتعمد الحقيقة .

– ما الذى ينقص دارسى القانون فى مصر ؟

– أن يقـرأوا فـى علوم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ على الأقل . فهذا هو الحد الأدنى اللازم لدراسة القانون .

– ما هو مشروعك القادم ؟

– استكمال سلسلة كتب عن نظام الأسرة فى العالم ، بهدف التوصل إلى نظرية شاملة لتطور الإنسانية .

– متى تنتهى من ذلك ؟

– بعد ١٠ سنوات على الأقل .

– هل تؤيد ، أو تعارض ، استقلال القضاء ؟

– طبعا أؤيده .

– ولماذا (طبعا) هذه ؟

– لأن استقلال القضاء هو الضمان الوحيد لتنفيذ القانون بنزاهة .

❑❑❑

والأسيوطى معه الحق .

فالقانون هو قاموس بشروط الحياة فى المجتمع . أو – باختصار – هو تسجيل لعلاقات القـوة فـى المجتمع . وكلما كان الشـعب أكثر قوة . كان القانون أكثـر عدلا . والقضـاء أكثر نزاهة .

وللاختصار مرة أخيرة : إن تاريخ البشــرية تلخصه هذه الحقيقة .. إن الإنســان يعيش فى محاولة مستمرة لتأميم القانون . لجعله ملكية عامة . لا فرد .. لا حزب .. لا سلطة . الشعب فقط هو الذى يجب أن يخدمه القانون . الحق فقط هو المعيار .

كافحت الإنســانية طويلا لتحقيق هذا الهدف . ويبدو أن الكفاح سيســتمر لفترة طويلة قادمة ، دون نتيجة حاسمة.



حسن ..
فى القفص

[مبدئيا : بطاقة هوية . الإسـم : حسـن هيرمان رو . اسم ولى الأمر السابق : هيرمان رو . اسـم ولى الأمر الحالى : عبد السـلام عبـد الغنى . العمر : ١٣ الهوايات : مشـاهدة الأشـكال الغريبة التى تسـمى نفسـها (بنى آدم). اسم الزوجة : حسنية . اسم الشهرة : شيتـا . فلسفته فى الحياة : بعض الناس لا حيلة لهم فيما هم عليه . مشكلته فى الحياة : ارتفاع سعر الفول السودانى . رأيه فى مشكلة التليفونات: هع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع . أحلام لا يفكر فيها : أن يحقق لـه مكتب التنسيق رغبته فى دخول كليته المفضلة بالجامعة.]

– ١ –

الإنسان حيوان غادر .

– ٢ –

الحيوان إنسان ناقص . إنسان لم يتم . «حسن» ليس إنسانا . «حسن» هو مجرد شمبانزى . إنه مجهول الأب . مجهول الأم . ولكنه معروف الجنسية . معروف تقريبا . لقد ولد حيث يولد كل شمبانزى . ولد فى غابات افريقيا . من هناك تم اصطياده وترحيله إلى ألمانيا .

– ٣ –

آخر ذكريات «حسن» مع الغابات كانت فى ذلك اليوم الذى وقع فيه فى الأسر . إنها معركة دارت بين الإنسان ، وبين قافلة من الشمبانزى . كان «حسن» واحدا منهم . معركة

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٢/٨/٢٦

رأى فيها حسن كل رفقائه يسقطون قتلى .. فيما عداه . فى ذلك اليوم - منذ ١٣ سنة - لم يكن اسمه «حسـن» . ولم يكن يعلم أن هدف الإنسـان من اصطياده هو أن يتفرج عليه . هكذا وصل «حسن» إلى أيدى متعهد فى ألمانيا الغربية اسمه «هيرمان» . ومن هناك اشترته حديقة حيوان الجيزة بالقاهرة ، التى قررت على الفور أن تسميه : «حسن» .

- ٤ -

جاء «حسن» إلى القاهرة وعمره ست سنوات . الآن ١٣ سنة . عند وصوله لم يكن يعرف أحدا فى القاهرة . الآن : مازال لا يعرف أحدا فى القاهرة .

- ٥ -

عندما دخل «حسن» إلى قفصه فى حديقة الحيوان بالجيزة ، كان التاريخ هو نوفمبر . من يومها والحياة تسـير به .. نوفمبر بعد نوفمبر بعد نوفمبر . فى السـجن يحتاج الإنسان إلى نوفمـبر واحـد ، أو ينايـر واحد ، أو يوليـو واحد .. لكى يموت حولـه وفى داخله كل شـىء طيب . يموت الوفاء والتفاؤل والأمل . يموت المسـتقبل . تموت الابتسـامة . تموت الحياة .

أن «حسـن» يسـير فى الحياة بمجرد ثلاثة أصدقاء .. أحدهم سـجانه . إنه لايعيش حياته بدافع من الرغبة ، ولكن بحكم الغريزة . إنها الغريزة التى تشـدنا جميعا إلى حياة لا نرضاها .

أن رفيقة «حسـن» فى داخل القفص هى «حسـنية» . لقد تعرفا ببعضهما فى القاهرة ، وهنا فى داخل هذا القفص . لقاء لم يتم وسط غابة .. ولكن فى داخل قفص . لم يتم وهما طليقان .. ولكن بعد أن أصبحا سـجينين . لم يتم بحكم الرغبة .. ولكن بمنطق الضرورة . مسألة سوف يكون لها تأثير خطير تاليا على العلاقة بينهما .

- ٦ -

تقول الأوراق الرسمية إن «حسن» قضى فى هذا القفص حتى الآن سبع سنوات . ولكن الواقع إنه منذ دخل هذا القفص ، هذا السجن ، فإنه لم يعد له عمر . له فقط : أقدمية . أقدميته الآن ٨٤ شهرا وأربعة عشر يوما . هذه الأقدمية تستطيع أن تعتبرها موتا افتراضيا . أو تعتبرها حياة اسمية . مسألة تتوقف على وجهة نظرك .

إن وجهة نظر «حسن» نفسه واضحة .. ليس من كلمات ينطق بها .. ولكن من حركات يصدرها . فبصرف النظر عن المكان الذى نقف نحن فيه – نحن المتفرجين – داخل أو خارج القفص .. فإن «حسن» يقف غالبا على بعد نحو عشرة أمتار منا . إنه يحتفظ بهذه المسافة غالبا ، سواء اقتربنا نحن منه ، أو ابتعد هو عنا . حكمة . فى الواقع انها منتهى الحكمة من الشمبانزى «حسن» .. أن يحتفظ دائما بمسافة بينه وبين الناس . ففى هذه الأيام من الأفضل كثيرا أن نرى بعض الناس من بعيد ، من مسافة ، حتى لا نبصق عليهم .

– ٧ –

الناس في داخل حديقة الحيوان يتزاحمون حول قفص «حسن» . يتزاحمون ويتفرجون . إننى لا أستطيع أن أحكم بدقة : أيهما يتفرج على الآخر ؟ الناس يتفرجون على «حسن».. أم «حسن» هو الذى يتفرج عليهم ؟

من خلال الزحام والمتفرجين يلتقى اثنان من الأصدقاء . من طريقتهما فى الترحيب ببعضهما اكتشفت أنهما يلتقيان بعد غياب طويل . إن الحوار بينهما يدور سريعا ومتلهفا ومتتابعا :

– إيه يا راجل ؟ والله زمان .. فين أراضيك دلوقت ؟

– أنت ما تعرفش ؟ فى وزارة الزراعة ..

– يعنى اللى فى وزارة الزراعة .. يختفى كده ؟

– أبدا والله إحنا تحت النظر ..

– تكونشى اتجوزت ؟ آه .. والله صحيح .. باين فى إيدك وعلى وشك إنك متجوز .. إنما .. أنت عجزت كده ليه ؟

– يا عم .. هو أنا زيك ؟ داير على حل شعرى ؟ أنا – الحمد لله – متجوز ومبسوط ٢٤ قيراط .. عقبالك ..

– والله يا سيدى أنا مستعد .. بس هى فين العروسة ؟

– أنا عندى لك عروسة ..

– مين ؟

– مراتى !

- ٨ -

الحارس على قفص «حسن» يتكلم .

يقول عم عبد السلام : شوف يا بيه .. الحيوان ده عقله صغير .. لازم الواحد ياخده على قد عقله . يعني مثلا.. الواحد ما يضربوش ، ما يزعلوش ، مايقولش له كلمة تضايقه.. حركة تنرفزه ..

«.. عندك مثلا «حسن» و «حسنية»..

«.. دول وصلوا هنا وعمرهم ست أو سبع سنين . أنا قايست وقعدت معاهم . عرفت إنهم كويسين . علشان كده تربيتي لهم جابت نتيجة . طبعا ساعات الحيوان من دول ما يعرفش مصلحته . يعني مرة كان «حسن» عيان قوى .. فاضطر الدكتور يقرر له ١٥ حقنة.. كل يوم طبعا أنا اللي كنت أحط الجنزير في رقبته لغاية ما ياخد الحقنة . أول ما خلصت الحقن .. بصيت لقيته مسكنى ، وهات يا ضرب بالأقلام ! ها أعمل عقلي بعقله ؟ مهما كان .. ده شمبانزى . عارف لو «حسنية» هي اللي عملت كده في .. والله ما كنت سكت لها . «حسنية» دى أصلها شرسة . عمرها ما اتربطت في جنزير . وبعدين يا بيه .. سيادتك عارف .. عرق النساء ده مالوش أمان ..

«.. عندك مثلا القرود اللي أدامك دول . قرود حبشي . عندنا منهم ثلاثة ذكور .. و١٥ ست . زى ما أنت شايف .. طول النهار خناقات مع بعض . ليه ؟ لأن كل واحدة عايزة تبقى هي البريمو عند الراجل بتاعها . بتيجي مثلا واحدة تلعب شوية .. تأكل بعقل القرد حلاوة . فالباقيين يغيروا . يعملوا إيه ؟ يتخانقوا معاها . يقوم القرد الراجل من دول يشخط فيهم . القرد الحمش يخوفهم ..

«.. ما هو يا بيه سيادتك عارف . كل البلاوى بتيجي من الستات . لو ما كانش فيه ستات .. كانت كل الرجالة تأكل في طبق واحد ..».

- ٩ -

الشمبانزى «حسن» يتأمل حصته من الطعام . الآن : إفطار . شاى باللبن . عيش .

- ١٠ -

«حسن» في جلسته هذه معفى من التفكير في مشاكل هامة وخطيرة .

معفى من : التفكير فى الفواتير التى تزورها مصلحة التليفونات .

ومن : حل مسابقة القرارات المتقاطعة التى نسميها قرارات وزارية .

ومن : متابعة مشكلة فايزة أحمد ومحمد سلطان .

ومن : تطورات الخلاف بين محمد الموجى وبليغ حمدى .

ومن : نقد برامج التليفزيون .

ومن : سماع برنامج ما لا يطلبه المستمعون فى الإذاعة .

ومن : سماع أغنية الطشت قاللى .

– ١١ –

إشاعة لم يسمع بها «حسن».. مع أنها تتردد فى حديقة الحيوان هنا منذ ١٥ سنة :

(كان فى الحديقة أخصائى اسمه «مكارى» . إن مكارى ربطته صداقة طويلة بالشمبانزى السابق «مرزوق» . وفى مرة سافر مكارى فى مهمة إلى مدينة بنى سويف بالصعيد لمدة ثلاثة أيام . فى اليوم الثالث كسر الشمبانزى «مرزوق» قفصه مهتاجا بشدة وخرج مذعورا مفاجئا الجميع باندفاعه فى طريق محدد ، ومتعرج ، تبين سريعا أنه يؤدى إلى مكتب مكارى . وفى لمح البصر .. دخل المكتب وعاث فيه فسادا ومن بين ما تناوله من فوق المكتب ، وبعصبية ، زجاجة حبر . لقد هزها بشدة ثم أسقطها على المكتب فانسكب منها الحبر على الأوراق . فى تلك اللحظة هدأ فجأة ، ثم عاد بخطوات بطيئة ، وباختياره ، لكى يدخل إلى قفصه . عاد حزينا ومرتجفا وممتنعا تاليا عن تناول الطعام . حدث هذا فى الحادية والربع من صباح اليوم ـ الأربعاء . بعد ٨ ساعات تلقت حديقة الحيوانات بالجيزة برقية تلغرافية من بنى سويف . برقية قصيرة تقول : توفى الأستاذ «مكارى» اليوم – الأربعاء – فجأة . الوفاة حدثت فى الحادية والربع صباحا) .

– ١٢ –

تركت قفص «حسن» و «حسنية» وتجولت بين الأقفاص الأخرى بالحديقة . فى داخل القفص – كل قفص – يتم كبت التصرفات التى ورثها الحيوان عن سلالته . إن الحيوان السجين هنا لا يمضى حياته يوما بيوم . ولا ساعة بساعة . ولا حتى دقيقة بدقيقة . ولكنه يقضيها ثانية بثانية . فمن داخل القفص أستطيع أن أحس أن الزمن لا يمر . إنه

يكرر نفســه . يدور حول نفســه . مجرد دوران ممل رتيب . فى داخل الأســوار ، داخل السجن ، لاشيء يتحرك .

إن الحيوان أمامي قد يسـلى نفســه بالتفرج على الجمهور أمامه . ولكن الجمهور ليس دائما عنصرا مسليا . إنه أحيانا ، بل غالبا ما يكون ، عنصرا مؤذيا . إن هذا يجعل دنيا الحيــوان هنا أكثــر تعقيدا . إن الحيوان يحاول أن يصبر علــى الناس – مع المتفرجين – ولكــن.. حتــى الصبر له حدود . إن الشــمبانزى يقذفهم بالأشــياء حوله . الأســد يتبول نحوهم . إنسان الغابة يبصق فى اتجاههم . الببغاء تحاول عضهم . أما إذا لم يكن الجمهور مؤذيا .. فإن الحيوان يحاول أن يفعل العكس . يحاول أن يسليهم . إن هذا هو ما يجعل الدب الأسمر يقف على قدميه الخلفيتين ويلوح بمخالبه ويرقص بجسمه و .. النتيجة هى أنك تقذف له بالفول السودانى . إنه ـ الدب ـ لم يأت فى الواقع بحركات خارقة . ولكن ربما يساعده هذا على أن يقضى اليوم وينسى الوقت ويستهلك الزمن .

– ١٣ –

الطعام لحسن . برتقال وبطيخ وعنب ومانجو وبلح و ..

١٠٠ جرام فول سودانى .

١٠٠ جرام جزر .

٢٥٠ جرام أرز محلى بالسكر .

٢٥٠ جرام عيش .

٢ كيلوجرام ونصف موز .

– ١٤ –

حوار آدمى أمام قفص «حسن» :

الإبن يسأل : مش دى شيتا يا بابا ؟

الأب يرد : لا .. دى شمبانزى .. شيتا لســه ما ظهرتش .

الأم تتدخل : يعنى يا خويا إيه الفرق ؟ (ثم للإبن) يا ضنايا .. هى دى شــيتا اللى بتطلع فى السيما مع طرزان .

الأب : يا ستى ما تمليش مخ الولد بكلام غلط من دلوقت ..

الأم : يا خويا إنت دايما تكسر بخاطر الولد ؟ والنبى ده حايطلع أشطر منك .. وبكره تشوف ..

الأب : يا ستى ، أشطر أو مش أشطر ، المهم .. ده شمبانزى ..

الأم : إنت بتقول ان ابنك شمبانزى ؟ حد كان قال لك تخلفه ؟

الأب : يا ستى آهى غلطة .. كان يوم أغبر .. يوم واحد أخدته إجازة .. خلفتى لى فيه ولد !

- ١٥ -

الشمبانزى «حسن» يجلس صامتا داخل القفص .

حسن لم يكن هو الذى قال : بعض الناس لا حيلة لهم فيما هم عليه . أشرار . غادرون . كاذبون .

منافقون . ممثلون . نعم . ولكن : لا حيلة لهم فيما هم عليه .

- ١٦ -

نوم الظهيرة .

- ١٧ -

«حسن» يخرج من حجرته إلى قفصه . إنه لم يفعل شيئا . مجرد الخروج والجلوس فى المؤخرة . الجلوس فى تأمل . إنه يتأمل فى مظاهر الحياة حوله . فى الناس . فى الحيوانات الأخرى . فى النباتات . وفى المتفرجين .

وفى : الشمس . الأطفال . الحشائش . الفول السودانى .

وفى : الأشكال الغريبة أمامه . التى تسمى نفسها .. بنى آدم .

وفى : الضحكات والصيحات التى يقذف بها المتفرجون عليه .

وفى : الهواء والأسوار والفراغ . إلخ . إلخ . إلخ . إلخ . إلخ ....

- ١٨ -

«حسن» ربما يسأل نفسه : لماذا يتجمع الناس أمامه ؟

«حسن» ربما يرد على نفسه : لأنهم رأوا ناسا آخرين يتجمعون أمامه .

- ١٩ -

«حسـنية» فى حالة ثورة . هيـاج وتوتر وثورة . إنها تخبـط الأرض بقدميها وتضرب الأسوار بذراعيها . إنها تنسحب من القفص إلى الداخل وهى فى هذه الحالة التى تنتابها على فترات متباعدة . هنا جاء دور عبد السلام . الحارس عبد السلام .

لقـد دخل الحارس إلى الحجرة الخلفية . وفى لحظة دخوله هدأت «حسـنية» قليلا . إنهـا فتحـت عينيهـا للحظة ، ثم أغلقتهما مـن جديد بعد أن ثبتـت وجهها فى اتجاه الحارس عبد السـلام . «حسـنية» أصبحت كما يبدو .. مطمئنة .. أو على الأصح .. فى طريقها إلى أن تصبح مطمئنة . لقد فتحت عينيها من جديد وباسترخاء أكثر وهى تنظر إلى عبد السـلام باهتمام . ربما بحذر . ربما بشـوق . ربما بقلق . ولكن فى جميع الحالات .. هى تنظر باطمئنان .

إن الفراء يكسو بطنها وجنبيها ، فى لون أسود لامع ، بعلامات صغيرة كثيرة كالقطيفة حول قدميها . إن ذيلها المموج هو أيضا أسود اللون وإن كان لامعا هو الآخر .

إن الحـارس يتقدم منها .. متأهبا لملاطفتها . إنها تهمهم وتزمجر وتسـتعد . إنه يبدأ فـى مداعبة هذا الشـمبانزى كما لو كانت أجمل امرأة فى العـالم (هل الفارق كبير ؟!) . إنه يداعبها بحركة هى فى نفس الوقت لطيفة وغرامية . يداعب جسـمها كله من الرأس إلى الذيل ، خادشـا الفقرات المرنة فى جسـمها الأسود . إن «حسنية» تلوح بذراعيها فى خلاعة ، وتضع شـيئا فشـيئا قليلا من اللطف فى عينيها . ان الحارس يداعبها مرة ومرة ومرة ومرة . وحينما داعبها للمرة الرابعة فإنها بدأت تلين شـيئا فشـيئا تحت تأثير هذا التملق المدهش . لقد أصدرت «حسـنية» واحدا من تلك الأصوات التى تعبر بها القطط عن متعتهـا . إن الفـارق الوحيد هو أن هذه الهمهمة التى تصدر من حلق «حسـنية» هى على درجـة مـن القوة والعمق بحيث أن صداهـا يتردد داخل الغرفة المغلقـة ، مثل الذبذبات الأخيرة لأرغن الكنيسة .

أما الحارس عبد السلام ، بعد أن رأى أهمية مداعبته ، كررها من جديد بطريقة يبدو أنها أدهشـت «حسـنية» وقلبتها . وحينما ابتعد عنها خطوتين ، فإنها قفزت إليه بجسم يهتـز ويترنـح .. فى خفة عصفور يحجل من غصن إلى غصن .. وبدأت تدلك نفسـها فى

قدميه ناظرة إليه بعينيها الواسعتين . عينان بدأ اللمعان فيهما يصبح أكثر نعومة . وهمهمة بدأت تخرج من داخلها فى صوت أقرب إلى صرير المنشار . تانى .. تانى .. تانى ..

إن «حسنية» تتصرف كما لو كانت تطلب من الحارس عبد السلام أن يداعبها من جديد . حاضـر . إنـه بدأ يداعبها – هذه المرة بشـكل مختلف . إنه يلعب فـى أذنيها . يداعب بطنها . يخدش رأسـها . يدغدغ جمجمتها . وهى – هى – بدأت تبدى مشـاعر الإمتنان لرجلها . لقد رفعت رأسها نحوه ، وبسطت رقبتها إلى الأمام ، وعبرت عن رضائها الكامل بالرقود عند قدميه . الآن هدوء وطمأنينة وثقة ورقة . لقد تحولت الشراسـة فى عينيها إلى هدوء وثقة . عينان أصبحتا مشحونتين الآن بكمية غامضة من النوايا الطيبة .

أخيرا صاح عبد السلام فى زميله محمد : هات الحقنة بقى على طول !

– ٢٠ –

القضبان تفصلنى عن «حســن» . من داخل القضبان يحس «حســن» بالتعاسة . تعاسة لا حدود لها ، وقضبان لا شرايين فيها .

ومع أن هناك أسبابا كثيرة لتعاسة «حسن» .. إلا أن هناك أسبابا أخرى مضادة تجعله يشعر بالسعادة . إنه – مثلا .. مثلا – ليس مضطرا للإجابة على هذه الأسئلة :

– هل يحقق له مكتب التنسيق رغبته فى دخول الكلية التى يفضلها فى الجامعة ؟
– هل يقف له سائقو التاكسيات ؟
– هل مات أوفقير وزير داخلية المغرب منتحرا .. أو مقتولا ؟
– هل توجد صراصير فى الكوكاكولا ؟
– هل هناك .. أو ليس هناك .. اتفاق بين الدول الكبرى على الدول الصغرى ؟
– هل ماتت المبادئ ؟

– ٢١ –

«حســن» حالته غريبة . «حسن» لم يمارس الجنس مع زوجته ـ المفروض أن «حسنية» زوجتــه – ولا مرة . منذ رآها داخل القفص منذ ســت ســنوات . وهو لايحس برغبة فى ذلك . إن المألوف هو أن بعض الحيوانات الأسيرة لاتنجب . حتى لو مارست الجنس فهى لا تنجب . ولكن .. تمتنع عن الجنس تماما ؟ تماما ؟

- ٢٢ -

بالقرب من قفص «حسن» و«حسنية» يجلسان : رجل وامرأة . إنهما فى ربيع العمر . إنهما يجلسان متجاورين على المقعد الخشبى . مقعد غير مريح .

إن الرجل قمحى اللون ضخم الشارب . فى الواقع إننى أندهش : أيهما خلقه الله قبل الآخر .. الرجل أم شاربه ؟

المرأة تجلس بجواره . تتكلم وتتكلم .. بينما هو يستمع . بعد دقيقة بدأ الرجل يسعل . سعالا أشبه بعلامات التعجب التى نكتبها على الورق .

إن المـرأة تفتـح حقيبتها وتخرج منهـا المرآة . إنها معجبه بشـفتيها . بوجهها الذى هو طويل وأبيض . بابتسـامتها المترددة على شـفتيها . شـفتان تكشفان عن أسنان بيضاء وكاملـة . أن عينيهـا بلون البندق (فاكر البندق ؟) . الفم عريض . رذاذ من النمش يغطى كتفيها وشىء من الخجل يغطى وجهها . خجل صناعى كما يبدو . تمثيل .. ربما .

أن المرأة تسأل الرجل : ايه أكثر حاجة بتحبها فى الدنيا ؟

أنه ينظر إليها بلطف ويقول : أنت ..

وقبل أن يراوده إحساس بالانتصار لأنه قال لها الإجابة الصحيحة فإنه يسألها : طيب وأنت ؟ ايه أكثر حاجة بتحبيها ؟

إنها تفكر لحظة وتقول : أنا .

- ٢٣ -

«حســن» و «حســنية» فى حالة غرام شـفوى . غرام مع وقف التنفيذ . إنهما يتبادلان النظـرات .. ربمـا أكثر .. لا أعرف بالضبط . كل ما أعرفه هو أنهما محرومان بالتأكيد من شىء هام : القبلة . نعم . الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف ما هى القبلة .

- ٢٤ -

«حسـنية» فى حالة توتر . لقد اقتربت من «حســن» . فى البداية حاولت أن تستفزه . الآن تقترب أكثر .. وأكثر . إنها تحاول أن تتملقه . تثيره . تغريه . لا .

- ٢٥ -

العصر . حمام لـ «حسن» .

- ٢٦ -

أمس قال لى الدكتور حسـن حافظ مديـر حديقة الحيوانات بالجيزة : «فى الحيوانات نجد الصراحة والوضوح والبسـاطة . فى دنيا الإنسـان نجد العكس . إنسـان يصادقك ثم يطعنك فى الظهر . إنسان يحبك .. ثم يغدر بك . مع الحيوان لايمكن . إنه دائما واضح . إنه لا يهاجم إلا فى حالتين اثنتين : الجوع .. والدفاع عن النفس . وحتى فى هذه الحالة الأخـيرة فإنه أحيانا ـ كالأسـد مثـلا ـ ينذر خصمه أولا . يا أخـى .. هو الواحد بيحب الحيوانات من قليل».

- ٢٧ -

الشـمبانزى «حسـن» فى حالة اعتكاف . لقد ترك القفص ودخـل إلى حجرته معتكفا وجالسـا وصامتـا . إنـه صامت كظلـه . حزين كعينيـه . عينان عميقتـين فى حزنهما بما يتجاوز قدرة وحق أى عينين فى العمـق أو الحـزن . عينان تتسـولان من أى إنسـان أن يفهمه .

وعندما دخل الحارس عبد السـلام إلى الحجرة نهض «حسن» نصف واقف .. فى شبه تحية منه للحارس . حقيقى .. جنتلمان . إن «حسن» ليس شاذا . ولكنه أيضا ليس حيوانا عاديا . بجسـم نحيف . بجلد خشـن أسمر . بوقار غير مقصود فى حركاته . إنه يوحى إلـى بأنه ينتمى إلى الندرة القليلة من الحيوانات التى يسـتطيع الإنسـان أن يتحدث إليها وهو مطمئن .

أننى أحيانا .. بينما أتبادل الحديث مع حارسـه .. أرى «حسـن» يقفز نحونا متابعا جزءا من ثرثرتنا . وبصرف النظر عن ما نناقشـه .. السياسـة .. الرياضة .. الضرائب .. حالـة الطقـس .. الغلاء .. أو حتـى الحياة عموما .. فإن رأى «حسـن» واحد فى جميع الحـالات . رأيـه هو : الصمت . أنه بين وقت وآخر قد يهمهم : هع ع ع ع ! وبهذه الـ «هع» يعتبر «حسن» أنه قد فسر كل شىء . وقال المختصر المفيد .

وحينما أنظر إليه محاولا اكتشـاف ماضيه .. فإنه لا يتحرك . إنه يحمل رأسـا ضخمة فوق كتفيه . وهو يكتفى غالبا بأن يهزها يمينا ويسـارا .. كما لو كان يخبرنى بأن الماضى هو الماضى .. وهو يفضل ألا يتحدث عنه . يوما مـا .. ربما . ولكن .. ليس الآن .

- ٢٨ -

ما هي بالضبط - بالضبط - أزمة السينما المصرية ؟

أن «حسن» لايعلق على هذا السؤال .. ولا على أى سؤال آخر .

- ٢٩ -

قصة حب ترددت طويلا فى حديقة الحيوانات . «حسنية» كانت فى قصة حب درامية مع حارسها . لقد ربطتها بحارسها قصة حب . علميا تعتبر قصة تآلف . بحيث أنه كلما كان يدخل عليها في القفص .. فإنها كانت تدور وتدور وتلف حول نفسها داخل القفص العريض الواسع . إن عينيها تدوران بسرعة أكبر من جسمها . عينان تدوران من الأرض إلى السقف .. ثم من السقف إلى الأرض .. بشكل متتابع وعصبى .

وعندما جلس الحارس - بلا خوف - إلى جانبها .. فإنهما بدآ يلعبان معا .. كالعادة . إنه يجذب أذنيها ويدلكهما بحرارة .. ضاغطا على الأجزاء الرقيقة فى جسمها . وهى - «حسنية» - كانت تتركه يفعل بها ما يشاء .

إن الحارس تعلم بالوقت والتجربة معنى كل انحراف فى صوتها .. وكل تعبير فى عينيها .. وكل نزوة فى تصرفاتها .

وفى مرة توقفت أصابع الحارس عن تدليكها . لقد توقفت لأنه انشغل بالنظر إلى سيدة رائعة الجمال تسير أمامه فى الحديقة . فى الواقع أن الحارس لم يكن ينظر . كان يحملق . إنه يحملق فى السيدة مأخوذا بجمالها .. منبهرا بطلعتها .. مسحورا بمشيتها .. البعض يقول : خلاعتها .

إن تنبيهات «حسنية» لم تجعله يفيق . إن همهماتها لم تجعله يستأنف التدليك .

وعندما أفاق الحارس من نوبة ذهوله بعد دقيقتين ونظر إلى «حسنية» .. محاولا أن يفهم سر اعتراضها .. فإنها تبادلت معه نظرة مشحونة بالمعاني. نظرة قاتلة . نظرة سحبت منها كل الثقة التى وضعتها فيه طوال سنوات وسنوات . أنها ارتجفت . أنها ارتعشت . وعندما نظر إليها من جديد وجد فى عينيها وميضا كالبرق . ثم : أغلقتهما .

عندما فتحت «حسنية» عينيها من جديد بعدها بلحظات بدت كالساعات .. لم تكن أبدا هى «حسنية» التى عرفها الحارس من قبل . لقد انتهى كل شىء .

إن كل شــيء تجمد عنــد تلك النقطة . إن قصة الحب الطويلــة .. أو قصة التآلف .. انتهت لنفس السبب الذى تنتهى عنده كل قصص الحب العظيمة . انتهت بسبب : سوء الفهم .فلســبب ما .. يشــك طرف فى خيانة الطرف الآخر . إن عزة النفس تمنعهما من الوصول إلى تفسير . إنهما يتشاجران ويفترقان بدافع من العناد والمكابرة .

ربما لو كانت «حسنية» امرأة .. لو كانت إنسانة .. فربما كانت تكفى لحظة واحدة ، أحيانــا نظــرة واحدة ، لكى ينهــار العناد وتســقط المكابرة . ولكن فى دنيــا الحيوان .. لا يمكن . من يومها .. لايمكن .

– ٣٠ –

سؤال محتمل من «حسن» : لماذا يرتبط الإنسان أحيانا بالحيوانات ؟ بالكلاب أو القطط مثلا ؟

إجابة محتملة من «حســن» : نحن نرتبط بالحيوانات أحيانا .. ليس لأنها مخلصة .. وليس لأنها صادقة .. ولكن لأنها : لا تنتقدنا .

– ٣١ –

اليوم هو الجمعة .

– ٣٢ –

الزحام حول «حسن» و«حسنية» وصل إلى أقصاه . أطفال وأمهات وآباء . شيوخ وشبان وأفندية .

مــن بين الأفندية واحد يريد أن يتســلى . لقد فكر قليلا .. ثــم اختفى . بعد دقيقتين عاد مع أصدقائه .. حاملا ساندويتشــا فى يده .. وقذف به إلى الشــمبانزى «حسن» داخل قفصه .

تناول «حسن» الساندويتش .. وبدأ يأكله . شكرا .

بعد لحظتين توقف الســاندويتش فى حلقوم الشــمبانزى «حســن» . إن جسمه يرتعش وينتفض .. عيناه تتسعان وتتسعان . شىء ما انحشر فى رقبته. شىء لا يريد أن يدخل إلى معدته .. أو أن يخرج من فمه ..

ماذا جرى ؟

ضحك الشــاب صاحب الســاندويتش لزميله قائلا : غريبة ! .. أنا حطيت له المسمار في الساندويتش .. وهو مش قادر يبلعه ؟ !

رجل يسأل الشاب بحنق وغيظ : وليه يا إبنى يعنى الأذية دى ؟ ليه حطيت له مسمار في الساندويتش ؟

رد الشاب : إيه يعنى ؟ آهى تسالى ..

- ٣٣ -

الإنسان حيوان غادر .

قضايا





إنها : مشكلة ..
أن نحب مصر

كانوا يقولون كثيرا : إن الفرنسى بمفرده شخص ذكى . وإذا اجتمع فرنسيان يبدأ النقاش .وإذا اجتمع ثلاثة .. تبدأ الفوضى .

أما الإنجليزى فهو بمفرده شخص غبى . وإذا اجتمع انجليزيان تبدأ الرياضة . وإذا اجتمع ثلاثة .. تبدأ الإمبراطورية البريطانية !

حسنا .. ماذا عن المصرى ؟

إن الذى قيل عن الفرنسيين والإنجليز كان فكاهة . الآن لا توجد فى فرنسا فوضى ، بل يوجد اتهام أوربى بأن فرنسا عاشت دائما تحت حكم الموظفين .. واتهام بأن بريطانيا أضاعت امبراطورية . بل إنه فى الشهر الماضى فقط صدر أحدث كتاب يحلل أسباب انهيار الإمبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس . وصدرت أيضا حلقات تليفزيونية تسجل ، بغل دفين ، أن مصر تحديدا هى التى دفنت الإمبراطورية البريطانية فى مياه قناة السويس سنة ١٩٥٦ . لقد جرى التراجع .. ومن يومها تستمر المراجعة ويتوالى توزيع قوائم الإتهام .

لكن .. ماذا عن المصريين ؟

هل المصريون هم الذين قال عنهم بعض العرب قديما : «قال العقل أنا لاحق بالشام .. فقالت الفتنة : وأنا معك . وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية .. فقالت الصحة : وأنا معك . وقال الخصب أنا لاحق بمصر .. فقال الذل : وأنا معك» .

هل المصريون هم الذين قال عنهم اللورد كرومر : «إنهم مسلمون وليس فيهم خواص إسلامية .. وأوربيون وليس فيهم خواص أوربية» ؟!

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٦/١٢/١٨ .

وإذا كان كرومــر إنجليزيا وعاش يحكم مصر ممثــلا للإحتلال البريطانى فيها .. فماذا عن الآخرين ؟

ماذا عن عمرو بن العاص فى وصفه لمصر : «نيلها عجب .. وترابها ذهب .. وأمراؤها جلب .. وهى لمن غلب» ؟!

ماذا عن أحمد شوقى ، أمير الشعراء ، الذى قال عن شعب مصر :

أثـر البهتـــان فيـــــه　　　وانطلـــى الـزور عليـــه
يا لـــــه مـن ببغــــــاء　　　عقلـــــه فـى أذنيـــــه
مــــلأ الجــــو هتافــــا　　　بحياتـــى قاتليـــــــه

وإذا لم يكن هذا هو معنى «المصرية» .. فماذا إذن ؟

هل المصرية هى الشعور بمركبات النقص كما كتب صبحى وحيدة فى سنة ١٩٥٠ ؟ هل هى الشـخص الفهلوى كما كتب حامد عمار فى ســنة ١٩٦٤ ؟ هل الإيمان بأن بلدنا هى «بلد الأخيار ومصر الأمصار» كما كتب عبد الله النديم فى أواخر القرن التاســع عشر ؟ هل هى «ابن البلد» الذى هو «ذكى ، إلا أنه جاهل .. وظريف ، سوى أنه مغرور .. يجود فى غير كرم ويمســك فى غير بخل ويتكلم بغير علم» كما كتب ابراهيم عبد القادر المازنى فى أواخر الأربعينات من القرن العشرين ؟

هل مصر هى العبقرية فى المكان كما يحللها الدكتور جمال حمدان فى كتابه الموسوعى ؟ أو أن مصر هى « مثل رائع للتقدم ، خطت فى سبعين عاما ما خطاه غيرها فى خمسمائة سنة» كما كتبت صحيفة «التايمز» البريطانية فى سنة ١٨٧٦ بالضبط ؟

هــل مصــر هى «تلك الخــبرة الضخمة والحكمــة العميقة التى يجــب أن نتعلم منها» كما كتب زعيم الهند الراحل جواهر لال نهرو ؟

أو أنها مليئة بالمضحكات كما قال الشاعر العربى الكبير المتنبى ؟

هــل مصــر هى تلك الحضارة العظيمة التى دافع عنهــا عباس محمود العقاد .. أو أنها ذلــك الوجــه الضاحك الباكى الذى يختلط فيه الرجــاء مع خيبة الأمل .. كما يرى فكرى أباظة ؟

فى أى إطار من هؤلاء .. نرى مصر ؟ بأى منظار نحبها ؟

إننا نستطيع طبعا أن نحبها ، بتلك الطريقة الغيبية التى يلخصها إيمان الفلاح المصرى حينما يقول إن «مصر هى أم الدنيا» . نستطيع أن نحبها على أساس أنها أمنا . إننا نحب الأم لأنها موجودة . إننا لا نحبها على أســاس الصواب والخطأ ، ولكن على أساس واقعة محــددة هــى أنها أمنا ونحن أبناؤها .. وأيضا لأنه بغير شــقائها وتعبها ورعايتها لم نكن لنشــب عن طوقنا . إننا ـ بهذا المعنى ـ نســتطيع أن نرى مصر خالدة كالبحر .. واســعة وفياضــة وبغــير حدود . إنهــا تلقائية ومخصبة تعطى من خيرها بــلا مقابل وتفيض بغير مكافأة . إنها تلد ، وتغذى ، وتعطينا من دفئها وشمسها الكثير .

حســنا . ولكن هذا هو ما اعتدنا أن نفعله ، بغير أن نغير فى مصر شــيئا كثيرا .. أو تغير هى فينا شــيئا كثيرا . اعتدنا أن نهيم بمصر ، ونرتبط بها بمشــاعر رومانســية تعتمد علــى صورة عاطفية محضة ، أساســها الولاء البدائــى الغريزى من أبناء نحو أمهم ومصدر حياتهم .

ولكــن هــذا أيضــا لم يصل بنــا إلى بعيد . هذا لم يحــل الأزمة المســتمرة الحادة التى تعيشــها مصــر فى تاريخها الحديث . أزمة من الاســتدارات الحــادة ، لا يدركها إلا من يتأمل بعمق تاريخ مصر القريب والمعاصر . فخلال المائتى ســنة الأخيرة وحدها .. أقامت مصــر امبراطورية وصلــت حتى أوغندا جنوبا ، وتونس غربا ، وتركيا شــرقا . وفى نفس الوقت تعرضت مصر للغزو المســلح من امبراطورية أولى . ثم من امبراطورية ثانية . ثم من امبراطوريتين ونصف معا !

كل هذا فى مائتى سنة !

بــل إن هناك ما هــو أكثر . ان أحمد عرابى كان بطلا وزعيما وصاحب ثورة بالنســبة لجيله .. ثم أصبح محتالا وجاهلا وأهوج بالنسبة للجيل التالى له مباشرة . قبل أن ينصفه ويرد إليه اعتباره جيل ثالث .

ومحمد على .. كان منشىء مصر الحديثة بالنسبة للأجيال الثلاثة التالية له .. ثم أصبح مخرب مصر الحديثة بالنسبة للجيل الرابع !

وثورة سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول . كانت أعظم ثورة بالنسبة لجيل مصطفى النحاس .. ثم أصبحت نصف ثورة . بل وقصيرة النظر بالنسبة لجيل جمال عبد الناصر .

وثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ نفسها .. كانت رائدة الثورات فى العالم الثالث بالنسبة لشبابها .. ولكنها أصبحت مجرد حكم بوليسى بالنسبة لعجائزها . وأصبح اسم جمال عبد الناصر يجرى إطلاقه على ميادين وشوارع فى عواصم دول تقع فى أمريكا اللاتينية والجنوبية وآسيا وإفريقيا .. ودائرة المعارف البريطانية تسجل اسم ناصر على البحيرة الضخمة التى خلقها السد العالى .. بينما فى مصر ذاتها تسمى فقط باعتبارها بحيرة السد العالى .

وعلى المستوى الحضارى .. كان نابليون بونابرت يمثل فى غزوه لمصر مبشرا بمبادئ الثورة الفرنسية عند فريق من المثقفين المصريين .. ولكنه كان رأس حربة للمطامع الاستعمارية الأوربية بالنسبة لفريق آخر !

وبريطانيا .. كانت بالنسبة للأغلبية مجرد قوة احتلال عسكرى واقتصادى استمرت تنهب مصر لأكثر من سبعين سنة .. ولكنها كانت بالنسبة للأقلية قوة غزو حضارية يمكن أن تستفيد منها مصر .

وأوربا عموما .. مازالت حتى الآن تمثل بالنسبة لجزء من المصريين قوة حضارية متفوقة يجب أن نتعلم على يديها ونأخذ منها التكنولوجيا .. بينما هى بالنسبةللبعض الآخر حضارة كفر وإلحاد وزندقة وانحلال وخنافس يجب أن نبتعد عنها ونحاربها حتى الرمق الأخير .

❑❑❑

أين مصر الحقيقية وسط هذا كله ؟ أين مصر التى تحتاج الآن إلى حبنا ؟ وأين مصر التى تستحق حبنا ؟ ثم .. هل يمكن أن يكون هناك أصلا وجه واحد لمصر نتفق عليه .. وتكوين نفسى واحد للمصرى نبدأ منه ؟ لقد امتد التشويش أحيانا ، خصوصا فى فترات ضعف مصر ، يروج لفكرة أن الحديث عن شخصية مصرية يتعارض أصلا مع الحديث عن انتماء مصر للأمة العربية . مبدئيا .. هذا غير صحيح . فالقومية - أى قومية - هى مفهوم سياسى . أما الشخصية الحضارية فهى مفهوم اجتماعى . إن تحديد ملامح الشخصية المصرية لا يتعارض لحظة واحدة مع اعتبارها جزءا من الوطن العربى . بعبارة أخرى : إن شخصية مصر - كمفهوم اجتماعى - لا تتعارض مع انتماء مصر للقومية العربية كمفهوم سياسى . فليس من المنطق أن نتصور أن أفراد أسرة واحدة ، من أم واحدة وأب واحد ،

يجب أن يصبحوا جميعا بأخلاق واحدة أو عادات واحدة أو عقلية واحدة . ومن ناحية أخرى .. فليس من المنطق أن يقوم تناقض بين هذا التميز والاختلاف النفسى والذهنى .. وبين انتمائهم لأسرة واحدة .

□□□

إن المصرى الذى يعيش اليوم على أرض مصر .. ربما يرتدى بذلة ، ويتفرج على التليفزيون ، ويقرأ صحيفة ، ويركب أوتوبيسا أو سيارة ، ويتحدث فى تليفون ، ويصعد فى أسانسير ، ويرسل برقية ، ويستضىء بالكهرباء . إنه إذن إنسان متحضر .. إذا كانت الحضارة تعنى تلك الأدوات التى اخترعتها الحضارة الحديثة لهذا العصر . ولكن .. هل يعنى هذا أنه قرر - كمصرى - أن ينحاز تماما إلى هذا العصر ، ويصبح جزءا منه ومتفاعلا معه ؟

لقد ابتلع المصرى طوال تاريخه الطويل تيارات شتى .. بحيث أن جميع الحضارات هى الآن مدفونة فى داخله . إن هذا المصرى الذى هو أنت أو جارك أو زميلك فى العمل ، هو فى الواقع حصيلة عمل سبعة آلاف سنة هى عمر الحضارة فى وادى النيل كله . ودولته عريقة ، بغير أن يعنى هذا أنها عجوز .. وعراقتها تمتد خلفا ستة آلاف سنة . إنها بهذا المعنى أول حضارة فى التاريخ ، وأول دولة سياسية فى كل العصور .

وطوال تلك الفترة الطويلة الممتدة من تاريخنا تراكمت علينا أحداث ومصائب وتحديات وجوائز .. تركت كل منها بصمات لا تنمحى فى تكويننا النفسى والثقافى .. بحيث إنها الآن تشكل جزءا من مشاعرنا نحو أنفسنا ، ونحو جيراننا ، ونحو العالم .

إن الأمثال الشعبية التى تقول الآن «السلطان هو اللى ما يعرفش السلطان» .. أو «زى الحاكم ، مالوش إلا اللى قدامه» .. أو «اللى ياكل مرقة السلطان ، تنحرق شفته» .. أو «اسجد لقرد السوء فى زمانه وداديه ما دام فى سلطانه» .. أو «اللى يخش بيت الإمارة ، يخيط بقه بدوبارة» .. أو «اللى تقول عليه موسى تلاقيه فرعون» .. أو «حاميها حراميها».. أو «اللى ياكل عيش الأمير . يضرب بسيفه» .. كل هذا الفولكلور من الأمثال المعادية للسلطة . أو المستكينة لها . هى امتداد للوصايا الأخلاقية الفرعونية فى مصر القديمة . التى كانت تؤكد دائما على الصمت كفضيلة وتلح كثيرا على عدم الدخول مع السلطان فى مواجهة مكشوفة .

هذا القدر من الوصايا التى احتفظ بها الفلاح المصرى منذ ستة آلاف سنة إلى اليوم .. هـذه الأقراص الكلامية من الحكمة التى تتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل .. هى حصيلة مجتمع زراعى تكونت منه مصر منذ البداية . إن مصر هبة النيل . هذا صحيح . لكن هذا أيضا له ثمنه . إن الوادى الزراعى شريط ضيق ، تحيط به الصحراء يمينا ويسارا ، والبحر المجهول شمالا ، والصخور جنوبا . إن الوادى هو الحياة . ولكن الهروب من الوادى هو الموت . وإذا كان الحاكم ظالما ، فلا بديل عنه سوى الهروب إلى الموت .

ولكن ، بدلا من أن يهرب المصرى إلى الموت بجسده ، فإنه فضل غالبا أن يهرب إليه بعقله . إنه غالبا – بإسلام أو مسيحية أو بغيرهما – متدين . غالبا يؤمن بالقدر . غالبا يؤمن بأن ما يعجز هو عن حله ، سوف يحله له الزمن . إنه سوف يعيش فى البداية متمردا بحجة أن بلده سوف تؤسس أول امبراطورية فى التاريخ . ولكن ، بمجرد أن تنهار الإمبراطورية ، ويتلاحق الغزو الأجنبى من الرومان والعرب والعثمانيين .. إلى الإحتلال الفرنسى ثم الإحتلال البريطانى .. فإن الظلم يستمر بمجرد أن يبدأ . إنه لا يستطيع أن يهرب ، لأن الوادى محاط بالموت من كل جانب .

وبدلا من ذلك فإنه سوف يختار الاستدارة إلى الداخل . داخله هو . إنه ، منذ انهيار امبراطوريته الأولى ، سوف يصبح إنسانا مغلقا على نفسه كما لو كان يعيش داخل زقاق مغلق . إنه محافظ ، ومتدين ، ومنعزل فى حياته الخاصة . ويشك فى نوايا الآخرين نحوه . إن الظلم قدره ، والجنس ملهاته ، والسماء ملجؤه ، والدين حصنه ، والحياة الأخرى عزاؤه . ربما من أجل ذلك لم يعرف التاريخ حاكما صرف كل تلك الملايين وأرغم كل تلك الآلاف ، من أجل بناء مقبرة له نسميها الهرم .

مع ذلك .. ففى الحالات التى كان يتطابق فيها طموح الحكام فى مصر مع مصالحها .. كان هـذا الفلاح الصغير يرتفع فورا إلى أعلى نقطة فى السماء . من هنا شهد التاريخ المصرى – طوال آلاف السنين السابقة – مرحلة طويلة من صناعة الحضارة .. ثم مرحلة أخرى يصدر فيها الحضارة .. ثم مرحلة من الاكتفاء الذاتى .. قبل أن يبدأ عصر السقوط وتراجع الحضارة .

والحضارة هنا ليست هى التكنولوجيا . فالتكنولوجيا اسم نطلقه على كيس من العدد والآلات . ولكن الحضارة هى حالة عقلية . وهى بالتالى التى تولد منها التكنولوجيا .

وعندما بدأت الحضارة المصرية فى التدهور ، كانت مصر قد أصبحت جزءا من الحضارة العربيـــة/ الإســـلامية . وعندما حدثـــت أول مواجهة حاسمة بـــين الحضارتين - الأوربية والعربية - فإنها حسمت لمصلحة الحضارة العربية . كانت المناسبة هى الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر .. ولم يكن الميزان قد مال بعد ضد العرب ، وفى صالح أوربا . إن أوربا كان عليها أن تلعق جراحها وتنتظر اكتمال حضارتها هى ، قبل أن تعود إلى الشرق مرة أخرى - مبتدئة بمصر - فى القرن الثامن عشر .

❑❑❑

فى هذه المرة كان كل شيء محسوما من البداية . وأصبح عبد الرحمن الجبرتى يسجل بأوراقه فى ســـنة ١٧٩٨ : «ولما كان يوم الجمعة ســادس الشهر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود ، فوصلوا إلى أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر . ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم . حريصـــون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشـــهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى أرديتهم ، مغمورون فى غفلتهم . وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم . وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين ، بل أشيع فى عرض ابراهيم بك أنهم قادمون من الجهتين . فلم يأتوا إلا من البر الغربى» .

لم يكن هذا الصدام الحاسم بين الجيش الفرنسى بقيادة نابليون . والجيش الذى يقوده المماليك ســـوى صدام بين حضارتين فى جوهره . وفى هذه المرة انتصرت الحضارة الأوربية لأن ميـــزان القوى كان قد مال إلى صالحهـــا فعلا قبل ذلك عندما نامت مصر اكتفاء بتاريخ مضى.. بغير أن يلاحظ أحد فى الشـــرق تلك المقدمات . كان الفارق حضاريا .. مع بعض التكنولوجيا . ففى القرنين الحادى عشـــر والثانى عشر كانت المواجهة بين قوة بحرية هى أوربـــا .. وقوة برية هى مصر . فى حينها أحســـنت مصر تعبئة واســـتخدام تفوقها البرى لإلغـــاء مـــا تملكه أوربا من تفوق بحرى . وبينما طورت أوربـــا من حضارتها وتكنولوجيتها لكى تعيد المواجهة مع مصر فى القرن الثامن عشر .. استمرت مصر فى المواجهة تستخدم الحصان والسيف . مع استنزال لعنات السماء على العدو المستجد .. بينما يجيء نابليون بالحصـــان والســـيف أيضا . لكن فى صحبـــة تكنولوجيا جديدة يمثلهـــا المدفع . وبالطبع حسمت المواجهة لصالح المدفع .

وكان هذا الاكتشــاف مذهلا ومفاجئا بحيث إن الجنود الفرنســيين هبطوا على الحكام المماليك فى مصر كما لو كانوا سحرة قادمين من كوكب آخر .

ومن هنا بالضبط بدأت صحوة مصر الحديثة .

لقد خرج الفرنســيون وجاء محمد على ، لكى يحاول تعويض الفجوة بســرعة بين مصر وأوربا . واستطاع بحسن التنظيم وبالتعبئة الرشيدة والنقل عن أوربا نفسها أن يعوض خلال فــترة وجيــزة الفجوة بين مصر وأوربــا . وبالنتيجة نجح لفترة أن يقيــم امبراطورية تغذى طموحه .. بما جعل أوربا كلها تتوحد ضده ، وضد مصر من بعده .

□□□

ولأن مصر فى كل مرة كانت تأخذ من الحضارة جرعة أقل مما يجب ومتأخرة أكثر مما يجب ، فإنها لم تستطع فى تلك الفترة القصيرة التالية أن تستمر فى تعويض باقى الفجوة الحضاريــة الضخمــة بينها وبين أوربا .. خصوصا مع القيــود الفادحة التى فرضتها أوربا ضد مصر تحســبا لنهضتها من جديد ، وتنهض بها دولة قوية بالمنطقة تتصدى لأوربا فى الجولة التالية . وهكذا حســمت المواجهة من جديد بنجاح بريطانيا فى احتلال مصر فى سنة ١٨٨٢ ، ولمدة ٧٤ سنة بعدها .

ومن المثير للدهشة هنا أن مصر هذه كانت جيوشها قد وصلت ـ قبل أن تحتلها بريطانيا بثلاث سنوات فقط ـ إلى أوغندا جنوبا . هذا مثير للدهشة ، لأنه لا يحدث عادة أن تتقلص دولــة من امبراطورية إلى مســتعمرة فى ثلاث ســنوات . ولكن هــذا كان مجرد وجه واحد للمتناقضات الأخرى التى شكلت مصر ، ومن ثم شكلت المصرى .

● أحد وجوه التناقض هو بين مصر نفسها كدولة ، والمصرى كمواطن . فحيثما كان يتلاقى طموح الحاكم مع مصالح مصر ، فإنه كان يرفع من شأن مصر من غير الاستثمار بدرجة موازية فى المواطن المصرى .. تماما كما جرى فى حالة بسمارك بأوربا ، ومن بعده هتلر .

● وأحــد وجــوه التناقض هو أن مصر فى تلهفها على عبور الفجوة الحضارية ســارعت فى الأخذ بالقشور على حساب الجوهر . إن تفوق الغرب عسكريا وماديا أعطى درجة من الهيبة لنظمه السياســية . بحيث إننا تصورنا أن ما يصلــح فى أوربا لابد أنه يصلح لنا تلقائيا . هناك برلمان وأحزاب ومساواة للمرأة . هناك نظم تأمينات وقوانين عمل وميكروجيب . إذن

نحـن كذلـك .. وهكذا . غاب من المعادلة أهم عناصرها ، وهو خلق ونشـر قاعدة تعليمية وعلمية تكون هى البنية التحتية التى تنبنى عليها كل نهضة .

● وأحد وجوه التناقض هو الرغبة الشـديدة فى الاندماج فى القرن العشـرين صاحبتها فى نفس اللحظة ، وربما بنفس الحماس ، رغبة شديدة فى العودة إلى القرن العاشر . إننا قوم أصحاب حضارة ، وتاريخنا البعيد منتصر . إذن ، فالحل هو أن نعود إلى ذلك التاريخ البعيـد ونعيـش فيه ونتقوقع داخله . الحل هو العودة إلى الماضى أو العودة إلى الذات ، أو العودة إلى التراث أو التقاليد أو أى عنوان آخر يعيدنا بسرعة إلى أمجاد أجدادنا .

❑❑❑

وهنا أيضا توجد العقدة فى أزمة مصر المعاصرة . مصر الربع الأخير من القرن العشرين . فـإذا بدأنا من النهاية فإن هذا الإرتداد النفسـى والعقلـى إلى الماضى لا يمثل علاجا لأزمة مصر الحديثة ، وإنما هروبا من مواجهتها .

أكثـر مـن ذلك .. أقول إن ماضينـا ـ مهما كان مجيدا وبراقا لأهلـه ـ لا يزكينا مطلقا لبناء الدولة العصرية . بل هو سلاسـل ثقيلة فى أقدامنا وجبل من الصدأ فى عقولنا . إن رؤيتنا لتراثنا يجب أن تكون هى رؤيتنا للمتحف الفرعونى .. رؤية تحمل من الإعتزاز بقدر ما تحمل من الانفصال .

وهـذه الكلمات بقدر ما تحمل من سـهولة بقدر ما تحمل مـن الديناميت أيضا . فمنذ عشـرينات القرن العشـرين حاول طه حسـين مثـلا أن يفحص علميا جزءا مـن تراثنا ، فاتهـم فـورا بالكفر والإلحاد والزندقة ، بل وخرجت المظاهرات تهتف ضده فى الشـوارع والخطابات من مجهولين تهدده بالقتل .

هذا إذن هو أول وجه يجب أن نحبه فى مصر . وأول وجه يجب أن نرفضه . إن حبنا لمصر فى أزمتها المعاصرة يجب أن يعنى أولا وقبل كل شىء التخلص من هذا الانقياد الأعمى إلى الماضى .. وهذا الإيمان المضلل بأن ما كان يصلح لأجدادنا منذ ألف سنة يجب أن يصلح لنا الآن . إننا نريد أن نخوض البحر بغير أن تبتل ملابسـنا . ونحصل على مزايا حضارة بغير أن ندفع فاتورة الحساب لكى نكون منتجين فيها وليس مجرد مستوردين ومستهلكين لهـا . إن «النداهة» بمفهوم يوسـف ادريس فى قصتـه . ومن قبله يحيى حقى فى روايته

«قنديل أم هاشم» ، ومن قبلهما وبعدهما زكى نجيب محمود فى كتبه ، وطه حسين فى تأملاته .. معناها أن نحسم مرة وإلى الأبد هذا التمزق الروحى . ان مشاعرنا نحو الحاضر يجب ألا تكون هى التحمل ولكن الجرأة .. ومع المستقبل هى التحدى وليس الاستسلام .. ومع مصر هى المشاركة وليس التفرج .. الحب اليقظ وليس العشق الأعمى .

□□□

أن نحب مصر ؟

نعم . هذا هو الحل . وتلك هى المشكلة . إنها مشكلة لأن حب مصر فيه شىء من الرومانسية التى تجعلنا نقول فى قرانا إن مصر هى أم الدنيا . لا . مصر تستحق الحب بغير أن تكون أم الدنيا . مصر هى فقط جزء من الدنيا . إنها يمكن أن تكون هى كل دنيانا التى تهمنا ، بغير أن تكون هى كل دنيانا التى نعيش فيها . إن عشقنا لها فيه شىء من العمى . ولكن حبنا لها فيه قاعدة من الاختيار .اختيار الأفكار الصحيحة والإيجابية فنؤكدها .. واختيار العناصر الضارة فنرفضها .

أحد ميادين هذا الاختيار هو الماضى السحيق الذى يجب أن نصفيه بدلا من أن نعبده.. وندرسه بدلا من أن نعود إليه . لا أحد فى الحياة يعود إلى الوراء إلا فى سن الشيخوخة . ومصر ليست فى حالة شيخوخة . أن «هاركابى» المدير الأسبق للمخابرات الإسرائيلية أصدر كتابا يقذف فيه بالكرة فى وجهنا . إنه يسترجع فى الكتاب ما لاحظه المفكر العربى الكبير ابن خلدون ، حينما لاحظ أن انهيار اليهود فى الماضى يرجع إلى ضعف العصبية – روح الجماعة – وإلى أنهم عانوا نتيجة لذلك من المذلة والهوان حينما تركوا أنفسهم نهبا لذكريات أمجادهم السابقة . حسنا . أن «هاركابى» يخرج لسانه من صفحات الكتاب وهو يقول : يبدو أن البندول الآن قد دار دورة كاملة . يعنى : يبدو أن العرب الآن تركوا أنفسهم نهبا لذكريات أمجادهم السابقة !

ولأن الإنسان لا يعيبه أن يرى جزءا من عيوبه فى عيون عدوه ، فإنه لا يسىء إلينا أن نرى جزءا من الحقيقة فى كلمات «هاركابى» . إن فريقا كاملا من المثقفين المصريين ، بحسن نية شديدة ورغبة صادقة فى العلاج ، يتمسكون بهذا الماضى كنقطة للبداية . بداية الدراسة كما فى حالة الدكتور محمد حسين هيكل ، أو بداية للحياة كما فى حالة عباس العقاد ، أو بداية للتصحيح كما فى حالة طه حسين .

□□□

نحب مصر ؟

نعــم . هــذا هو الحل . وتلك هى المشــكلة . إنها مشــكلة لأن علينــا – كجزء من هذا الحب – أن نرفض ما قاله موشــى دايان وزير الدفاع الإســرائيلى عقب هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧ : «إن العرب يعيشــون فى عالم غير حقيقــى . وهم يفعلون ذلك غالبا مثلهم كمثل الشــخص الذى يحتاج إلى الحشــيش حتى يحس أنه يعيش فــى جنات عدن . فالحقيقة بالنســبة لهم هى الجحيم . والعلاج هو ابتلاع حبة من حبوب الكذب .. التى تعطى لهم الإحساس بالجنة» .

إن علينا أن نرفض هذا المفهوم الإسرائيلى لأن المصريين هم الذين أثبتوا عمليا كذبه من الأساس . لم يترك المصريون اسرائيل فى أوهامها تلك بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ سوى أسابيع قليلة ، وبعدها بدأ الجحيم المضاد . بدأ قبول التحدى والنهوض من جديد .

فــى نفــس الوقت فإن علينــا ، كجزء من حبنا لمصر ، أن نغضــب لما غضب له حافظ ابراهيم حينما قال شعرا فى لحظة انفعال عن بلده مصر :

وكم غضب الناس من قبلنا — لسلب الحقوق ولم تغضبى

أمــور تمر ، وعيــش يمــر — ونحن من اللهو فــى ملعب

أقول أنها شطحات شاعر فى لحظة غضب وانفعال . لكن التاريخ لا تصنعه الانفعالات . تصنعــه الحســابات الدقيقة والعقــول اليقظة . فلنتوقف هنا مبدئيا أمــام ثلاث وقائع فى تاريخنــا القريــب ، تعكس بالضبط روح الجماعة ، أو روح الفريــق ، التى عبر عنها ابن خلدون كشرط لنهضة الأمم وقوتها .

● فى الحالة الأولى نحن أمام مصر وهى تســتعيد بعض حقوقها المنهوبة من وحوش الغابة الدولية . حالة تأميم قناة السويس . القناة التى كان يفترض أن تكون لمصر فأصبحت مصر للقناة . وأصبح من الآمال المؤجلة لكل جيل فى مصر هو استعادة القناة . هكذا وقف جمال عبد الناصر ذات مســاء بالإســكندرية فى يوليو ١٩٥٦ لكى يعلن قرارا مصريا بتأميم شركة قناة السويس .

إنها قانونا وعدلا حق سيادى لمصر ، ومن قديم . لكن الجديد هنا متعدد . الجديد هو إدراك مصــر فــى حالتها هذه أن الحقوق تؤخذ غلابا وليس لمجرد أنها حقوق . والجديد

أيضا أن يؤخذ قرار التأميم بمعرفة وحسابات وتجهيزات مسبقة سرا ، ولأكثر من سنتين . من التجهيزات مثلا مبادرة مصر بالاعتراف دبلوماسيا بجمهورية الصين الشعبية .. خرقا للحصار الدولى الذى فرضته أمريكا على الصين منذ استيلاء الشيوعيين على السلطة فى بكين سنة ١٩٤٩ . والاعتراف المصرى بالصين لم يكن إعجابا بالشيوعية والشيوعيين ، ولكن تحسبا لحصار دولى متوقع ضد مصر بمجرد إقدامها على تأميم قناة السويس .

أما الجديد الآخر فهو حسن ودقة اختيار مصر لفريق من أبنائها أصحاب الخبرة ليقوموا بتنفيذ قرار التأميم . فالتحدى الواضح هنا ، بعد قرار التأميم ، هو أن تنجح مصر فعلا فى تشغيل وإدارة الملاحة فى قناة السويس . لو وقف العالم كله مع مصر حقا وعدلا .. ثم فشلت مصر عمليا فى تشغيل وإدارة قناة السويس .. فإن نفس هذا العالم كله سينقلب ضد مصر .. خصوصا وقد خرجت الوحوش الجريحة فى الغابة الدولية مهددة ومتوعدة بجعل مصر أمثولة وعبرة لكل من يتخيل من الدول الصغرى أن استعادة الحقوق المنهوبة ممكنة . ولم يكن هذا من فراغ . فقبلها بثلاث سنوات فقط كانت وحوش الغابة قد جعلت من محمد مصدق رئيس وزراء ايران ، ومن إيران كلها ، عبرة لمن يعتبر . محمد مصدق رئيس وزراء منتخب شعبيا .. وقراره بتأميم شركة البترول الإيرانية أمنية شعبية من قديم . وحينما هددت بريطانيا بقطع رقبة مصدق وايران من بعده عقابا على التأميم ذهبت حكومة إيران بقضيتها إلى محكمة العدل الدولية ، فأقرت المحكمة علنا وصراحة بحق إيران فى تأميم الشركة . لكن القانون والعدالة هما أبعد ما يمكن عن انشغالات وحوش الغابة .

وهكذا .. بخليط من التآمر والعمل السرى المشترك بين بريطانيا وأمريكا جرى تدبير انقلاب أسقط محمد مصدق وحكومته وأعيد شاه إيران الهارب إلى عرشه وعادت وحوش الغابة تنهب بترول إيران من جديد .

شىء من هذا كان يدبر لمصر عقابا لها على قيامها بتأميم قناة السويس . وفى هذه المرة تحالفت بريطانيا وفرنسا ، زائد اسرائيل ، لضرب مصر عسكريا واستعادة السيطرة على قناة السويس . الفشل كان مدويا . لكن نجاح مصر هنا يرجع لأسباب عديدة ، من أبرزها حسن التخطيط ودقة الحساب وذلك الفريق من أبنائها الذين باشروا عملية التأميم ثم التشغيل والإدارة بنفس مستوى الكفاءة الدولية .. وأفضل .

ومع أن المهندس محمود يونس وفريقه المختار لتشغيل القناة كانوا يعيشون الليل والنهار فى مواقع العمل ويتعاملون بخبرة وكفاءة ونكران للذات مع هذا التحدى الذى فرضته مصر

على أبنائها .. إلا أن كلا منهم كان يرى أنه لايفعل سوى تأدية واجبه . إن محمود يونس مثــلا ، وأيــا من فريقه ، لم يكتب مذكراته . وفى كل مدن القناة الثلاثة .. لن نجد حتى الآن ميدانا ، أو حتى شارع ، يحمل اسم محمود يونس أو أى من رفاقه.

● فــى الحالــة الثانية نحن أمام مصر أيضا وهى تخوض تحديــا آخر مع أبنائها . إنه حلم إقامة سد عال جنوب أسوان يقوم بترويض نهر النيل الذى يعيث فسادا بين سنة وأخرى ، فضلا عن أنه يهدر معظم فيضانه بينما أراضى مصر تتحرق شوقا إلى مياه تتيح لمصر التوسع بشريطها الأخضر الضيق من الأراضى المزروعة .

فــى هــذه الحالة أيضا كانت وحوش الغابة الدولية تــراوغ ، ثم ترفض صراحة ، قيام مصــر ببنــاء الســد العالى جنوب أســوان . . بالضبط لأنهــا تدرك أن قيام الســد العالى وما ســيتيحه من أراضى جديدة وكهرباء رخيصة سيصبح المقدمة الأكيدة لنهضة اقتصادية جادة فى مصر .

جاء الشروع فى بناء السد العالى مباشرة فى أعقاب نجاح مصر فى تأميم قناة السويس ، وأصبحت أنظار العالم تتطلع إلى مصر ، معظمها بإعجاب ، وبعضها بشماتة وتطلع لتحول مشــروع الســد من أمنية كبرى إلى فضيحة عظمى . وحينما نجحت مصر بعد ســنوات فى بناء وتشــغيل الســد العالى كانت الأســباب متعددة . لكن أهمها من زاوية اهتمامنا هنا هو حســن اختيار مصر لذلك الفريق من أبنائهــا الذين يمتلكون الخبرة والمعرفة والإرادة لقبول التحدى . فريق برئاسة المهندس محمد صدقى سليمان .

ويوما بعد يوم ، وســنة بعد ســنة ، كان المرء يذهب إلى جنوب أسوان ، ليجد عشرات الآلاف من المصريين يعملون ليل نهار لإنجاز الحلم الكبير ، بينما فى أعلى نقطة من الجبل توجد لافتة ضخمة مضاءة ليل نهار وتتعدل يوما بعد يوم حتى يراها أولئك الآلاف . لافتة تقول : باق من الزمن ٢٦٧٠ يوما .. ٢٦٦٩ يوما .. ٢٦٦٨ يوما ، وهكذا . وكان المرء ، لكى يقابل المهندس صدقى سليمان ويختطف بعضا من وقته . عليه أن يذهب إليه فى الخامسة صباحا لأنه بالضبط موعد خروجه إلى مواقع العمل بين العمال والمهندسين والخبراء .

ومــرة أخــرى . كان صدقــى ســليمان وكل فريقه لايــرون فيما يفعلونه شــيئا خارقا ولا اســتثنائيا . يرون فقط أنهم يقومون بواجبهم نحو مصر التى أحبوها وجعلتهم فى قلب

التحــدى . هــو أيضــا لم يكتب مذكراته ، بغير أن نذكر أنه لايوجد فى أســوان ميدان أو شارع باسمه .

● فى الحالة الثالثة نحن مع مصر وأبنائها حينما يتم ضبطهما معا على موجة واحدة . موجة من الحب والعطاء والتحدى . فبعد ضربة يونيو ١٩٦٧ اعتبرت اســرائيل أنها أزالت مصر من على الخريطة لجيلين تاليين على الأقل . ولم يكن هذا من فراغ . فبعد انتصار اسرائيل كدولة مســتجدة على الجيوش العربية فى ســنة ١٩٤٨ تكيفت مصر الضعيفة المهزومة مع الوضع الجديد وسجلت اتفاقات الهدنة هذا التكيف من مصر وباقى الأطراف العربية .

لكن الحسابات بعد يونيو ١٩٦٧ اختلفت جذريا . وهى اختلفت بقرار مصرى واضح : لــن نتكيف أبدا مع الهزيمة . ســنبتلع مراراتنا ونلعــق جراحنا ونضم صفوفنا لكى ننهض مــن جديد . فى هــذه المرة أصبح الجهد المطلوب مضاعفا : إنــه جهد النهوض وقوفا من جديد .. مصحوبا فى نفس اللحظة بجهد إعادة بناء القوات المسلحة من الصفر . هذا يشبه أجراء عملية جراحية دقيقة لمريض بينما هو فى نفس اللحظة يصعد درجات السلم . وفى هذه المرة أيضا بدا واضحا إصرار وحوش الغابة الدولية على جعل حرب يونيو ١٩٦٧ هى الصفحــة الأخــيرة فى كتاب مصر .. بينما مصر تصر على أنها مجرد فصل عابر فى كتاب ما يزال مفتوحا .

ومن زاوية اهتمامنا هنا فإن تلك الروح من الإصرار والتحدى ، المقترنة بأقصى درجات المعرفة والخبرة . يلخصها شــخص الفريق (الراحل) عبد المنعم رياض الذى جرى اختياره لمنصــب رئيس أركان حرب القوات المســلحة الجديدة .. وهو المنصب الذى يمثل بطبيعته العقل المفكر والمخطط للقوات المســلحة . لقد قبل الرجل بالتحدى الضخم الذى أصبح فى بؤرته ، مع كل ضابط وجندى آخر فى ذلك الجيش الجديد . جيش المليون جندى .جيش الأســلحة الجديدة والحــرب الإلكترونية ضد عدو يتصرف كامتــداد عضوى للدولة الأكبر والأقوى فى العالم : أمريكا .

ســواء لطبيعة المهمة ، أو لطبيعة الشخص . فإن كل عملية إعادة بناء القوات المسلحة المصريــة الجديدة كانت ســر الأســرار . فقط يتابعها المصريــون ويتفاعلون معها من خلال أحداث وتطورات متلاحقة فى حرب اســتنزاف باشرتها مصر ضد الإحتلال الإسرائيلى . تطورات تلاحقت منذ الشــهر التالى مباشرة لهزيمة يونيو ١٩٦٧ حتى النجاح النهائى فى

إقامة حائط الصواريخ الشهير بمحاذاة الضفة الغربية لقناة السويس ، وهو المقدمة الحتمية للعبور تحريرا للأراضى المحتلة .

لم يكـن عبـد المنعم رياض موجودا حينما اكتمل بناء حائط الصواريخ هذا فى الأسـبوع الأول من أغسطس ١٩٧٠ . كان قد رحل فى مارس سنة ١٩٦٩ . رحيلا مدويا فجع قلوب المصريـين جميعـا . فذات صبـاح كان عبد المنعم رياض يتفقد تطـورات القتال فى المواقع المصرية بالخط الأمامى على الضفة الغربية من قناة السـويس . زيارة تفقدية قام عبد المنعم رياض بالمئات منها من قبل .. سرا كالمعتاد . لكن فى ذلك اليوم من مارس ١٩٦٩ شاء القدر أن يصاب عبد المنعم رياض بقذيفة من وابل القذائف التى يمطر بها الإحتلال الإسـرائيلى القوات المصرية فى جبهة قناة السـويس . الإصابة كانت قاتلة للتو . وفى تشـييع جثمان عبـد المنعـم رياض لم يكن جمال عبد الناصر فى المقدمة فقط .. كان معه الشـعب المصرى بكامله ، بغير أن نقول الشعوب العربية أيضا .

الخسـارة كانت فادحة . لكن بعض العزاء فيما جرى كان اكتمال المرحلة الحرجة فى إعـادة بناء الجيش لخوض الحرب الحديثة . حرب هى بطبيعتها التعبير العملى عن روح الجماعـة أو روح الفريـق .. وتحديداً الفريق المتخصص الخبير المـدرك لأهمية دخول هذا التحدى بهذا الجيش الجديد . جيش المليون مقاتل .

للحرب سـياق آخر . لكن ما يعنينا هنا هو تلك الحقيقة الحاكمة التى لم تأخذ حقها من الاهتمام والدراسـة . حقيقة أن مصر . فى لحظة الشـدة والمحنة والتحدى ، لم تكن ستنجح فى إقامة جيش المليون جندى هؤلاء إلا لأنها نجحت سابقا فى إقامة نظام التعليم المجانـى .. حتى الجامعة . فى لحظة الشـدة والمحنة والتحدى لم يكن الجيش الجديد الذى تحتاجه مصر هو مجرد زحام من الجنود ، أو زحام من الأسـلحة . ماتحتاجه مصر فـى تلك اللحظة الفاصلة من تاريخها كان أسـلحة حديثة ، وجنود متعلمين قادرين على التفاعل مع تلك الأسـلحة المتطورة الحديثة ، والإلكترونية فى معظمها . من هنا احتاجت مصر فجأة إلى مليون متعلم . ومن هنا نجحت مجانية التعليم . بعد سنوات من التراكم . فى إسعاف بمصر بالمليون جندى .. متعلم .

فـى الدولة العصرية هناك جانبان حيويان تماما فى متانة النسـيج الاجتماعى : نظام التجنيـد الإجبـارى .. ونظام التعليم المجانى . فى التجنيد الإجبارى يدفع الأبناء ضريبة

الوطـن لـمدة محددة ، بلا تمييز وبغير اسـتثناء . وفـى التعليم المجانى يتسـاوى الغنى والفقـير ، والجنوبى مع الشـمالى ، فى الحصول على خدمة تعليميـة إجبارية توفر أيضا مفتاحـا إلى الانصهار الاجتماعى والاندماج مع المسـتقبل . أحـد وجهى العملة هنا هو أن يحب المصريون .. مصر . أما الوجه الآخر فهو أن تحب مصر أبناءها .

هذا يعيدنا من جديد إلى مشكلة .. أن نحب مصر .

□□□

إن معنى أن تكون مصريا ، الآن وفى هذه اللحظة ، معناه بالضرورة هو أن نرفض أشياء كثيرة ، ونؤمن بأشياء كثيرة ، ونحلم بأشياء كثيرة .

معناه أن نرفض مثلا ذلك القدر الرومانسـى من العاطفة .. لأن تحويل مصر فى خيالنا إلى مجـرد نجوم فى السـماء وذهب فـى المياه وحرير فى ضفائر الشـعر .. يعنى أن مصر بالنسـبة لنا مفهوم غير عقلانى . ويعنى أيضا أننا لا نحس بها فى داخلنا ونحن نعمل ، ونحن نركب الأوتوبيس أو السـيارة ، ونحن نصنع الحديد والصلب . أن مصر هى شـىء عملى جدا . شىء نشترك فيه جميعا . شىء سنعبر به إلى المستقبل أو يغرق بنا جميعا فى بحار الماضى .

مصر هى أن نعمل بامتياز ، ونكتب بضمير ، ونتعلم بوعى ، ونتكلم بصدق . مصر هى كل هـذه الالتزامات العملية جدا فى حياتنـا اليومية . مصر هى أن نؤمن بأن كل القضايا الكبرى – ابتداء من الإحتلال الإسرائيلى إلى أزمة المواصلات – هى حصيلة قضايا صغرى وأدوار صغرى نقوم بها جميعا فى حياتنا اليومية . مصر هى أن نرفض التجريد فى نظرتنا إليها . إنها ليسـت نجمة فى السـماء ولا بيتا فى خيال الشـعراء . إنهـا وظيفة نؤديها بضمير ، ومهنة نمارسـها بشـرف ، وقضية نخوضها بعدل ، وفحص نمارسـه بنزاهة ، ومراجعة نقوم بها بتجرد وموضوعية .

إن علينـا أن نرفـض إذن تلك النظرة الأحاديـة للناس والحقائـق والتواريخ . إن كل جيـل يأتى ليصور لنا معاركه وكأنها الأخيرة ، وراياته وكأنها الأعلى ، ومثالياته وكأنها النهائيـة . ليكـن . فقط بغـير أن يؤدى هذا بالضرورة إلى أن يكـذب الآباء على الأبناء ، ويضحك السياسيون على الرعايا ، ويصدر القضاة الملفقون أحكامهم الغيابية . إن الحقائق

المطلقــة .. مثــل ان أحمد عرابى وطنى جــدا أو خائن تماما .. وثــورة ١٩١٩ هى خاتمة الثورات أو لا شــىء على الإطلاق .. والماضى هو الخير كله أو الشــر النهائى .. هى قضايا يجب أن نحسمها بعين الفحص وليس بعين التعصب .

❑❑❑

ومعنى أن تكون مصريا ـ الآن وفى هذه اللحظة ـ معناه بالضرورة ألا نخجل من فقرنا . إن المدرس المصرى فى الكويت أو الســعودية أو ليبيا لا يحصل على مرتبه فى آخر الشــهر لمجــرد أنــه أكثر فقرا .. ولكن أيضا لأنه أكثر حضارة . إن مصر لا وظيفة لها فى الشــرق الأوســط إلا إذا كانت هى الأكثر حضارة . فلتكن الســعودية هى كعبة الشرق ، ولبنان هى سمســار الشرق ، وسوريا هى حصن الشــرق ، والسودان هى مطعم الشرق .ولكن مصر هى جامعة الشرق .

إن مصر قد لا تستطيع أن تكون أغنى فى وقت قصير . هى تستطيع لو قويت عزيمتها ، وقد اســتطاعت ذلك فعلا فى جيل مضى . ولكن .. إلى أن نســترد العزيمة والإرادة .. فإن مصــر فــى الواقع لايجب أبدا أن تتنازل عن ـ أو تفرط فى ـ وظيفتها الكبرى : إنها الأكثر تحضرا .

ولأنهــا كذلك ، فإن منها فقط يخرج طه حســين ومحمد عبده وعبد الله النديم ومحمد عبد الحليم عبد الله وعباس العقاد وأم كلثوم ومصطفى مشــرفه وأحمد زكى وسلامه موسى ومحمود شلتوت ومحمد عبد الوهاب وأحمد لطفى السيد وأحمد شوقى .. إلخ .. إلخ .

ولأنها كذلك ، فإن هزيمة الشرق كله تبدأ من هزيمتها . وانتصاره يبدأ من انتصاراتها . وفى كل الصدامات العســكرية الكبرى التى هزت منطقتنا ـ ابتداء من روما القديمة إلى الصليبيين إلى المغول إلى الاستعمار الأوربى .. كانت المصائب الكبرى تدخل إلى المنطقة يوم تضعف مصر .

إن معنــى المصرية إذن هو أنه .. وســط التليفون الــذى لا حرارة فيه .. والكهرباء التى تنقطع .. والمسكن الذى لا يتوفر .. والأوتوبيس الذى لا يتوقف .. والغلاء الذى لا يرحم .. يجب أن نتمسك تماما بتفاؤلنا .. وقدرتنا على أن نبدأ البناء من جديد .. وبسواعدنا نحن قبل كرم الآخرين .

❑❑❑

وأخـيرا .. فـإن معنـى أن تكون مصريا ، الآن وفى هذه اللحظـة ، هو أن تحلم أيضا بأشياء كثيرة .

نحلـم مثـلا بأن نتفوق فى هـذا التحدى الحضارى من داخله . ليـس تفوق المتفرج ، فالمتفرج لا يصنع شـيئا سـوى أن يتفرج . ولكن تفوق المشـارك . تفوق المصرى الذى يصدأ عقلـه حينما تخونه الدولة .. ولكنه يلمـع ويبتكر ويجدد ويضيف حينما تحبه مصر . إن العقـل هنـا لم يتغير ، فالمصرى واحد فى الحالتـين . إن ظروفه فقط هى التى تتغير . إن المهندس فى السـد العالى والقبطان فى قناة السـويس والجندى فى حرب الاستنزاف أحس أن مصر تعطيه دورا لكى يلعبه .. وتحديا لكى يواجهه .. بحيث إنه كان يحقق فى سنة ما استبعده عدوه فى خمسين .

لكن فى نفس اللحظة على مصر أن تعيد اكتشـاف حقيقة أن قوتها هى بمسـتوى قوة مواطنيها .. وثروتها هى بمقدار مشاركة كل واحد من شعبها . وفى نهاية المطاف فإن مصر سبقت اليابان فى القرن التاسع عشر .. ولكن اليابان سبقت مصر فى جولة تالية .. فقط لأن تفوق اليابان جاء من داخل الحضارة وليس من الابتعاد عنها والاكتفاء بالاحتجاج ضدها .

نريد أن نحلم ، كمصريين ، بأن تسـتثمر مصر كل جيل من أبنائها فى موعده . وبأن يضيـف كل جيـل إلى انجـازات الجيل الذى سـبقه ، لا أن يعيش عالـة عليها أو يفرط فيها ، غير مسـتوعب أصلا لقدر التضحيات التى تحملها جيل سـابق وهو يسترد لمصر ، والمصريـين ، حقوقا منهوبة ، ومن وحوش الغابـة الدولية وغصبا عن إرادتها . نحلم بأن يرتفـع صوتنـا بغير صخب .. ونتفوق بغير أن ندمر .. ونعلـو بغير أن نتعصب .. ونتقدم بغير أن نحقد .

نحلم بأن يمنحنا الله القدرة على قبول الأشياء التى لا يمكننا تغييرها .. والشجاعة على تغيير الأشياء التى نستطيع تغييرها .. والحكمة لكى نعرف الفرق بين الاثنين .

الدستور ..
بين النظام الرئاسى والنظام البرلمانى

البيضة فى مصر بمليم ...(•)

علبة السجائر ماركة «العنبرول» بعشرة قروش .

الرواية المقررة على طلبة البكالوريا هى «زهراب ورستم» .

على أفندى الكسار بربرى مصر الوحيد يمثل رواية «البربرى فى الجيش» .

نابغة مصر فى التمثيل يوسف بك وهبى يمثل رواية «أعين الثعبان» .

المستر سمسون رئيس النيابة المختلطة بالمنصورة يحضر حفل مدرسة المنصورة الأميرية .

حسين بك حجازى رئيس الفريق المصرى هزم بفرقته منتخب الجيش الإنجليزى فى القاهرة .

و ... نحن فى يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ .

اليوم خميس . الشمس ساطعة . البلد فى إجازة ولو أن هذا غير واضح .. فالسكان عددهم محدود – بالضبط : ١٣ مليونا و ٢١٧ ألف نسمة – هم كل السكان فى مصر فى ذلك اليوم . من بين كل مائة من السكان هناك ٢٦ يموتون بعد سنة من مولدهم . المرض وسوء التغذية سبب ذلك . الذين يعرفون القراءة والكتابة فى مصر – مجرد القراءة والكتابة – عددهم ١٩٧ فردا فى كل ألف من السكان . الصحف فى مصر محدودة . الأخبار فيها محدودة أيضا . منها تلك الأخبار المنشورة فى مقدمة هذه السطور . منها أيضا : صورة الأسد الحبشى الذى أهداه جلالة امبراطور الحبشة إلى الملك فؤاد ملك مصر . فأمر بإرساله منحة إلى حديقة حيوانات الجيزة .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٨/١/١٣ .

أكرر : نحن فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ . ليس الأسد الحبشى هو المنحة الوحيدة التى قدمها الملك فؤاد إلى الشعب . لقد أعطى للشعب منحة أخرى - مثل الأسد الحبشى - هى دستور أصدره بأمر ملكى منذ سنة . بالتحديد فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ ، والأمر الملكى رقمه ٤٢ . وفى هذا اليوم - ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ - كان الملك متوجها لافتتاح البرلمان الذى أقيمَ تنفيذا لهذا الدستور .

الدستور يضم ١٧٠ مادة . والدستور يقرر أن مصر دولة ملكية ، والعرش فيها وراثى لأسرة محمد على ، ونظام الحكم .. برلمانى .

❑❑❑

ما هو النظام البرلمانى ؟

إنه أحد أشكال ثلاثة للأنظمة السياسية يعرفها القانون الدستورى . فهناك أولا النظام الرئاسى.. وهو يعطى الغلبة للسلطة التنفيذية (الحكومة) . وهناك ثانيا النظام البرلمانى.. وهو يساوى بين السلطات الثلاث فى الدولة : السلطة التشريعية (البرلمان).. والسلطة التنفيذية (الحكومة).. والسلطة القضائية . وفى هذا النظام تتساوى السلطات الثلاث.. فلا واحدة منها تسود الأخرى . ثم هناك - ثالثا - نظام يسمى «حكومة الجمعية».. وفيه تكون الغلبة للسلطة التشريعية .

والنظام الثالث نادر فى التطبيق . وعلى ذلك فمعظم الأنظمة السياسية المعاصرة تأخذ بواحد من اثنين : النظام الرئاسى .. أو النظام البرلمانى .

وهناك نقطتان للبحث هنا . فأولا .. هناك خصائص لكل نظام منهما . وثانيا .. هناك تاريخ طويل لمصر مع كل من النظامين . ثم ندخل فورا فى خصائص النظامين .

❑❑❑

إن أول مرة طبق فيها النظام الرئاسى كانت فى دستور الولايات المتحدة . الذى صدر فى سنة ١٧٨٧ . ومن يومها إلى الآن مازالت الولايات المتحدة هى أبرز مثل للنظام الرئاسى .

والنظام الرئاسى له عدة خصائص محددة . فهو يقوم أولا على وجود رئيس دولة منتخب من الشعب ويجمع بين وظيفتى رئيس الدولة ورئيس الحكومة . والمقصود من ذلك

هو أن تتحقق المساواة بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية .. بين الحكومة والبرلمان . فالاثنان ينتخبهما الشعب . ومن ثم فالاثنان يتعاملان معا على قدم المساواة . هذه المساواة نظرية .. لأن التطبيق يثبت بعد ذلك رجحان كفة رئيس الجمهورية فى مواجهة السلطة التشريعية كما حدث فى الولايات المتحدة .

والصفة الثانية للنظام الرئاسى هى أنه يقوم على توزيع الاختصاصات على أساس الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . فرئيس الدولة ينتخبه الشعب مباشرة .. وهو الذى يعين وزراءه ويقيلهم .. وهم مسئولون أمامه عن أعمالهم .. وليس لهم سوى تنفيذ سياسة الرئيس . ويجوز له أن يقيلهم إذا لم يفعلوا ذلك .

وفى النظام الرئاسى أيضا لايوجد مجلس للوزراء . فما دام رئيس الجمهورية المنتخب من الشعب هو صاحب السياسة التنفيذية العليا ، فليس هناك محل لأن يكون معه مجلس وزراء مسئول أمام البرلمان أو أحد مجلسيه .

وفى النظام الرئاسى كذلك تنفصل السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية . والسلطة التشريعية فى الولايات المتحدة مثلا مكونة من مجلسين : مجلس النواب ، ومجلس الشيوخ . وليس للسلطة التنفيذية – بناء على الدستور الأمريكى – أن تقترح القوانين . فالتشريع من اختصاص السلطة التشريعية وحدها .

ونجد فى التطبيق الأمريكى للنظام الرئاسى أيضا أن السلطة القضائية هى الأخرى منفصلة عن السلطتين التنفيذية والتشريعية .. فالقضاة يتولون وظائفهم عن طريق الانتخاب .

وأول ما نلاحظه على النظام الرئاسى ـ فى نموذجه الأمريكى على الأقل – هو أنه يعطى سلطات واسعة لرئيس الدولة على حساب السلطة التشريعية .هذه الظاهرة لها أسباب .

أولا : أن واضعى الدستور الأمريكى فى سنة ١٧٨٧ لاحظوا تعسف البرلمان الإنجليزى ضدهم عندما كانت تستعمرهم انجلترا .. فأرادوا بالتالى عند وضع دستورهم أن يحدوا من سلطة البرلمان .

ثانيا : أن رئيس الدولة فى الدستور الأمريكى ينتخب كل أربع سنوات . وعندما ينتخبه الشعب فإنما ينتخبه بناء على برنامج محدد يعرضه الرئيس المرشح . فإذا لم ينفذ البرنامج بعد انتخابه فإن الشعب يملك أن يسقطه فى الإنتخابات التالية .

هـذا إذن دفع واضعى الدسـتور الأمريكى إلى تقوية سـلطة رئيـس الدولة فى مواجهة السلطة التشريعية . والذى حدث فى التطبيق هو أن كفة رئيس الدولة رجحت فى الميزان.. أكثر من كفة سـلطة الشـعب فى إلزامه ببرنامجه . السـبب ، كما يقول هارولد لاسكى ، هو «أن من الأمور المعروفة لنا جميعا أن الحملة الإنتخابية هى عبارة عن أربعة أشـهر من الفساد» .

وفـى تلك الحالة تتحول عملية الانتخاب الشـعبية إلى .. توقيع على بياض .. يقدمه الشعب إلى الرئيس المنتخب . فالشعب يعطى توقيعه مقدما دون أن يعرف بالضبط .. ماهى الالتزامات التى سيتحملها .

ومـع ذلك فنحن نلاحظ أن بعض فقهاء القانون الدسـتورى فى العالم يبدون إعجابهم بالنظام الرئاسـى المطبق فى الولايات المتحدة . إن السـبب فى ذلك هو ما يتمتع به النظام الرئاسى هناك من الإستقرار .. وهو أمر تفتقر إليه أنظمة برلمانية كثيرة .

ولكن هذا الرأى عليه ردود كثيرة .. وهى أيضا ردرد يقدمها أساتذة آخرون فى القانون الدستورى .

فأولا : أن النظام الرئاسى الأمريكى لا يحتكر وحده صفة الاستقرار . هناك نظم برلمانية أخرى مستقرة .. كانجلترا والسويد وهولندا والدانمرك .

وثانيا : أن الاسـتقرار السياسـى لا قيمة له إذا لم يصاحبه اسـتقرار إدارى واستقرار اقتصـادى . والجهـاز الإدارى فى أمريكا يعانى من .. نظام الغنائم . وهو نظام تعيين كبار الموظفين بناء على حزبهم السياسى ، وليس بناء على كفاءتهم وحدها .

ثالثـا : إن كثيرا من الدول التى اقتبسـت النظام الرئاسـى الأمريكى .. تحولت فيها السـلطات الواسعة لرئيس الجمهورية إلى سـلطات ديكتاتورية .. وهذا واضح فى كثير من جمهوريات أمريكا اللاتينية .

رابعا : إن توسـيع سـلطة الرئيـس فى النظـام الأمريكى يقابله أنه لا يملك سـلطة حـل المجلس النيابى . ويقابله أيضا أن مجلس الشـيوخ يشـترك مـع الرئيس فى بعض اختصاصاتـه الهامـة .. كتعيين الوزراء والسـفراء والقناصل وقضاة المحكمـة العليا وكبار الموظفين . فالدسـتور الأمريكى يشـترط موافقة مجلس الشـيوخ على تعيينهم . صحيح أن

العـرف هناك جرى على ألا يعترض مجلس الشـيوخ على اختيـارات الرئيس .. من باب المجاملة .. ولكنه دستوريا يملك ذلك . وقد اعترض فعلا فى ست مرات .

وعمومـا .. فقبـل أن نـترك النظام الرئاسـى .. علينـا أن نلاحظ أنه يتميـز بأمرين أساسيين :

فأولا : الحكومة غير مسئولة سياسيا أمام البرلمان .. بعكس النظام البرلمانى .

وثانيا : أن رئيس الدولة هو نفسه رئيس الحكومة .

هذا إذن هو النظام الرئاسى وأشهر تطبيق له . إنه يعتمد على وجود انفصال شبه مطلق بين السـلطات الرئيسـية الثلاث فى الدولة : التنفيذية والتشـريعية والقضائية . ورئيس الدولة هو أيضا رئيس الحكومة . وهو ينتخب مباشرة من الشعب .. وبالتالى فهو فى مركز قوى مواجه للبرلمان .

❑❑❑

ولكـن النظـام البرلمانى يختلف عن ذلك .. وهو النظام السـائد فى أغلب دول العالم . وهو يطبق فى دولة ملكية .. أو فى دولة جمهورية . ولكن له خصائص واحدة فى كل من الدول الملكية والدول الجمهورية .

وللنظام البرلمانى خصائص محددة هو الآخر . فقواعده الأسـاسـية تنحصر فى مجالات ثلاثة هى :

- برلمان منتخب .
- رئيس الدولة .
- الوزارة .

فبالنسـبة للبرلمان .. نجد أن وظيفته فى النظام الرئاسـى الأمريكى مثلا هى التشـريع فقط . أما فى النظام البرلمانى فوظيفة البرلمان تزيد عن مجرد التشريع . إنها تشمل مراقبة الحكومة (السـلطة التنفيذية) ومحاسبتها عن أعمالها وإسقاطها فى حالة الضرورة . ومن ثـم .. ففـى النظام البرلمانى يكـون للبرلمان ثلاث وظائف : التشـريع .. وإقرار الضرائب والرسوم .. ومراقبة الحكومة ومحاسبتها وسحب الثقة منها .

هذا بالنسبة للبرلمان .

أمـا بالنسـبة لرئيـس الدولة .. ففى النظـام البرلمانى لايكون رئيـس الدولة هو رئيس الحكومة . فإذا كانت الدولة ملكية فرئيس الدولة هو الملك . وإذا كانت جمهورية فرئيسها هو رئيس الجمهورية . وفى الحالتين يكون رئيس الحكومة هو رئيس الوزراء .

ويتميز النظام البرلمانى أيضا بأن رئيس الدولة غير مسئول أمام البرلمان .

ولكن أعمال الدولة تتطلب وجود شـخص مسـئول يمكن محاسـبته . ولذلك فالوزراء هم المسـئولون سياسـيا أمام البرلمان عن أعمال الملك مثلا .. ورئيس الحكومة – والوزراء – مسئولون عن أعمالهم أمام البرلمان .

وليس معنى ذلك أن رئيس الدولة فى النظام البرلمانى ليسـت لديه سـلطات . لا . أن لديه سلطة تعيين وعزل الوزراء . ولديه سلطة حل البرلمان ، ما دام البرلمان من حقه سحب الثقة بالحكومة .

أمـا بالنسـبة للوزارة فـى النظام البرلمانى فهى مسـئولة تضامنيا عن سياسـتها أمام البرلمان . والوزراء مسـئولون فرديا أيضا أمام البرلمان . والوزارة عليها أن تسـتقيل فورا إذا سحب منها البرلمان ثقته .

والمسـئولية الجماعيـة التضامنية للوزارة هى أهم الخصائص المميـزة للنظام البرلمانى . وينفرد النظام البرلمانى وحده بوجود هذه المسـئولية التضامنية للوزراء فى أى دسـتور لأى دولة يجعل النظام السياسى القائم فى ظل هذا الدستور نظاما برلمانيا .

وإلى جانـب ذلـك يتميز النظـام البرلمانى بـازدواج الجهاز التنفيـذى . فهناك رئيس الدولة ، وهناك رئيس الحكومة . الأول غير مسـئول عن أعماله كما سـبق القول . والثانى يرأس هيئة جماعية هى مجلس الوزراء .. الذى يكون مسـئولا عن وضع السياسـة العامة للحكومة ، ويسأل أعضاؤها جميعا بالتضامن عن تلك السياسة العامة .

والنظام البرلمانى لا يفصل تماما بين السلطات كما يحدث فى النظام الرئاسى .

والنظام البرلمانى نشأ أصلا فى انجلترا . ويسميه الإنجليز «حكومة الوزارة» نظرا لأهمية الدور الذى تلعبه الوزارة فى هذا النظام .

وقد عرفت انجلترا هذا النظام فى القرن التاسع عشر لأول مرة . ومن يومها وهذا النظام ينتشـر فى العـالم ويتطور . إلا أنه عاد مرة أخرى وتعرض لموجة انحسـار جديدة . وفى

الدول التى تطبق النظام البرلمانى فى الوقت الحاضر .. فإن الشكل الذى يطبق به ليس هو الشكل التقليدى الذى نشأ فى الأصل .

❑❑❑

ونعود إلى مصر .

لقد عرفنا خصائص كل من النظامين .. الرئاسى والبرلمانى . والسؤال هو : أى هذين النظامين أخذت به الدساتير المصرية ؟

أن الإجابة على هذا السؤال تستدعى الرجوع إلى الدساتير التى صدرت بمصر ، وظروف أصدارها .

ففى سنة ١٨٣٧ أصدر محمد على قانونا أساسيا يعرف بقانون «السياستنامة» .. نظم بمقتضاه أمور الحكومة فى مصر ، ووضعها فى سبعة دواوين تمثل السلطة التنفيذية .. وبجانبها عدة مجالس .

إلا أن هذه المجالس لم تكن سوى مجالس استشارية لرغبات الوالى .. مثلما أصبحت الدواوين جهات تنفيذية لرغبات الوالى .

وقد استمرت الصفة الفردية المطلقة تطبع نظام الحكم فى مصر بعد وفاة محمد على .. فاستمرت فى عهود ابراهيم وعباس وسعيد .. إلى أن جاء عهد الخديو إسماعيل .

❑❑❑

ففى ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦ أصدر الخديو إسماعيل لائحة بإنشاء مجلس شورى النواب .. وهو أول مجلس نيابى يتكون فى مصر . ولائحة إنشائه تتكون من ١٨ مادة ، بالإضافة إلى لائحة أخرى من ٦١ مادة تعرف باسم «اللائحة النظامية» .. وهى بمثابة لائحة داخلية للمجلس .

ولم يتمتع مجلس شورى النواب بأية سلطات . فالبند الأول من اللائحة الأساسية ينص على أن «تأسيس هذا المجلس مبنى على المداولة فى المنافع الداخلية والتصورات التى تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس . ليصير المذاكرة وإعطاء الرأى عنها وعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية» .

ويرى فقهاء القانون الدستورى أن مجلس شورى النواب لايمكن اعتباره مجلسا نيابيا بالمعنى القانونى السليم .. سواء كان ذلك من ناحية ممارسة حق الانتخاب الذى قصر فقط

على مشــايخ البلاد فى الأقاليم وعلى وجوه وأعيان مدن القاهرة والإســكندرية ودمياط دون بقية أفراد الشــعب .. أو من ناحية اختصاصه .. إذ كان مجرد مجلس استشارى لا يتمتع بسلطات فعلية أصلية .

وقــد أصدر اسماعيل أيضا أمرا كتابيا فى ٢٨ لأغســطس ســنة ١٨٧٨ بإنشــاء مجلس النظار . وصدر الأمر إلى نوبار باشــا لتكليفه بتأليف هذه الوزارة .. التى يشير إليها غالبية الفقه المصرى باعتبارها أساس نشأة نظام الوزارة المسئولة فى مصر .

وسرعان ما أدت الأزمة المالية بمصر والتدخل الأجنبى فى شئونها إلى تدهور الأوضاع .. فبدأ مجلس شورى النواب ينادى بضرورة محاسبة الوزارة عن تصرفاتها . ولذلك استصدر الخديو مرسوما بفض المجلس . وكان الأعضاء يتحسبون لذلك .. فقرروا عدم الإذعان لرغبة الخديو .. وأعدوا عريضة للخديو فى ٣ ابريل ســنة ١٨٧٩ عرفت باسم«اللائحة الوطنية». لقــد طالب النواب فى العريضة بتعديل نظام مجلس شــورى النــواب وتحويله إلى مجلس نيابى حقيقى تكون الوزارة مسئولة أمامه .

ونتيجة لذلك قام شــريف باشا بتأليف وزارة وطنية اســتبعد منها الوزيرين الأجنبيين المفروضين على مصر . وتقدم فى ١٧ مايو ســنة ١٨٧٩ بمشــروع لدســتور جديد مبنى على الأسس الديموقراطية الصحيحة .

ولم يصدر هذا الدستور لأن قرار عزل الخديو صدر من السلطان التركى (حيث كانت مصر ما تزال ولاية تابعة له) فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ .. وتولى الحكم من بعده ابنه توفيق .

ولكن من المفيد أن نعلم - من زاوية اهتمامنا هنا - أن مشــروع دســتور ســنة ١٨٧٩ قد أخذ بالنظام النيابى كاملا .. فهو ينص على وجود برلمان منتخب شعبيا .. وعلى أن عضو البرلمان يمثل الأمة كلها .. وعلى استقلال أعضاء البرلمان عن الناخبين .. وعلى مدة محددة للعضوية .. واختصاصات محددة للاشــتراك مع الحكومة فى السلطة . لقد أعطى لمجلس النواب سلطة إقرار القوانين قبل التصديق عليها من الخديو . ونص على مسئولية «مجلس النظــار» أمام مجلس النواب . بل ونصت المــادة ٤٣ منه على أن«النظار ملزمون بالمجاوبة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب» .

كذلك نص مشروع الدستور هذا فى المادة ١١ على أنه : «إذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الأســباب ولم تستعف

النظـارة .. فللحضرة الخديوية أن تأمر بفض مجلـس النواب وتجديد انتخاب أعضائه ، على شرط ألا تتجاوز مدة الإنتخاب أربعة أشهر من يوم انفضاضه إلى يوم اجتماعه...».

ولم يصدر هذا الدستور بسبب تعيين خديو جديد لمصر هو توفيق . وعلى هذا فإن الحكم في مصر اسـتمر حتى تلك الفترة حكما فرديا مطلقا مكبلا بالتدخل الأجنبى فى الشـئون الداخلية لمصر .

ولكن حدث في ٩ سـبتمبر سـنة ١٨٨١ أن رفع الثوار برئاسة زعيم الثورة أحمد عرابى مطالبهـم إلى الخديـو توفيق . وتحت ضغط الثورة اضطر توفيق بعد مماطلات عديدة إلى أن يصدر دستورا فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ .

كان هذا الدسـتور يعبر عن إرادة الشـعب كما ظهرت في مشروع دستور سنة ١٨٧٩ . والإسم التاريخى لهذا الدستور هو «اللائحة الأساسية» . ولكنه برغم ذلك يعتبر من الوجهة القانونية دسـتورا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة . وهو يعتبر أول دسـتور فى مصر يقيم نظاما ديموقراطيا صحيحا .

وقـد أخذ هذا الدسـتور بالنظام النيابـى (البرلمانى) . فهو يقرر وجـود مجلس نواب منتخب من الشـعب . وكل نائب يعتبر «وكيلا عن عموم أهالى القطر المصرى لا عن الجهة التى انتخبته فقط» . ومدة العضوية خمس سـنوات .. وللنواب «مطلق الحرية فى إجراء وظائفهم . وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم . ولا بوعد أو وعيد يحصل إليهم» . والدسـتور يشـترط موافقة المجلس على مشـروعات القوانين قبل التصديق عليها من الخديو . وله حق إقرار الميزانية ..ولا يجوز فرض ضرائب أو رسـوم أو عوائد إلا بمقتضى قانون يقره المجلس .

وأخذ الدسـتور أيضا بمبدأ المسـئولية التضامنيـة للوزارة . فـ : «النظـار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار ويترتب عليه إخلال بالقوانين واللوائح المرعية الإجراء» . و : «كل من النظار مسئول .. عن إجراءاته المتعلقة بوظيفته» .

أما الخديو فهو لا يتمتع بسلطة فعلية .. ولذلك فهو غير مسئول أمام مجلس النواب .

❑❑❑

فهذا الدسـتور قد قرر إذن الأخذ بالنظام البرلمانى . هذا النظام الذى يقوم على أسـاس عدم مسـئولية رئيس الدولة . ووجود مجلس للوزراء تتقرر مسـئوليته التضامنية والمسئولية

الفردية لكل وزير منه . وأخيرا على حق الخديو فى حل المجلس النيابى كسـلاح مضاد للمسئولية الوزارية .

ولكن الحياة البرلمانية فى ظل هذا الدستور لم تستمر إلا عدة أشهر قليلة . فقد رأت انجلترا وفرنسا أن البلاد قد سادها حكم دستورى يقوم على نظام نيابى برلمانى صحيح . وهكذا أرسلتا إلى خديو مصر بمذكرة مشتركة تحتمان فيها إسقاط الوزارة .

وبالفعل قدم رئيس الوزارة (محمود سامى البارودى) استقالة الوزارة إلى الخديو .. محملا إياه تبعة تدخل الدولتين الأجنبيتين فى شئون البلاد . وتطور الموقف سريعا بتحالف الخديو مع الإنجليز .. الذين سارعوا باحتلال مصر .

وهكذا انحصرت فترة العمل بالدستور ما بين ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ و١٤ سبتمبر من السنة نفسها – تاريخ احتلال الإنجليز للقاهرة .

وسرعان ما قام الإنجليز بإلغاء دستور ١٨٨٢ . وصدر بدلا منه «القانون النظامى» فى أول مايو سنة ١٨٨٣ فأعاد الحكم المطلق مرة أخرى .. وأعطى السلطة فى هذه المرة للمحتل الإنجليزى . وكان «القانون النظامى» يقيم حكما رجعيا مطلقا ويعطى الطابع الاستشارى البحت لعدة مجالس صورية .. بعيدة تماما عن النظام النيابى الصحيح .

❑❑❑

ولكن الوعى الوطنى فى مصر هب ثانية بزعامة مصطفى كامل . وتحت ضغط تلك الحركة الوطنية وسعيا لتهدئتها تقرر العدول عن «القانون النظامى» لسنة ١٨٨٣ وإلغاء نظام مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية . وحل محلهما نظام الجمعية التشريعية بمقتضى القانون النظامى رقم ٢٩ لسنة ١٩١٣ .

وقد نص ذلك النظام على إنشاء جمعية تشريعية فى البلاد تتكون من عدد من الأعضاء ، جزء منهم بالتعيين وجزء آخر بالإنتخاب . مدة العضوية للجميع ست سنوات . ويجوز حل الجمعية التشريعية . واختصاصاتها كلها استشارية غير ملزمة إلا بالنسبة لفرض الضرائب والرسوم . ويحظر على الجمعية – بحكم القانون – أن تنظر أو تبدى الرأى فى مسائل معينة .. منها العلاقات الدولية بين مصر والدول الأجنبية .. ومخصصات الخديو . ولأعضائها حق توجيه أى سؤال للوزراء . ولكن الوزراء أحرار فى الإجابة أو عدم الإجابة .

فقانون سنة ١٩١٣ هو قاعدة للحكم المطلق بوضوح . وعموما فقد مارست تلك الجمعية التشريعية عملها خمسة أشهر فقط . بعدها قامت الحرب العالمية الأولى . ثم فرضت بريطانيا حمايتها على مصر . وأصبح حسين كامل سلطانا للبلاد . فأجل انعقاد الجمعية لأجل غير مسمى .

□□□

ونقفز الآن مباشرة إلى سنة ١٩٢٣ .. فهى السنة التى صدر فيها الأمر الملكى رقم ٤٢ من الملك فؤاد بإصدار الدستور .

ونحن لا نناقش هنا الظروف التى صدر فيها دستور سنة ١٩٢٣ . هذا موضوع آخر . فالمهم إذن أن دستور سنة ١٩٢٣ يضم ١٧٠ مادة . وقد أخذ بالنظام البرلمانى كشكل للحكم فى مصر . وقرر أن السلطة التشريعية تكون فى يد برلمان مكون من مجلسين ، هما مجلس النواب ومجلس الشيوخ . وقرر مسئولية الوزراء أمام مجلس النواب (مادة ٦١) .. وأعطى للملك فى مقابل ذلك الحق فى حل مجلس النواب (المادتان ٨٨ و ٨٩) .. والحق فى اقتراح القوانين .. والملك هو الذىيصدق على القوانين التى يوافق عليها البرلمان .

فدستور سنة ١٩٢٣ أخذ بكل أركان النظام البرلمانى : فرئيس الدولة (الملك) غير مسئول سياسيا . إنه يسود ولا يحكم . وهناك مجلس للوزراء متضامن فى المسئولية . والوزارة مسئولة سياسيا أمام البرلمان . وللملك حق وسلطة حل البرلمان .

ونلاحظ هنا أن البرلمان فى مصر فى ظل دستور سنة ١٩٢٣ كثيرا ما كان يعجز عن القيام بدور فعال . فقد وافق البرلمان على قوانين منافية لمبادئ الحرية كانت قد صدرت قبل وضع دستور سنة ١٩٢٣ ولكنها مع ذلك ظلت نافذة بعده ولم يقم البرلمان بإلغائها .

وفى ظل دستور سنة ١٩٢٣ أيضا شهدنا برلمانا فى مصر يقول رئيسه للأعضاء : «هل تريدون أن تسمعوا هذا المعارض ؟» .. ثم يمنعه من الكلام .

كان هذا يحدث فى ظل الدستور . مع أن جوهر الديموقراطية فى رأى الفقهاء الدستوريين هو : «.. إنها تضمن حرية النقد وتتيح فرصة المقاومة التى يبديها الفكر الحر لكل قاعدة أو نظام قبل الخضوع لهما» .

وعموما . فقد ألغى دستور سنة ١٩٢٣ .. وصدر دستور آخر فى مصر فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ . وقد أخذ الدستور الجديد مثل سابقه بالنظام البرلمانى . مع توسيع سلطات

الملك على حساب البرلمان . ثم ألغى هذا الدستور فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ وأعيد العمل بدستور سنة ١٩٢٣ .

وظل دستور ١٩٢٣ قائما فى التطبيق إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فأعلنت إلغاءه فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وبدأت اجراءات وضع دستور جديد .. تم إعلانه فعلا فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ .

❑❑❑

وبصدور دستور سنة ١٩٥٦ بدأت مرحلة جديدة فى الحياة البرلمانية فى مصر . فقد عكس هذا الدستور التطورات الجذرية التى شهدتها الحياة السياسية فى مصر من ناحية.. وعلاقة الحاكم بالشعب من ناحية أخرى .

فدستور ١٩٥٦ لم يكن منحة من الحاكم إلى الشعب كما كان دستورى ١٩٢٣ و١٩٣٠ . أن مقدمته تبدأ بـ «نحن الشعب المصرى» بدلا من «نحن ملك مصر» . وهو من ناحية أخرى أول دستور يصدر فى مصر فى ظل النظام الجمهورى الذى أعلنته الثورة . وقد تميز دستور ١٩٥٦ بنواح كثيرة يختلف فيها جذريا عن الدساتير التى سبق العمل بها فى مصر .

ولكن السؤال الذى نناقشه هنا هو : هل أخذ دستور ١٩٥٦ بالنظام البرلمانى ، أم بالنظام الرئاسى ؟

الحقيقة أن دستور سنة ١٩٥٦ أخذ بجانب من مظاهر النظام البرلمانى . وجانب من مظاهر النظام الرئاسى . فمن النظام البرلمانى قرر الدستور حق أعضاء مجلس الأمة (البرلمان) فى توجيه أسئلة واستجوابات للوزراء . وقررت المادة ١١٣ من الدستور المسئولية الفردية للوزراء أمام مجلس الأمة . ومقابل ذلك فالسلطة التنفيذية (رئيس الجمهورية) هى التى تدعو البرلمان إلى الانعقاد وتفض دورة انعقاده . ولرئيس الجمهورية حق اقتراح القوانين والاعتراض عليها وإصدارها .. وله حق حل مجلس الأمة .

أما بالنسبة لمظاهر النظام الرئاسى فقد قرر دستور ١٩٥٦ أن يجمع بين صفتى رئيس الدولة ورئيس الحكومة فى شخص واحد هو رئيس الجمهورية . والتعبير القانونى لفقهاء القانون الدستورى هو : أن دستور ١٩٥٦ أخذ بنظام برلمانى ناقص .. وأخذ بأحد مظاهر النظام الرئاسى الذى يجمع بين صفتى رئيس الدولة ورئيس الحكومة فى شخص واحد .

وانتقلت الحياة النيابية بعد ذلك إلى مرحلة جديدة بصدور دستور جديد ، هو الدستور المؤقت الذى أعلن فى الخامس من مارس سنة ١٩٥٨ عقب قيام الوحدة بين مصر وسوريا .

ومن وجهة اهتمامنا هنا فإن دستور ١٩٥٨ أخذ بالنظام الرئاسى المطعم ببعض مظاهر النظام البرلمانى مثلما حدث فى دستور ١٩٥٦ . وقد حدث نفس الشىء تقريبا فى الدستور التالى ، وهو الدستور المؤقت الصادر فى سنة ١٩٦٤ .

❑❑❑

.. ثم ماذا ؟

أن كل النظم السياسية – بما فيها النظامان الرئاسي والبرلمانى – تصب فى النهاية فى مجرى واحد هو : تحقيق درجة أكبر من الديموقراطية .

إن كلمة الديموقراطية فى العصر الحديث قد اكتسبت معانى جديدة لم يعرفها الإنسان فى الأزمنة القديمة . فمثلا ، كان معنى الحرية فى الأزمنة القديمة يقتصر فقط على الحرية السياسية . فعلى الرغم من أن المدن اليونانية القديمة قبل الفىَ سنة قد عاشت فى ظل نظام ديموقراطى مباشر .. إلا أنها لم تعرف الصورة المعاصرة للحرية . كان يصح مثلا نفى أى فرد بدون محاكمة .. بل ودون أن يتهم أصلا بارتكاب جريمة محددة . وكثير من حكومات المدن اليونانية القديمة كانت تحرم على الإنسان أن يبقى أعزب . وكان القانون فى اسبارطة مثلا يقرر للنساء نظام تسريحة الشعر .

وفى إحدى المواقع الحربية هزمت اسبارطة . فقررت الحكومة أنه يجب على أهالى الموتى أن يظهروا بوجوه ضاحكة مستبشرة .. وأن الأم التى ينجو ابنها من الموت .. عليها أن تلاقيه باكية !

إلى تلك الدرجة إذن كانت الحريات الشخصية ضيقة .. أو مختفية !

ولكن العصر الحديث يشهد توسيعا مستمرا لمفهوم الحرية . والنظم السياسية الحديثة ما هى إلا وجهات نظر مختلفة لضمان الحرية . ومن بين هذه النظم طبعا النظامان البرلمانى والرئاسى .

❑❑❑

والسؤال الآن من وجهة اهتمامنا هنا هو : أيهما أفضل من الآخر .. النظام الرئاسى .. أو النظام البرلمانى ؟

والسؤال بهذا الشكل مضلل .

فلا يوجد نظام أحسـن أو أسوأ من الآخر . فأحيانا يكون النظام موجودا على الورق .. مختفيا من الواقع . إن التطبيق إذن هو المقياس الحقيقى لكفاءة كل من النظامين . والبرلمان فى الحالتين يستطيع أن يمارس دورا فعالا .. أو لا يمارسه .

فالحرية – كما يقول مونتسكيو – لن تكون فى أمان من الاعتداء عليها إذا كانت هيئة من الهيئات تجمع فى قبضة يدها سـلطة كبيرة ، حيث تسـتطيع أن تفرض إرادتها دون أن تجد أمامها هيئة أخرى تمنعها من الخطأ .

وكل نظام سياسى لابد أن يكون فيه – بشكل ما – فرامل .. تمنع هذا الخطأ .

ولهذا السبب فإن المؤرخين يعتبرون أن التطبيق العملى ، وليس مجرد نصوص الدستور ، هو المقياس .. ويعتبرون أن البرلمان هو .. دفتر يوميات يسجلون منه التاريخ الحقيقى لكل مجتمع .

و ...

أحيانا يكون دفتر اليوميات هذا مليئا بمساحات بيضاء كثيرة !



الأحزاب السياسية : لماذا .. وكيف ؟

هل الحزب هو مجرد «مجموعة من الناس يؤمنون بنفس النظرية السياسـية» كما يقول علماء السياسة ؟

هل الحزب هو «مجموعة من الناس تحاول أن يفوز مرشـحون عنها في الإنتخابات .. بهدف تولى المناصب العامة» كما تقول دوائر المعارف ؟

هل الحزب هو مجرد «الرأى المنظم» .. كما يقول خبراء الإعلام ؟

ثم : لماذا يوجد الحزب أصلا ؟

إن الأحزاب السياسـية ظلت سـيئة السمعة حتى وقت قريب ، وفى بلاد عريقة . فى القرن الثامن عشـر مثلا ، كان الزعيم الأمريكى جورج واشنطون يحذر فى خطابه الوداعى من «التأثيرات الضارة للروح الحزبية بصفة عامة».

.. وحتـى فـى القرن العشـرين ، مـازال مألوفا حتى الآن أن نسـمع قطاعا كبيرا من النـاس ، وفى بلاد عديـدة ، يتحدثون عن الأحزاب باحتقار شـديد . فى ألمانيا الغربية مثلا ، حيث لم يكن للأحزاب السياسـية نفس الجذور العميقة والمحبة العاطفية التى لها فى الولايات المتحدة وبريطانيا ، ما زال كثيرون من الألمان يفخرون بأنهم «فوق الأحزاب». نفس الشىء فى اليابان ، حيث المواطن العادى ينظر إلى الزعامات الحزبية بكثير من الشك وقليـل مـن الإطمئنان . وفى الهند (أيام نهرو) كانت هناك أصوات غاضبة ومرتفعة ترى أن الأحزاب لا ضرورة لها ولا جدوى منها .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٦/١١/١٧ .

إذن .. لماذا الأحزاب ؟

إننـــا لو تركنا خصوم الأحزاب جانبا ، فســوف تكون الإجابة هى : إن الأحزاب هى وسيلة إلى الديموقراطية .

وما هى الديموقراطية ؟

إن أبسط تعريف للديموقراطية حتى الآن هو : إنها نظام يقوم فيه المحكومون باختيار من يحكمهم ، عن طريق الإنتخابات الحرة والمفتوَحة .

هنا بالضبط تبدأ ضرورة الأحزاب .

فمـــع اتجاه الحياة الحديثـــة إلى التعقد ، ومع اتجاه المجتمع الحديث إلى الضخامة ، أصبحـــت إمكانيات الفرد الواحد فى مواجهة النظام السياســـى الحاكم تضعف وتضعف . إن هذا الشـــخص الواحد أصبح يكتشـــف أنه لا يســـتطيع وحده أن يتحكم فى القرارات الكـــبرى التى تتخذها حكومتـــه بعيدا عنه ، ولكنها يمكن أن تمس صميم حياته اليومية . إن الحكومـــة تقـــول دائما إنها تتصرف لصلحته - فكل حكومة تقول ذلك - ولكن من أين للحكومة أن تعرف .. حقا وعدلا .. مصلحته ؟

مـــن هنـــا ظهر الحزب ليمـــارس وظيفة محددة ، هـــى إعطاء رجل الشـــارع صوتا مؤثرا فى السياسات الكبرى لبلده . إن الفرد بمفرده لا يستطيع أن يؤثر . ولكنه لو تجمع مع مليون آخر ، مـــع مليونـــين آخرين . واختاروا عنهم نوابا دائمين .. يعبرون عن مصالحهم خارج الســـلطة .. وينفذون مصالحهم فعلا داخل السلطة .. فإن الوظيفة تكون قد تمت .. والمهمة أنجزت .

أن الأحـــزاب بـــدأت إذن مع بداية عصـــر الجماهير الكبيرة فى السياســـة . وإذا كان عمر الأحزاب السياســـية - كمنظمات - يقترب الآن من قرنين من الزمان .. فإن الحزب السياسى ، بمفهومه الحديث ، يعتبر فى الواقع : اختراع القرن العشرين .

أن كل الدســـاتير تعطى للفرد العادى حقوقا سياســـية معينة . ولكن وجود هذه الحقوق شىء .. وممارستها شىء آخر مختلف . فى فرنسا مثلا . يستطيع كل شخص - نظريا - أن يرشـــح نفســـه لرئاسة الجمهورية . ولكنه عمليا ـ لا يستطيع ذلك . إلا إذا كان يسانده حزب .. أو مجموعة أحزاب . فى بريطانيا .. يســـتطيع كل شـــخص أن يرشح نفسه نائبا فى مجلس العموم (بعد أن يدفع قيمة التأمين) . ولكن فى التطبيق . لا أحد يملك فرصة النجاح غالبا بغير وجود حزب سياسى قوى يؤيده ويدعمه .

أن الحـــزب السياســـي هـــو إذن منظمة يجمعها مبـــدأ محدد .. أو نظريـــة محددة .. تســـتهدف الوصول إلى الســـلطة بطريق الإنتخاب ، وتسعى للتعبير عن الرأى العام كوسيلة للنجاح فى هذا الإنتخاب .

إن الرأى العام – قبل وجود الحزب السياسى – هو مجرد رأى خام .. ثم يأتى الحزب السياسى لكى يصنع منه رأيا «معجونا» أو مشكلا حسب نظرية الحزب .

ولكـــن الأحزاب فـــى المفهوم الحديث لا تكتفى بمجرد التعبير عـــن الرأى العام . إنها فـــى الواقـــع تبلوره وتشـــكله بأكثر مما تشـــوهه . وهى تمارس معه حـــوارا أكثر مما تردده كصدى . فبغير الأحزاب هناك فى الرأى العام اتجاهات غامضة وغريزية ومتنوعة .. تعتمد على شـــخصية كل فرد وتعليمه وعاداته ومركزه الاجتماعى وتطلعاته وطموحاته ومصالحه الاقتصادية .. إلخ .

والأحـــزاب السياســـية لا تمارس هذه الوظيفة بالضرورة فـــى كل البلاد وفى ظل جميع الظـــروف . فمـــن المعروف مثلا أن البلاد التى لا توجد فيهـــا للتقاليد الديموقراطية أقدمية زمنيـــة كافية .. وليس للأحزاب السياســـية فيها جذور قويـــة .. فإن نتائج الإنتخابات لا تأتـــى دائمـــا معبرة بصورة دقيقة عن اتجاهات الرأى العام .. كما أن كل انتخاب يمكن أن تأتى نتائجه مختلفة تماما – بل وربما مفاجئة – عن الإنتخاب السابق .

وحتـــى فـــى البلاد العريقة فى الديموقراطية ، هناك فرق بين تأييد الرأى العام للحزب كبرنامج ، وتأييده له كقيادات . إن الرأى العام يتم اســـتخراجه أساســـا من مجموع الآراء الخاصـــة للأفراد . ومن أجل هذا يقوم الحزب السياســـى بدخـــول الانتخابات العامة على أســـاس برنامج انتخابى معلن . فى هذا البرنامج الانتخابى يكون هدف الحزب هو جذب أكـــبر عدد ممكـــن من الأصوات الانتخابية عن طريق اقـــتراح أهداف محددة يخاطب فيها مصـــالح أكـــبر عدد من الأفـــراد . إن وقوف الأفـــراد إلى جانب هذه الأهـــداف ليس معناه بالضرورة وقوفا مع الحزب نفسه ككل ، والعكس بالعكس .

وقـــد حدث فى فرنســـا مثـــلا فى ســـنة ١٩٥٦ أن أعطى أكثر مـــن ٢٥٪ من الناخبين الفرنســـيين أصواتهم إلى مرشـــحى الحزب الشيوعى الفرنسى .. بينما كان العدد الأكبر من هؤلاء يقف ضد الشيوعية كإيديولوجية وضد الحزب الشيوعى نفسه كبرنامج شامل . ولكن

الذى حدث هو أن الجزء الأكبر من هؤلاء الناخبين كان يتفق مع الحزب فى قضية محددة ضمن برنامجه .

إن هــذه الظاهــرة ، وكثير غيرها ، هى دائما الســبب فى أن بعــض الخبراء يعتبر أن الأحزاب السياســية لا تعطى دائما أصدق تعبير عن الرأى العام . حســنا . ربما يكون هذا صحيحــا . . ولكــن حتى الآن لم تخترع الديموقراطية شــيئا أفضل . فالرأى العام ، بغير منظمات كبرى تنبع منه متعبر عنه ، يظل شيئا متغيرا وغامضا ومتذبذبا وغير مستقر . إن الأحزاب السياســية هى إذن إحدى الوسائل التى تلم شمل الأفراد المبعثرين والمتناثرين .. تحت برنامج واحد .. وفى تنظيم محدد .. وداخل حزب واحد ، يتنافس بدوره عن طريق الانتخابات الحرة والمفتوحة مع الأحزاب الأخرى .

□□□

لــماذا إذن يختلــف النظام الحزبى من دولة إلى أخرى ؟ لــماذا تأخذ بعض البلاد بنظام الحزب الواحد .. وبعضها بنظام الحزبين .. وبعضها بنظام تعدد الأحزاب ؟ بل ولماذا تقرر بعض البلاد أن ترفض نظام الأحزاب جملة وتفصيلا ؟

إن السؤال الأخير لا مكان لإجابته هنا من زاوية اهتمامنا الآن . ومن هنا سوف أقتصر هنا على النظام الحزبى نفســه .. ما الذى يجعله مكونا من حزب واحد .. أو من عشــرين حزبا ؟ ثم .. كيف يؤثر عدد الأحزاب نفسه على صفات وملامح كل حزب ؟

من الناحية المبدئية هناك ظروف خاصة بكل بلد ، وكل حزب على حدة ، تتحكم فى ظروف نشــأته . والظروف الخاصة نجدها فى التقاليد الســائدة فى المجتمع ، وتاريخه ، وبنائــه الاجتماعى والاقتصادى ، ومعتقداته الدينية ، وخصوصياته القومية .. وهكذا . إن نشأة الحزبين الجمهورى والديموقراطى فى الولايات المتحدة مثلا .. والتنافس أو الخصومة بينهما .. نشــأت من الخصومة بين جيفرسون وهاميلتون فى السنوات المبكرة للاتحاد بين الولايات ، التى كانت فى الأصل دولا مستقلة .

وانشقاق الجناح اليمينى فى فرنسا ونشأة الحزب الراديكالى ، يرجع إلى موقف سياسى خاص نشــأ فى فرنســا فيما بين ســنتى ١٨٧٥ و ١٩٠٠ . وفى الدول الإسكندنافية تتميز الأحزاب الزراعية بعناد يرجع فى أصله إلى منتصف القرن التاســع عشــر . حيث كانت

مصالح القرية تتعارض مع مصالح المدينة .. والفلاحون ضد النبلاء .في النمسا قبل الحرب العالمية الأولى ، وفى تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الثانية ، كانت الأحزاب السياسية انعكاسا للخصومات بين القوميات المختلفة التى يضمها كل من البلدين .. إلخ .

أما العوامل التى تؤثر على النظام الحزبى فهى عوامل اجتماعية / اقتصادية .. وعوامل ايديولوجية .. وعوامل فنية .

● أن تأثـير التركيـب الطبقى لكل مجتمع يؤثر قطعا علـى بنائه الحزبى . ففى أوربا القرن التاسع عشر مثلا كان الصراع أساسا بين الملاك الأرستقراطيين للأرض .. وبين طبقة التجـار . لهـذا كانت الأحزاب تتراوح بـين المحافظين المعبرين عن المـلاك .. والأحرار المعبرين عن التجار . وعندما ظهرت الأحزاب الاشـتراكية فى بداية القرن العشـرين كان ظهورها مصاحبا لدخول طبقات العمال الصناعيين إلى الحياة السياسية .

● هناك أيضا الإيديولوجيات السياسية للأحزاب . فكل ايديولوجية تخاطب مصالح قطاع مـن المجتمـع تعبر عنه ، وتقوم بدور المغناطيس الذى يجذب هذا القطاع إلى الحزب . أن الاسـتثناء الوحيـد لذلك هو الحزبان الجمهورى والديموقراطـى فى أمريكا . فبرامج هذين الحزبـين لا تخاطـب طبقات فى المجتمع ، والتجانـس الاجتماعى ليس موجودا فى أى منهما .

● أما العوامل الفنية فهى أساسـا النظام الانتخابى المعمول به فى المجتمع . فحيث يعتمد النجاح فى الانتخابات على نظام التصويت من درجة واحدة والأغلبية البسـيطة (كما فى مصر) .. يؤدى هذا غالبا إلى تبلور النشـاط السياسـى حول حزبين كبيرين . وحينما يوجد نظـام التمثيل النسـبى . حيث يحصل كل حـزب على مقاعد فى البرلمان تعادل نسـبة الأصوات التى حصل عليها ، فإن هذا يشجع عمليا على تعدد الأحزاب .

□□□

تبقـى بعد ذلـك المقارنة بين النظم الثلاثة للأحزاب : نظـام الحزب الواحد .. ونظام الحزبين .. ونظام تعدد الأحزاب .

ومـن الناحيـة المبدئية هناك خطأ شـائع بين كثيرين من علماء السياسـة . يعتمد على المقارنة بين نظام الحزب الواحد ونظام تعدد الأحزاب باعتبار أن العدد هنا هو معيار التمييز

بين الديكتاتورية والديموقراطية .. أو بين الشرق والغرب . هذا خطأ . فنظام الحزب الواحد كان معمولا به في اسبانيا حتى وقت قصير مضى وفى كثير من دول أمريكا اللاتينية وإفريقيا وبعض الولايات الجنوبية من أمريكا . بينما نظام تعدد الأحزاب موجود حتى الآن – ١٩٧٦ – رسميا في ألمانيا الشـرقية وبعض دول الكتلة الشرقية عموما . أن وجود حزب واحد ليس إذن قرينة نهائية على وجود ديكتاتورية سياسية .. كما أن وجود أحزاب عديدة ليس قرينة نهائية على وجود ديموقراطية . إن الذى يحسم الأمر إذن هو دراسة كل حالة على حدة .

❑❑❑

أولا : نظام الحزب الواحد .

بالرغم من أن الحكم الديكتاتورى قديم قدم البشـرية ذاتها .. فإن الحكم الديكتاتورى الذى يعتمد في بقائه بالسـلطة على حزب سياسـى واحد – كمـا كان الحال في إيطاليا الفاشـية وألمانيا النازية .. وكما هو الحال الآن فى الاتحاد السـوفيتى وبعض دول الكتلة الشرقية – هو نوع جديد من النظام السياسى .

واعتماد النظام السياسـى على حزب واحد ، هو ظاهرة بدأ تطبيقها قبل أن توضع لها نظرية ، كما حدث فى تركيا أيام كمال أتاتورك ، وفى البرتغال حتى فترة قريبة . وحتى في الاتحاد السـوفيتى نفسـه لم ينص الدسـتور على احتكار الحزب الشيوعى للسلطة إلا منذ سنة ١٩٣٦.

وأنصار نظام الحزب الواحد يقولون : إن الجماهير لا تستطيع أن تحكم نفسها ، ولابد من نخبة تحكم باسمها . ووجود حزب واحد يحقق مهمة مزدوجة . فهو يقيم صلة عضوية بين الجماهير وبين الحكومة . إنه يقضى على عزلة الحكومة عن شعبها عن طريق انتشار خلاياه فى كل المدن والقرى . وعن طريق هذه الخلايا تسـتمع الحكومة إلى آراء الناس فى قراراتها ، كما تستطيع أن تتصرف بناء على رغبات الجماهير نفسها . إن الحزب يجعل الحكومـة إذن تسـتمع إلى رأى الجماهير .. ويمكن الجماهير مـن فهم قرارات الحكومة . وكفاءة الحزب تأتى من قيامه بهذه الوظيفة المزدوجة . فلأنه جزء من الدولة .. فهو قادر على فهم القرارات من الداخل . ولأنه مجموعة من المواطنين .. فإنه قادر على التعبير عن ردود فعل الجماهير إلى السلطة .

أما خصوم هذا النظام فإنهم يردون على مبدأ احتكار حزب واحد للنشـــاط السياســى . أن نظــام الحزب الواحد فى نظرهم هو إحياء لفكرة «الحرس البريتورى» أيام الإمبراطورية الرومانية . لقد كان الإمبراطور المستبد يقيم هذا الحرس لحمايته شخصيا وتدعيم قدرته على الاســتبداد . وكما كان الإمبراطور الرومانى يحتفظ بولاء «الحرس البريتورى» له عن طريق الامتيــازات المتواليــة التى يعطيها له .. كذلك فإن الديكتاتور فى القرن العشــرين يحتفظ بولاء الحزب السياســى له عن طريق الخدمات والمصالح المحددة التى يضمنها لأعضائه . هذه الخدمات تبدأ من احتكارهم للمناصب الإدارية وحصولهم على المزايا المادية وانفرادهم بالحرية والسلطة .. وانتهاء بمصالح اقتصادية واحتكارية .. إلخ .

إن الحزب السياســى الواحد يقوم هنا بدور الحاشــية للديكتاتور .. وأعضاؤه مستمرون بقدر تجديد ولائهم للديكتاتور وليس بقدر كفاءتهم أكثر من غيرهم .

أما عن قيام أعضاء الحزب السياسى الواحد بدور الموصل بين الجماهير والقادة ، فالواقع أن هــذا الموصل يقوم بدوره فى اتجاه واحد فقــط هو تبليغ تعليمات القيادة إلى الجماهير . ممــا يؤدى بالضرورة إلى عزل أفــراد الحزب عن الناس ويخبىء عنهم ردود الفعل الحقيقية للجماهير . إن الحقيقة لابد من إعادة تشــكيلها عند كل مســتوى من مســتويات الحزب . فالعضــو العادى يســتطيع - لو تحرر من شــعارات الحزب - أن يعــرف الحقيقة . ولكنه بحكم فطنته وغريزته يخصم جزءا منها عند نقلها إلى القائد المحلى . ولنفس الأسباب يقوم القائــد المحلى بخصم جزء آخــر من الحقيقة عند تبليغها لقائد الحى . ثم يقوم قائد الحى بخصم ثالث حينما ينســق مجمــوع التقارير ويرفعها إلى اللجنــة القيادية الأعلى . وأخيرا تخصــم اللجنة القيادية جزءا رابعا من الحقيقة عند نقلها إلى قائد الحزب ، الذى هو أيضا رئيس الدولة .. بحيث أن هذا الأخير يصبح فى النهاية معزولا عن الواقع بقدر عزلة لويس الرابع عشر عن الجماهير الفرنسية داخل قصر فرساى .. وزوجته تواجه مظاهرات الجائعين ولا يجدون رغيف الخبز بردها وتساؤلها المفحم : .. ولماذا لا يأكلون الجاتوه ؟!

ونجــاح نظام الحزب الواحد فى القرن العشــرين يرجــع إلى الإمكانيات الفنية الهائلة التى وضعتها التكنولوجيا فى خدمته . وفى مقدمتها وسائل الدعاية والإعلام . فمن خلال الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية . ومن خلال التكرار نفسه . يستطيع الديكتاتور أن ينشر أفكاره . ويكررها . بين الجماهير .

ولكن الإقناع وحده لايكفى . ومن ثم فلابد أن يصحبه كبت وقمع وتجسس . من هنا يتحول الحزب الواحد ، عاجلا أو آجلا ، إلى تنظيم بوليسى .. أو تصبح له مهمة بوليسية إلى جانب المهمة السياسية .

وأبرز نماذج نظام الحزب الواحد هى : الحزب الفاشى الإيطالى ، والحزب النازى الألمانى ، والحزب الشيوعى السوفيتى . إن العقيدتين الفاشية والشيوعية تختلفان تماما من الناحية الفكرية ، وهذا يعكس بدوره اختلافا فى طبيعة وبناء الحزب السياسى الواحد فى كلا النظامين .

فالحزب الفاشى يعتمد فى نشأته على الميليشيات المسلحة . ولكن الحزب الشيوعى يعتمد على الخلايا التنظيمية . والأول تكون العضوية فيه مغلقة بعد الوصول إلى السلطة.. ولكنها فى الثانى تكون مفتوحة بقيود . والحزب الفاشى (بعد النص) يخضع لسلطة الدولة . ولكن الحزب الشيوعى يسيطر على سلطة الدولة . والأول دوره فى إعادة بناء المجتمع محدود .. ولكن الثانى دوره شامل .

ورغم أن كثيرين من علماء السياسة يعتبرون أن الأحزاب الفاشية والأحزاب الشيوعية تمثل النموذجين الوحيدين لنظام الحزب السياسى الواحد .. إلا أن هناك فى الواقع نماذج أخرى لا يشترط أن تمثل تطرف اليمين (كما فى الفاشية) أو تطرف اليسار (كما فى الشيوعية) .

من تلك النماذج مثلا نظام الحزب الواحد الذى أقامه كمال أتاتورك فى تركيا . ففى الفترة بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٤٦ كان حزب الشعب الجمهورى هو وحده الذى يحتكر عمليا كل النشاط السياسى فى تركيا ، بالرغم من أن هذا الاحتكار لم يتم الاعتراف به رسميا .. بل كان هناك شبه خجل منه واعتذار عنه .

ويرجع الاعتذار إلى أن ثورة كمال أتاتورك لم تكن ايديولوجية – كما فى الفاشية أو الشيوعية – ولكنها كانت ثورة عملية . ومهمتها كانت تحويل تركيا إلى مجتمع غربى . والحزب نفسه لم يعتمد فى تشكيلاته على الخلايا أو الميليشيات . ورغم أن نظام أتاتورك لم يكن فاشيا . إلا أنه أيضا لم يكن ديموقراطيا . ففى التطبيق كانت الانتخابات هى مجرد استفتاءات تقتصر على مرشح واحد . والحريات السياسية ظلت مقيدة .

إن نفس الظاهرة يمكن تسجيلها عن النظام السياسى فى البرتغال حتى فترة قريبة مضت .. حيث كان يوجد حزب واحد ، هو الاتحاد القومى ، يشترك فى ملامح كثيرة مع حزب الشعب الجمهورى فى تركيا .

وبصفة عامة فإن طبيعة الحزب السياسى الواحد تتوقف على نشأته . فإذا نشأ نظام الحزب الواحد أصلا فى ظل نظام ديموقراطى يقوم على تعدد الأحزاب (كما حدث فى ايطاليا وألمانيا) فإنه فى الواقع يلغى الديموقراطية تماما منذ لحظة وصوله إلى السلطة .

أما إذا نشأ الحزب الواحد فى بلد يخضع لحكم استبدادى أو بلا أحزاب (كما حدث فى تركيا والاتحاد السوفيتى) فإنه يمثل خطوة إلى الأمام فى طريق تطوير المجتمع ، وتخليصه من المظالم السابقة ، ومن ثم أكثر ديموقراطية .

❑❑❑

ثانيا : نظام الحزبين .

برغم أن بريطانيا تضم ثلاثة أحزاب ، هى المحافظون والعمال والأحرار ، إلا أنها من الناحية العملية تعتبر فى الواقع من البلاد التى يعتمد فيها النظام السياسى على حزبين كبيرين . لقد كان الصراع أساسا بين المحافظين والأحرار .. إلى أن شهد مطلع القرن العشرين ميلاد الأحزاب الاشتراكية نتيجة لتضخم أعداد العمال الصناعيين ودخولهم إلى الحياة السياسية . إن تلك الظاهرة جاءت بحزب العمال لكى يأخذ مكان الحزب الثانى بدلا من حزب الأحرار ، الذى تراجع إلى أسفل ، وأصبح زواله من الحياة السياسية مجرد مسألة زمنية .

ومن البلاد التى تأخذ بهذا النظام أيضا الولايات المتحدة . وهى من بين البلاد القليلة فى العالم التى لم يتعرض فيها هذا النظام لأى تحد جاد أو خطير . فرغم محاولات متكررة لخلق «حزب ثالث» .. إلا أنها جميعا فشلت أو تمخضت فقط عن أحزاب أقليات محلية فانية وسريعة الزوال .

وفى أمريكا اللاتينية يسير الاتجاه العام نحو نظام الحزبين . بالرغم من أن الانقلابات العسكرية والثورات المتقطعة تعترض هذا التطور وتعيد تشكيله من وقت لآخر . أما فى تركيا فقد كان هناك حزب واحد حتى سنة ١٩٤٦ حينما ولد الحزب الديموقراطى .. الذى حصل على مقاعد قليلة جدا فى أول انتخابات نتيجة لضغوط الحكومة . ولكنه فى

الانتخابات التالية (سـنة ١٩٥٠) حقق نصرا كبيرا حينما حصل على ٥٥٪ من الأصوات و٤٠٨ مقاعد مقابل ٣٩ مقعدا فقط لحزب الشعب الجمهورى ، ومقعد واحد للحزب الوطنى الذى نشأ اصلا كانشقاق عن الحزب الديموقراطى ، ولكنه سرعان ما اختفى .. فأصبحت تركيا بذلك تنتمى الآن إلى الدول التى تأخذ بنظام الحزبين .

ويلاحظ فى هذا التوزيع الجغرافى لنظام الحزبين أنه أصبح منحسـرا فى بلاد كثيرة . وهذا يرجع إلى بداية القرن العشرين نتيجة لقيام الأحزاب الاشتراكية . ولكن برغم خسوف هـذا النظـام فى بعض البلاد ، مثل بلجيكا ، إلا أنه عاد إلى الظهور فى البلاد التى كانت تأخذ به أصلا .

وبصفة عامة فإن البلاد التى يوجد بها حزبان ، ثم يظهر حزب ثالث ، فإن واحدا من الأحزاب الثلاثة لابد أن يزول غالبا .. إما بالاندماج ، أو بالاستئصال . أن الاستئصال هو حكم من الواقع ، وله تفسيران : تفسير ميكانيكى .. وتفسير نفسى .

أما التفسـير الأول فهو أن نظام نجاح النائب بالأغلبية البسـيطة (كما فى مصر) يعطى للحـزب الأضعـف دائما تمثيلا نيابيا أقل مما يحصـل عليه من أصوات ، بحيث أن عدد مقاعده فى البرلمان يظل دائما غير ملائم للنسبة التى حصل عليها من أصوات الناخبين .

وأما التفسـير النفسـى فيرجع إلى أن الناخبين سـرعان ما يدركون أن أصواتهم تضيع هبـاء ، ومـن ثم فأنهـم ينقلونها إلى الحزب الأقل سـوءا من وجهـة نظرهم فى الحزبين الباقيين.. وبالتالى نصل إلى نفس النتيجة ، وهى أن الواقع يحكم غالبا باستئصال الحزب الأضعف بحيث نعود فى النهاية إلى نظام الحزبين .

ويبدو أن هذه النتيجة هى نتيجة لا مفر منها لنزام التصويت ذى الدرجة الواحدة الذى يعتمد على النجاح بأغلبية بسيطة . ففى ظل هذا النظام لا أمل لظهور حزب ثالث إلا إذا حصل على مسـاندة قوية محليا .. أو اعتمد على تنظيم قوى ومتماسـك قوميا . فى الحالة الأولى سـوف يتقدم الحزب إلى الأمام ببطء وبألم ومشـقة . فى الحالة الثانية يمكن فعلا أن يأمل فى تحقيق نمو ثابت ودائم يرفعه إلى مسـتوى الحزب الثانى .. ولحظتها . وبألم . تختار قوانين الاستئصال ضحية أخرى لها من الحزبين الأخريين !

□□□

ثالثا : نظام تعدد الأحزاب .

فـى نقطـة من النقط يمكن أن يتسـاوى تعـدد الأحزاب مع عدم وجـود أحزاب على الإطلاق ، وهذه ظاهرة غريبة ـ ولكن مألوفة ـ كما يعرفها علماء السياسـة . فحينما يصل التعدد الحزبى فى بلد إلى الدرجة التى يصبح فيها الرأى العام منقسما بين مجموعات عديدة غير مستقرة .. وسائلة .. وقصيرة العمر .. فإنه بذلك لا يقدم نموذجا للتعدد الحزبى بشكل صحيـح . إنه ما زال فـى الواقع يعيش تاريخيا فى عصر ماقبل الأحزاب ، لأن الأحزاب فى هذه الحالة لا تصبح قوية ولا معبرة بما يكفى لتكوين حياة سياسية مستقرة .

لقـد عاشـت فى تلـك المرحلة كثير من دول أوربـا الغربية فى الفـترة مابين الحربين العالميتـين الأولى والثانية .. وتعيش فيها الآن بعـض دول افريقيا وأمريكا اللاتينية ، كما كانت تعيش فيها أيضا كل الدول الغربية الكبرى فى القرن التاسع عشر .

والوصول إلى تحليل عام لظاهرة تعدد الأحزاب هو أمر صعب ، لأن التعدد هنا يبدأ من ثلاثة أحزاب ويستمر إلى ما لا نهاية . وفى داخل كل حالة هناك أشكال وظلال عديدة . فنظـام الأحزاب الثلاثة التى تشـكلت فى فرنسـا بعد تحريرها مـن الاحتلال النازى فى الحرب العالمية الثانية لا يشـبه الأحزاب الثلاثة التقليديـة فى بلجيكا . ونظام الأحزاب الأربعة فى الدول الإسكندنافية يختلف عنه فى سويسرا .

مع ذلك فإن التحليل العام يصبح ممكنا لو اعتبرنا أن ظاهرة الحزبين هى الأسـاس فى التفكير السياسـى . فالواقع العملى يبين أن هناك دائما اتجاهين اساسـيين فى السياسة : يمين ويسـار .. أو معتدلون ومتطرفون .. أو مصلحون وثوريون .. أو شـباب وشيوخ .. أو مسالمون ومحاربون .. أو مرنون ومتشددون .. أو أصحاب مصلحة فى استمرار الأمر الواقع وأصحاب مصلحة مضادة فى تغيير الأمر الواقع .

إن كل حزب سـوف يكون فيه دائما المعتدلون والمتطرفون ، والاثنان مكملان لبعضهما غالبـا . ولكن التعدد يبدأ حينما يفقد الطرفان الأرضية المشـتركة التى يلتقيان عليها . إن هذا هو ما حدث فى سويسرا مثلا حينما حدث انشقاق بين الراديكاليين والأحرار فى سنة ١٨٤٨ فأصبح هناك ثلاثة أحزاب . سـرعان ما تحولت إلى أربعة بظهور الاشـتراكيين . نفس الشيء حدث فى فرنسا . فلقد أدى تشكيل الحزب الراديكالى إلى انشقاق فى صفوف الجمهوريين بحيث أنه فى نهاية القرن التاسع عشر أصبح هناك ثلاثة أحزاب .

والحالة الثانية التى يقع فيها التعدد الحزبى .. هى حالة التداخل بين القضايا الكبرى . فلو كان كل الفرنسيين مثلا متفقين على أن العداء بين الشرق والغرب له الأولوية على كل شىء ، يصبح أمامنا حزبان فقط .. حزب شيوعى وآخر معادى للشيوعية . وإذا اتفق كل الفرنسيين على أن الصراع الأساسى هو بين الاقتصاد الحر والاقتصاد المخطط .. إذن نصبح أيضا أمام حزبين : محافظين واشتراكيين .. وهكذا .

إن التعدد الحزبى هنا يأتى من التداخل بين القضايا الكبرى بحيث أن القضية الأولى عند كل قطاع من الرأى العام تختلف وتتقاطع مع القضية الأولى عند قطاع آخر .

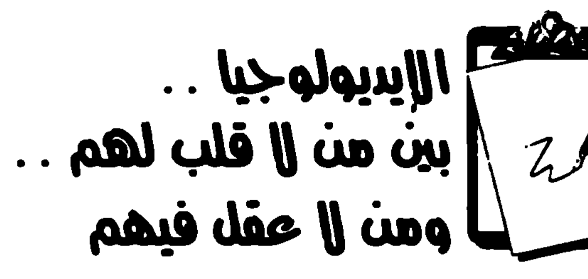
أما الحالة الثالثة التى تؤدى إلى التعدد فهى حالة الدخول فى ظاهرة جديدة قبل موت ظاهرة قديمة . إن ظهور الأحزاب الإشتراكية أدى إلى ظهور حزب ثالث فى انجلترا وبلجيكا والسويد واستراليا ونيوزيلندا .. إلخ ، بينما لم يحسم قطاع من الرأى العام بعد ولائه لحزب قديم يعبر عن مصالح اجتماعية انتهت مع القرن التاسع عشر .

وأحيانا يكون الأساس فى التعدد الحزبى هو تعدد الأجناس داخل الدولة الواحدة . ففى الإمبراطورية النمساوية مثلا قبل الحرب العالمية الأولى كان هناك ٢٥ حزبا ، وفى تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الثانية وصل العدد إلى ١٤ حزبا ، وفى أسبانيا سنة ١٩٣٦ وصل العدد إلى ٣٦ حزبا .

❑❑❑

وأخيرا فإن سيكولوجية بعض الشعوب قد تكون عاملا هاما فى التعدد الحزبى . فالشعوب اللاتينية مثلا ، نتيجة لاعتزاز المواطن الشديد بفرديته واستقلاليته ، تميل إلى التعدد الحزبى .

والشىء الوحيد الذى يستطيع أن يؤكده عالم السياسة هو أن وجود نظام التمثيل النسبى فى الإنتخابات ، بمعنى توزيع المقاعد البرلمانية على الأحزاب حسب نسبة الأصوات التى حصلت عليها ، يؤدى بالضرورة إلى تشجيع كثرة الأحزاب وتعددها . لكن فى جميع الحالات يظل الأصل هو حق المواطن الفرد المستقل فى ترشيح نفسه لعضوية البرلمان .



الإيديولوجيا .. بين من لا قلب لهم .. ومن لا عقل فيهم

حينما تفتح التليفزيون فتفاجأ بأن الراقصات قد أصبحن شهيدات فى الوطنية ..

وحينما تفتح مجلة فتجد أن عبد الناصر قد نصبت له المشانق ، أو علقت على صدره الأوسمة ..

وحينما تتحدث جارتك عن الإنفتاح ، بينما يتحدث أستاذ الجامعة عن التهريب فى شارع الشواربى بالقاهرة ..

وحينما يتحدث الناس عن الأحزاب ، وزعماء الأحزاب عن الصحافة ، والصحافة عن زيارة أنور السادات لمنطقة القناة ..

وحينما تتحدث صحف الكويت عن الحج فى السعودية ، وصحف السعودية عن السلام فى لبنان ، وصحف لبنان عن الوفاق بين أمريكا والاتحاد السوفيتى ..

وحينما يطبع الزعيم الروسى بريجينيف قبلة حارة على جبين الرئيس اليوغوسلافى تيتو . بينما يقول الرئيس الفرنسى ديستان عن ملك المغرب إنه صديقه العزيز جدا جدا..

وحينما تعود الممثلة اليونانية ميلينا ميركورى إلى بلدها اليونان بعد أن اتجه غربا . وعمر الشريف إلى القاهرة بعد سنوات من الغربة ..

وحينما يكتب نجيب محفوظ عن حزب الأغلبية . ويتكلم خالد محيى الدين عن قانون المطبوعات . وجلال الدين الحمامصى عن الحرية المشكوك فيها . ومصطفى خليل عن ملكية الاتحاد الاشتراكى للصحف ..

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٦/١٢/١١

وحينما يقرأ رجل الشارع عن ألف أوتوبيس من أمريكا ، والموظف الصغير عن تحسن قادم في كادر المرتبات ، وأهل المنصورة يطالبون هم أيضا بمدينة حرة كما جرى فى بورسعيد ..

حينما يحدث كل ذلك .. ليس فقط فى عصر واحد أو عام واحد .. ولكن ربما فى يوم واحـد .. فلا بد للإنسان أن يختل توازنه قليلا وهو يحاول أن يربط بين هذا كله .. إذا كان يستطيع حقا أن يفعل ذلك .

ولكن الإنسان يستطيع فعلا أن يفعل ذلك .

نعم . يستطيع الإنسان أن يكتشف ما يربط بين كل ذلك ، ولو بقليل من المجهود والصبر . المجهود ، لأن العالم الذى نعيش فيه لم يولد فجأة ، وإنما هو نسيج متشابك لابد أن نمسك الخيط فيه من أوله . والصبر لأن هذه الأحداث والتفاصيل الصغيرة لايمكن رؤيتها إلا من خلال إدراك للأفكار الأساسية التى تحرك كل هذا .. بحيث أن الناس هم فى النهاية فعلا أشبه بالكومبارس الذين يعرفون حدود الدور أمامهم ، ولكنهم لا يعرفون أصل الرواية .

والرواية أصلها فكرة . والفكرة هى تصور عقلى . والعقل هو الأساس فى الوجود البشرى كله . فالإنسان – من بين كل الكائنات الحية – هو أولا مخلوق عاقل .. بغير أن يعنى هذا بالضرورة أن يكون دائما مخلوقا حكيما .

ومن عقل الإنسان ولدت تلك الأفكار القليلة الكبرى التى حركت وتحرك عالمنا المعاصر . أفكار تتراوح بين الرأسمالية والشيوعية والقومية والفاشية والاشتراكية والديموقراطية .. إلخ .. إلخ .

إنها أفكار بلغت من قوتها وسيطرتها على أفعالنا ، الدرجة التى أصبحت فيها هى القوة الخفية التى تحرك كل التفاصيل أمامنا بغير أن نراها هى بطريقة مجردة . أفكار لم تأت من عقول زعماء سياسيين ، بالرغم من أنها رفعت زعماء إلى السماء وهبطت بزعماء إلى الحضيض .. ولم تساندها امبراطوريات وجيوش .. بالرغم من أنها دمرت جيوشا وحركت امبراطوريات . أفكار قليلة كبرى . كانت هى السبب فى أن الإنسان عاش طوال المائتى سنة الأخيرة فى عصر يسمى «عصر الإيديولوجيات الكبرى» . عصر دخله نصف العالم وهو الآن يخرج منه .. بينما تأخر عنه النصف الآخر . وهو الآن يدخل فيه .

إن هـذه الأفكار الكبرى هـي التي تخلق اليوم التفاصيل الصغيرة في حياتي وحياتك.. ابتداء من فيلم «المتهم البرىء» الذى عرضه التليفزيون هذا الأسبوع .. إلى الأحزاب السياسية التي أصبحت هي قضية مصر هذه السنة .

❑❑❑

وأول هـذه الأفـكار الكبرى الغامضة والمطاطة هي فكـرة : الرأسمالية . أن هذه الكلمة تدخلـك الآن إلى الجنة في نصف العالم ، بينما في النصف الآخر تدخلك إلى معسـكرات الاعتقال والتعذيب والجحيم . إنها كلمة لا تشـير إلى مجرد معنى لغوى ، ولكنها تشـير إلى أسـلوب كامل في الحياة ، ونظرة شـاملة إلى الدنيا وعلاقة كاملة مع الناس والأشـياء حولنـا . إنهـا مذهب كامل .. لا يترك بصماته في أفكارنا فقط .. ولكن أيضا في تفاصيل حياتنا اليومية .

والحديـث عن الرأسمالية معناه الحديث عن أول قنبلة زمنية في عصر الإيديولوجيات الكبرى ، الذى يعيشه الإنسان منذ مائتى سنة .

لماذا مائتا سـنة ؟ ألم يولد الإنسـان وهو بالطبيعة رأسمالى ؟ ألم يولد وفي دمائه غريزة التملـك ، وأمنيتـه أن يكون غنيا ؟ ألم يقتل قابيل أخاه هابيل .. بحيث أنه قتل يفسـره البعض تفسيرا اقتصاديا ؟

والواقع ليس كذلك على الإطلاق ، لأن الإنسـان ليس شـهادة استثمار تصدرها السماء كما يصدر البنك الأهلى شـهاداته هذه الأيام . الإنسـان ليس مجرد مشـروع اسـتثمارى للطبيعة.. وهو لا يقضى حياته عبدا لتلك العملات التبادلية التي نسـميها النقود . نعم ، يمكن للإنسان أن يكون عبدا ، وقد كان كذلك فعلا في مراحل طويلة من تاريخه . لكنه كان عبدا لشيء آخر اسمه : العادة .

نعم . الإنسـان بطبيعته مخلوق تصنعه العـادة . والعادة في الماضى كانت هي التقاليد والأوامر التي يضعها الملوك والنبلاء الذين كان كل شيء يتم باسمهم ولحسابهم . لقد اعتاد الإنسان قديما أن يعيش في مكان ولادته . بحيث لا يغادره إلا إلى القبر . إنه يزرع ويأكل وينجب ويكبر ويشـيخ .. وهذا كل شـيء . إنه لا يسافر .. لأن السفر مكلف . وفضلا عن ذلك فوسائل المواصلات لم تكن سوى الدواب . إنه لا يدخر لأن البنوك لم تكن موجودة .

والنقود نفسها متغيرة والتجارة غير منتشرة . إن سوق عكاظ الذى اشتهر فى الأدب العربى لم تكن فيه بضائع أكثر من عشرة بوتيكات فى شارع الشواربى بالقاهرة . وجملة البضائع التى كانت تصل إلى فرنسا سنويا حتى القرون الوسطى لم تكن تملأ قطارا واحدا من قطارات الصعيد فى هذه الأيام .

أكثر من ذلك .. فإن التاجر الذى كان ينقل بضاعته بين مدينتين مثل بال وكولونيا فى ألمانيا .. وهى مسافة تقل عن تلك التى بين القاهرة ودمياط .. كان يدفع رسوما جمركية على بضاعته كل ثمانية كيلومترات .. بحيث تصل البضاعة أخيرا وقد سددت عنها الرسوم الجمركية إحدى وثلاثين مرة !

من ناحية أخرى كانت فكرة التجارة نفسها مرفوضة . ولقب تاجر ، لو قيل عن شخص ، فإنه مقدمة لإدخاله إلى الجحيم ! ولو ذهبنا إلى مدينة بوسطون فى أمريكا مثلا (التى هى الآن قلعة العالم الرأسمالى) سنة ١٦٤٤م - أى قبل أقل من أربعة قرون - فإننا سوف نشهد محاكمة كبرى لمواطن شهير اسمه « روبرت كين» . إنه من رجال الدين القدامى ولم ينجب أطفالا ومن أهل الغنى . إن الإتهام الشائن الموجه إليه فى المحاكمة هو أنه حقق ربحا قدره ستة بنسات (أى ما يساوى أربعة قروش) .. وهذا كسب شائن فاحش . وبسبب هذه الجريمة المنكرة فإن المحكمة تبحث فى احتمال حرمانه من الكنيسة بسبب هذا الذنب الذى ارتكبه .

ولكن ، نظرا لبياض صحيفته فى الماضى ، وشهادة جيرانه بحسن سلوكه . فإن المحكمة تتسامح معه وتكتفى بفصله من العمل وتغريمه ما يعادل مائتى جنيه ! ومقابل هذه «الرحمة» من المحكمة يجثو مستر كين على ركبتيه أمام آباء الكنيسة و : «يعترف والدموع تنهمر من عينيه بما انطوى عليه قلبه من جشع وفساد» !

□□□

إن هذا كله كان مؤشرا لنظرة كاملة من المجتمع فى القرون الوسطى إلى الربح والثروة و - بصفة عامة - التجارة . ولأن الإنسان هو عبد للعادة كما قلت . فإن الابتكار أصبح عدوا للمجتمع . والنقود أصبحت رمزا لإبليس ، بحيث أن الكنيسة فى القرون الوسطى كانت تلقن الناس أنه «لا ينبغى للمسيحى لأن يكون تاجرا» . إن هدف الإنسان فى الحياة ليس هو تحسين مستواه المادى . ولا تحقيق مزيد من الكسب . ولا اكتناز النقود . أما كيف يبيع الإنسان ويشترى .. فإنه يفعل ذلك بالتبادل أو المقايضة .. وليس بالنقود .

وكان هذا مألوفا .. بمثل ما هو مألوف اليوم عند بعض القبائل الإفريقية أن تسال عن عدد الثيران التى تساويها المرأة ، بغير أن يعنى هذا أنك إنسان غير مهذب ، أو لم تؤمن بعد بأفكار قاسم أمين وحركة تحرير المرأة !

بكلمات أكثر تخصصا هذه المرة : أن العالم كله ظل حتى القرن السابع عشر لا ينظر بعد إلى الأرض والعمل ورأس المال باعتبارها عوامل إنتاج أساسية يحدد السوق دورها . أن الأرض - بمعنى التربة - كانت موجودة طبعا . ولكنها لا تمثل فكرة مجردة أو مشروعا استثماريا قابلا للبيع والشراء وتحقيق ربح . إن كل منطقة من الأرض مملوكة لنبيل أو شريف أو «باشا» أو إقطاعى . وكل فلاح يولد على هذه الأرض يظل مقيما فيها .. يزرعها لحساب مولاه .. ويخبز فى فرنه .. ويخدمه فى حربه . وكل هذا بغير أجر نقدى أو ساعات عمل أو بنك تسليف .

وعندما تكون الحياة راكدة بهذا الشكل ، فإن أى حجر نقذفه على سطحها كفيل بخلق دوامة سريعة متتابعة . ولكى نطبق هذا على الواقع ، يكفى أن نحسب التأثير الاقتصادى لتطور واحد بسيط هو : أن الصوف أصبح سلعة مجزية . والصوف يتطلب المراعى التى يستغلها منتج الصوف لترعى الأغنام فيها . وتقام المراعى عن طريق وضع سور حول مساحة من الأرض ، ثم يعلن الإقطاعى فجأة أن الفلاحين أصبحوا ممنوعين من هذه الأرض .

هكذا استمرت تلك العملية البسيطة ، بحيث أنه فى سنة ١٨٢٠ - أى قبل أقل من قرنين اثنين - حرمت دوقة «سذرلاند» فى انجلترا ١٥ الف فلاح من ٧٩٤ ألف فدان ، وأحلت محلهم ١٣١ ألف رأس من الغنم !

هنا ولدت مشكلة اجتماعية : ما هو مصير هؤلاء الذين طردوا من الأرض ؟ ولكن لم تكن تلك هى المشكلة الوحيدة . فى الواقع أن المشكلة الكبرى قبيل ذلك الوقت كانت هى اقتراب الثورة الصناعية . ولأن الإنسان - كما ذكرت - هو عبد للعادة .. فإنه فى البداية قاوم هذا التطور الجديد بكل ما استطاعه من طرق .

ففى انجلترا مثلا حدث اختراع ثورى هو : آلة لصناعة الجوارب ! وعندما طلب صاحب الإختراع ترخيصا من الحكومة ، رفضت الحكومة بكل إخلاص فى سنة ١٦٢٣ . وأمرت بإلغاء هذه البدعة الخطيرة .

وفي فرنسا تحركت الحكومة ضد بدعة أخرى أكثر خطورة وكفرا ، هى استخدام القطن في صناعة الأقمشة ! ولمواجهة هذا الخطر صدرت فى مدينة «فالنس» الفرنسية وحدها أحكام بالشنق على ٧٧ شخصا ، وبكسر ضلوع ٥٨ على دولاب التعذيب وإرسال ٦٣١ للعمل عبيدا فى القواديس .. وبراءة شخص واحد . وكل تلك الأحكام بسبب جريمة واحدة هى : الإتجار فى أقمشة مصنوعة من القطن ، وهذا محرّم ومجرّم .

□□□

كان العصر هو بداية الثورة الصناعية .. والمهنة الوليدة هى التجارة .. والمولود المتعسر هو نظام السوق .. والعملة هى الذهب ، بحيث أن كريستوفر كولومبوس - مكتشف أمريكا فيما بعد - كان يقول عن الذهب إنه شىء مدهش ، لأن من يملكه يصبح سيد كل شىء يرغب فيه ، وبالذهب تستطيع أن تدخل الأرواح الجنة . وهو قول لا يختلف كثيرا عن ما يؤمن به كثيرون من مليونيرات القرن العشرين .

لقد بدأ العصر الحديث بحروب الاستكشافات الجغرافية ، بحيث أن الهند وأمريكا أصبحتا أحلام المغامرين ، والشرق أصبح محطا لأحلام الكثيرين من التجار والبحارة . ولم يكن الملك أو الحكومة هنا سوى تاجر آخر ـ ولكن أكبر حجما ـ مع التجار الآخرين.. بحيث أن الملكة اليزابيث ، ملكة انجلترا ، ساهمت بأموالها فى رحلة واحدة قام بها سير فرنسيس دريك على السفينى «جولدن هيند» . ومن نصيبها فى أرباح تلك الرحلة وحدها سددت كل ديون انجلترا الخارجية ووازنت ميزانيتها واستثمرت فى الخارج مبلغا كان كافيا مع الفائدة المتراكمة عنه لكى يفسر جزءا من ثروة بريطانيا كلها فيما وراء البحار حتى سنة ١٩٣٠ .

□□□

المهم .. بعد أن كان المجتمع ينظر إلى الثروة باعتبارها رجسا من أعمال الشيطان ، والغنى باعتباره صورة بشرية لإبليس .. بدأ يتراجع قليلا لكى يصل إلى حل وسط هو أن الغنى يحصل على الثروة كدليل على رضاء السماء عنه (كمقدمة لكى يصبح الغنى بعد ذلك هو المتحدث باسم السماء على الأرض) !

من ناحية أخرى توسعت الكشوف الجغرافية . ودبت الحركة فى العلوم نتيجة لعصر النهضة فى أوربا . وتلاحقت الابتكارات بحيث شهد العصر السابق على العصر الرأسمالى

مولـد المطبعة ومصنع الورق والطاحونة التى تدور بقوة الرياح والسـاعة الميكانيكية وحشـد مـن الإختراعات الأخرى .. بحيث بدأ الفلاحون القدامى يصبحون عمالا جددا .. والمزارع المهجـورة تتحـول إلى مصانع واسـعة .. والعمل من أجل العمل بـدأ يتحول إلى العمل من أجل النقود . والتجارة التى كانت تتسـاوى مع اللصوصية أصبحت هى المهنة القادمة فى المستقبل ، والسوق الذى كان ظاهرة طارئة بين موسم وآخر أصبح شيئا ثابتا ودائما ومتسعا . والناس الذين كانوا يعيشون مستسلمين للعادة أصبحوا يسعون للربح لأول مرة . وبعد أن كان يربط بينهم الجوار والقرابة .. أصبح السوق هو الميدان الجديد الذى يعرفون بعضهم فيه .

وكانت الرأسمالية هى الاسم الذى سوف يطلق على هذا النظام . والفقراء هم على وشك أن يصبحـوا وقود هذا النظام الجديد . أما الرأسمالى فهو طفله المدلل ، الذى ينصح الفقراء بالبقاء فى فقرهم لأن الله سيعوضهم عنه فى الآخرة . وإلى أن يحدث ذلك فسوف يظل هو يحدثهم عن الفضيلة ، خصوصا بعد أن يكسب المليون جنيه الأولى !

❑❑❑

فى هذا المناخ المشوش نشر كتاب أكاديمى متخصص عنوانه «بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الشـعوب» . لم يكن مؤلف هذا الكتاب سوى أسـتاذ جامعى فى بريطانيا اسمه «آدم سميث» .. ولم يكن يعشـق شـيئا فى العالم سـوى كتبه . وحينما ولد كانت قريته ماتزال تستخدم المسامير نقودا . بل أن «سميث» نفسه لم يكن غنيا . ولم تكن علاقته بالنقود فى حياته مبشـرة بأن هذا الرجل سـوف يصدر أخطر كتاب فى العالم فى وقتها ، وأن صدور ذلك الكتاب فى سنة ١٧٧٦ سوف يجعل من تلك السنة المتميزة السنة رقم واحد فى عصر جديد كامل هو : عصر الإيديولوجيات الكبرى .

إن الكتاب نفسـه لم ينتشـر بسرعة ، ولم يحقق لمؤلفه ربحا يذكر . وحتى بعد صدوره بسـنتين لم يجد مؤلفه وظيفة يشـغلها سـوى نائب للجمارك فى «أدنبرة» ، وهى وظيفة مرتبها الشهرى خمسون جنيها . مبلغ متواضع تماما فى حينها .

لم يكن الكتاب نفسـه يضم أفكارا مبتكرة كثيرة . ولكنه . مثل كل الأفكار الكبرى فى التاريخ . كان حصيلة لتفاعل قوى عديدة متناثرة وغامضة تعمل منذ زمن بغير أن يلاحظها أحد . إلى أن جاء «آدم سميث» ليكتشف الرباط الخفى بين تلك القوى ، ويضع لها عنوانا واحدا هو «الرأسمالية» .. أو بعبارة أدق : الليبرالية .

كان جوهر النظرية التى يمثلها كتاب «آدم سميث» هو : دعه يعمل . إن واجب المجتمع هو أن يدع كل شخص يسعى لعمل كل شيء يحقق للفرد مصلحته . إن الفرد يسعى للربح . إذن .. دعه يربح ، ويربح أكثر ما يستطيع . إن الذى سوف يحد من جشعه هو ليس سلطة الحكومة .. بل جشع تاجر آخر ينافسه . إن المصلحة الذاتية هى الأساس . والسوق هو الذى يقوم بدور القوة الخفية لتشغيل وتصحيح المجتمع . ففى السوق .. حيث الحرية والمنافسة .. سوف تستقر السلعة عند أقل سعر لمصلحة المستهلك نفسه .

إن هذه البذرة سوف تتعرض فيما بعد إلى تعديل وإضافة من مفكرين رأسماليين آخرين . ولكنها فى تلك اللحظة ، وعند صدورها لأول مرة فى سنة ١٧٧٦ ، سوف تكون هى النظرية الأساسية التى تحدد ملامح ايديولوجية ليبرالية كاملة ، ونظام رأسمالى كامل . إن اعلان الاستقلال الأمريكى ، الذى وقعه مندوبو الولايات المتحدة فى نفس السنة انفصالا عن التاج البريطانى ، سوف يعطى لهذا الكتاب معنى سياسيا . ثم ستأتى الثورة الفرنسية أيضا لكى تمثل الجناح الديموقراطى فى سياسة هذا النظام الاقتصادى . ومن هذا كله تتكامل الايديولوجية الأولى فى عصر كامل من الإيديولوجيات المتتابعة .. التى ستتوالى فى شكل فعل ورد فعل لشيء أكبر وأهم هو : الثورة الصناعية .

□□□

لقد انطلقت الطلقة الأولى فى عصر جديد كامل من الإيديولوجيات المتتابعة .. من ليبرالية واشتراكية وشيوعية وقومية وفاشية . إن كلا منها تمثل نظرية عريضة وشاملة للحياة والتطور .. بحيث أن جميع الحروب الكبرى التالية سوف تجرى تحت علم واحدة من تلك الإيديولوجيات وباسمها . أن أتباع كل ايديولوجية منها - ابتداء من الرأسمالية إلى الشيوعية - سوف يؤمنون بأن الجنة لهم وحدهم .. والجحيم لأعدائهم . الحق فى جانبهم والخطأ كله هو موقف خصومهم . . أن حروبهم سوف تكون عنيفة ونهائية وحاسمة وتجرى حتى النهاية .. لأنها استعارت بعض ملامح الحروب الدينية القديمة حتى القرون الوسطى .

إن السبب هو أن الأديان الكبرى تبشر أتباعها بدخول الجنة .. ولكن فى الآخرة . أما الرأسمالى أو الاشتراكى أو الشيوعى فيؤمن بأنه سيرى الجنة هنا .. على الأرض .. وفى حياته هو . أو حياة أولاده على الأكثر . وابتداء من آدم سميث أبى الرأسمالية إلى

كارل ماركس أبى الشيوعية إلى ماتزينى أبى القومية إلى موسولينى نموذج الفاشية .. سوف نلاحظ أن كل تلك الإيديولوجيات يجمع بينها ثلاث صفات أساسية :

❑ فأولا – كلها تنذر نفسها لأهداف مثالية حالمة . أن المفهوم الليبرالى الرأسمالى عن السوق الحرة .. والمفهوم الشيوعى عن مجتمع بلا طبقات .. هما نموذجان لهذه الأهداف غير الواقعية من البداية . أهداف مثالية تثير التفاؤل نحو المستقبل .. وتكفل للأنصار الإيمان بأنه بمجرد الوصول إلى الهدف المرسوم .. فإن كل المشاكل الكبرى للحياة الحديثة سوف تختفى فجأة .. وفورا .

❑ وثانيا – التبسيط الشديد . فكل ايديولوجية كبرى تميل من البداية إلى الإفراط فى التبسيط . أن كلا من الرأسمالى والشيوعى يؤمن على أساس : نحن وهم .. صديق أو عدو.. ملاك أو شيطان . إنك إما معه جدا .. أو ضده تماما . إما حليف له أو عميل للشيطان ، الذى هو بالضرورة عميل لقوة أجنبية وشيطانية ومخربة هى الطرف الآخر .

نظرية كارل ماركس مثلا تفترض لنفسها القدرة على احتكار التحليل العلمى للاقتصاد . وهكذا تبدأ تفكيرها العلمى بمقدمة غير علمية بالمرة . إنها تتنبأ بشكل محدد للمستقبل بناء على قراءة محددة للماضى . وأنت إما أن تقبل هذا كله أو ترفضه كله .

أن كل ايديولوجية تؤمن بأنها هى وحدها التى تعرف على وجه التحديد أين يوجد رخاء الجنس البشرى وماهى مصلحته .. بينما الواقع لم يعرف أبدا مثل هذه البدائل الحادة من الأبيض والأسود .

❑ وثالثا – إن كل ايديولوجية من تلك الأيديولوجيات الكبرى استمدت قوتها وعنفوانها من نظرتها التفاؤلية الشديدة لمستقبل التقدم البشرى . إن هذا التفاؤل نفسه كان هو سر قوتها . ولكنه .. فيما بعد .. سوف يصبح هو سر ضعفها .

❑❑❑

.. والآن . بعد أكثر من قرنين من بداية هذا العصر الجديد – عصر الإيديولوجيات – أين يقف العالم ؟ بل .. وأين تقف هذه الإيديولوجيات نفسها ؟

إن الرأسمالية الموجودة اليوم فى أمريكا أو أوربا الغربية تكاد تكون لا علاقة لها بالنظرية الأساسية التى وضعها آدم سميث فى سنة ١٧٧٦ وما بعدها . ولو خرج هو اليوم من القبر

جـدلا لأصابه الذعر من القيود العديدة التى وضعها المجتمع الغربى الرأسمالى على رأسمالية القرن العشرين . بل أن الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت ، وهو نفسه رأسمالى قح ، كان هو الذى بادر فى ثلاثينات القرن العشرين إلى فرض القيود المتتابعة على الرأسمالية ، حماية للرأسمالية .. من الرأسماليين . وأوربا الغربية فى سعيها لإعادة النهوض بعد خراب الحرب العالمية الثانية ابتكرت لنفسها نموذجا من الرأسمالية يختلف جذريا عن النموذج الأمريكى من حيث إلزام الرأسمالية بدرجة أكبر من المسئولية الاجتماعية لم تكن ستلتزم بها طواعية .

والشيوعية التى تحدث عنها كارل ماركس فى كتابه «رأس المال» وبعده سوف تعتبر اليوم ، فى نظره هو على الأقل ، مزيفة إلى أكبر حد ممكن . ليس هذا فقط .. بل إن معنى الشيوعية نفسه تغير كثيرا جدا . أن الشيوعية كانت تعتمد على ايديولوجية هى «الماركسية/ اللينينية» .. وقائد أعظم «لينين/ ستالين» .. إلخ . وقوة أعظم هى الاتحاد السوفيتى .. وامبراطورية كبرى هى المعسكر الشرقى .. وحركة عالمية هى الأحزاب التابعة التى تقودها موسكو .

هذا ما اعتادت الشيوعية أن تكونه . ولكن .. ماذا بقى منها الآن ؟ هناك شيوعية صينية ، وشيوعية يوغوسلافية ، وشيوعية أوربية ، وشيوعيات أخرى كثيرة . إن هذا التعدد والإنقسام لايعبر فقط عن ملامح جغرافية خارجية .. ولكن عن تفكك داخلى فى الإيديولوجية نفسها .. حتى أن البعض حاول أن يطلق الشيوعية السوفيتية إلى الأبد ولم تمنعه من ذلك سوى قوة الدبابات (كما فى حالات المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا).

أكثر من ذلك .. فإن اليسار كان معناه التقليدى من قبل هو الاتجاه شرقا .. إلى موسكو . ولكن اليسار الآن أصبح معناه أكثر وأكثر هو الطلاق مع موسكو . وبعد أن كانت الشيوعية – كإيديولوجية – تخوض حربا هجومية قبل عشرين سنة .. أصبحت الآن تخوض حربا دفاعية داخل حدودها .

❑❑❑

مرة أخرى : ماذا حدث ؟ وكيف ولماذا حدث ؟

لقد كانت كل ايديولوجية من قبل . فى مواجهة خصمها . تمثل الخير ضد الشر . الآن .. تراجعت الحروب الإيديولوجية إلى الوراء تماما . إن اليمين فى السياسة لم يعد

معناه وجود حكومة قوية فى السلطة .. وإلا اعتبرت حكومة فيديل كاسترو فى كوبا ، وخلفاء ماوتسى تونج فى الصين ، من اليمين .

واليسار لم يعد معناه المساواة الاقتصادية الكبرى .. وإلا فإن المجتمعات البدائية فى قبائل افريقيا تعتبر اليسار المتطرف . ولا حتى أصبح معنى اليسار هو التقدمية المذهبية . فالتطورات العلمية والتكنولوجية المتلاحقة فرضت مضمونا جديدا للتقدمية ، بحيث تصبح الدولة المتخلفة عن هذا المضمون هى الدولة الرجعية .

لم يعد اليمين معناه الأوتوماتيكى هو المحافظة على الأمر الواقع .

واليسار هو الآخر لم يعد معناه الأوتوماتيكى هو العدالة الاجتماعية وحدا أعلى للدخل.. وإلا فإن السويد تعتبر الآن أكثر يسارية من الاتحاد السوفيتى نفسه ، وهروب المخرج السينمائى انجمار بيرجمان ، ومن قبله انجريد بيرجمان ، هو هروب اختيارى من الجنة .

□□□

إذن .. ماذا الآن ؟

أن الظاهرة الأساسية هى أن عصر الإيديولوجيا بدأ مولده فى أوربا الغربية ، ولأسباب كثيرة كانت مقبرته هناك أيضا . ففى كل دول أوربا الغربية تسيطر على الحكم أحزاب ملتزمة رسميا بالديموقراطية الدستورية . وفى كل دول أوربا الغربية هناك قبول متزايد لمسئولية الحكومة عن جزء كبير من الخدمات الاجتماعية .. بالرغم من أن بعض الليبراليين يدينون هذا الاتجاه .. وحتى بعض الماركسيين يدينونه أيضا من زاوية مختلفة باعتباره «خيانة لمصالح الطبقة العاملة» .. فإن الاتجاه مستمر والديموقرطية متزايدة . هناك مراجعات مستمرة داخل اليمين من جهة ، واليسار من جهة أخرى . بل أن كل منهما يتجه فى لحظات الشدة إلى الاستعارة من الآخر .

إذن .. ماذا بعد الإيديولوجيا ؟

لقد لعبت الإيديولوجيات دور الماكياج على وجوه الدول والشعوب لأكثر من مائتى سنة . والآن يزول هذا الماكياج بحيث تعود العلاقات بين الدول إلى ما كانت عليه دائما.. فتصبح علاقات بين مصالح اقتصادية . أن فرنسا وانجلترا ، اللتين فصلتهما دماء وحروب قرونا طويلة .. هما الآن فى ناد اقتصادى واحد هو السوق الأوربية المشتركة (ستتطور تاليا إلى : الإتحاد الأوربى) .

والصين والاتحاد السوفيتي اللتين جمعتهما ايديولوجية واحدة .. تطورت العلاقات بينهما إلى العداء الشديد ثم إلى الصدام الصامت فى المصالح الاقتصادية والعسكرية .

أكثر من ذلك .. أن الوفاق الأمريكي السوفيتي نفسه هو وفاق فى بعض المصالح الإقتصادية .. وربما يتحول تاليا إلى وفاق بين واشنطون وموسكو باعتبارهما أعضاء فى ناد واحد .. أو حتى «طبقة» واحدة .. ضد ناد آخر و«طبقة» أخرى .. هى دول الشمال فى مواجهة دول الجنوب .

❑❑❑

لقد نشأت الإيديولوجيات فى أوربا وأمريكا كظاهرة مصاحبة للثورة الصناعية . إن تحمل آلام المخاض الصناعى لم تكن ممكنة إلا فى ظل مجموعة شعارات براقة تعد الإنسان بأن الجائزة كبرى وموعدها قريب ومكانها هنا .

الآن استقرت الصناعة فى أوربا وأمريكا ، متزايدة فى اليابان وأجزاء من آسيا . بحيث أن الإيديولوجية التى كانت بشير عصر قادم . أصبحت مخدر عصر مضى . إنها كذلك عند الأغنياء . ولكنها لم تصبح كذلك ، بعد ، عند الفقراء . ففى اللحظة التى بدأت فيها الدول المتقدمة تخرج من عصر الإيديولوجيا .. بدأت الدول النامية تدخل هذا العصر نفسه ، بنفس الحماس ، ونفس الشعارات ، ونفس الانقسامات .

هل تصبح الإيديولوجيات بالنسبة للدول النامية ممثلة لمعارك قرن مضى .. أم دليل ولادة قادمة ؟

هذا سؤال آخر وله إجابة أخرى .

وقديما قالوا : من لا يصبح يساريا فى شبابه .. لا قلب له . ومن لا يصبح يمينيا فى شيخوخته .. لا عقل له . أنما بعيدا عن مثل تلك الأقراص الكلامية الساخرة أو المداعبة .. يظل التحدى الأكبر أمام مجتمعاتنا النامية هو : بناء الدولة العصرية .. وبأقصى سرعة .



فن الحب

دقت لى بعينيها السلام. أهلا !

ثم سألتنى : لماذا ؟ .. لماذا لم تقل لى : أحبك ؟ هى كلمة بسيطة ـ نعم ـ ولكنها مشحونة بالعواطف .. معبأة بالمشاعر. قلها لى مرة ومرة ومرة . فالحب يبحث عن التكرار . الحب لا يمل من الإعادة . الحب كلمة . إشارة . نظرة .

و ... بدأت أرد . رد قصير مختصر .

لقد ركزت ردى لها فى قبلة !

و .. لم تسألنى بعدها مطلقا . إنها فقدت النطق .

.... مع أننى ما زلت أرد !

عاش كما لم يعش إنسان من قبل !

عـــاش مغامـــرا . وفيلســـوفا . ومقامرا . وأديبا ! عرف ألف امـــرأة .. ولم تعرفه امرأة واحدة . قضى ليالى شبابه كعاشق . ولكنه مات فى شيخوخته كمجرم . صادق الملوك والأمراء والنبلاء . ولكنه عندما مات لم يتذكروا حتى اسمه الصحيح . أو عمره الصحيح !

إنه كازانوفا دى سينجالت جوفانى جاكومو . مغامر ومؤلف إيطالى ولد فى سنة ١٧٢٥ ومات فى سنة ١٧٩٨ . ولكنه - ما بين مولده ووفاته - سجل قصة لأكبر عاشق فى العصر الحديث .

أن قيمة كازانوفا كأديب مازالت حتى الآن محل مناقشة . إن أهم عمل أدبى تركه لنا هـــو مذكراته الخاصة . ولكـــن الإجماع يظل فى النهاية حول نقطة واحدة : إن المهم ليس

● مجلة «آخر ساعة» ١٩٦٩/٣/٢٦

هو الأسلوب الذى سجل به كازانوفا مذكرات حياته ، ولكن المهم هو الأسلوب الذى عاش به حياته نفسها .

كازانوفا..

رجـل إيطـالى ، طويل القامة ، عريض الكتفين ، قوى الكفين ، بارز العظام ، واسـع الجبهة ، قلق العينين . منظر صائد . مغامر . إنه يعرف شـيئا من كل شـىء . إنه شاعر بغير انتظام ، لص بغير احتراف ، فيلسوف أحيانا ، أديب أحيانا ، وجنتلمان دائما .

المهم أن هناك كلمة «أحيانا» بعد كل صفة تتعلق بكازانوفا .. إلا صفة واحدة : عشقه للنساء . أن كازانوفا لا يريد أن يعيش عمرا واحدا ، بل مائة . لا يريد امرأة واحدة .. بل ألفا ! و ... عرف كازانوفا فعلا ألف امرأة !

لقد عاش ٧٣ سنة . عاش لا يخجل أبدا ، بل يغامر دائما . لا يتردد أبدا ، بل يتقدم دائما . لا يفكر أبدا ، بل يندفع دائما .

لقد سـجل مذكراته فى ١٦ مجلدا ، ملأها بأسـفاره .. من بحيرة جنيف إلى سـهول روسيا . من إيطاليا جنوبا إلى انجلترا شمالا . ومع ذلك فعندما نقرأ هذه المذكرات لا نجد مطلقـا وصفـا لأى منظر جميل فى الطبيعة . لا . لم يكن كازانوفا من هذا النوع . أن منظر فتـاة صغيرة قذرة تضحك مع جنود سـكارى أهم عنده من كل أعمـال الفن الإيطالى . إنه فـى المجلـد الثانى من مذكراتـه يصف لنا كيف ذهب إلى نابـولى (ايطاليا) لعمل هام . وفى الفندق الذى نزل فيه يسـمع صوت امرأة تقضى ليلتها مع ضابط مجرى فى الحجرة المجاورة . أن كازانوفا سمع صوتها فقط . صوت امرأة شـابة تضحك . إنه لم يعرف بعد هل هى حسناء أم دميمة .. جذابة أم منفرة .. ممكنة أم مستحيلة . لا شىء من هذا يعرفه بعد . ومع ذلك فإنه يلغى فورا كل خططه ويقرر البقاء لكى يجرب حظه مع هذه المغامرة الجديدة .

إن المدينة بغير مغامرة حب ليست مدينة تصلح له . إن الدنيا بغير امرأة ليست دنياه . أى أمرأة .. كل امرأة .. لا يهم . شـهر واحد . أسـبوع واحد . بل حتى يوم واحد . هذا يكفـى . دع عينيـه تقعان على أى امرأة . لحظتها تنبض كل شـرايينه . لحظتها يتحرك نحوها بلا وعى .. بغير دافع سوى غريزته . أن كازانوفا يتخذ قراراته كطلقات مسدس..

نتيجة مفاجئة لضغطة بسيطة على الزناد . إنه مثل نابوليون – الذى عاصره فى أواخر حياته – يحب أن يضيف أرضا لأرض ومملكة لمملكة ، مدفوعا بعطش لا نهائى للغزو . وهو مثل دون جوان – الذى سبقه – يحب أن يغرى امرأة بعد أخرى ، مدفوعا بعطش لا نهائى للنساء .

أن كازانوفا فى الواقع لا يعشق امرأة واحدة . إنه يعشق كل امرأة . يعشق جنسا بأكمله ! إن شيئا لا يستطيع أن يقف بينه وبين كل امرأة يحبها . لقد شرب السم مرتين ، وأصيب بأمراض تناسلية أربع مرات ، وتلقى طعنات السيوف ١٢ مرة ، وقضى سنوات من عمره فى سجون أسبانيا ، وفر فى رحلات سريعة من مرتفعات صقلية إلى غابات روسيا . ولكن شيئا من هذا لم يستنفد طاقته . إن جسمه لا يستريح ، وشهوته لا تشبع ، وعشقه لا يموت . لكنه نسى شيئا واحدا .

و ... عرف كازانوفا ألف امرأة .

لم يكن هو وحده البادىء فى الألف مرة ، ولكن النساء أنفسهن كن يقبلن عليه . أن كل امرأة كانت تتحول إلى داعية له . دعاية تسير على قدمين ! أن كازانوفا كان بالنسبة لكل امرأة إلها لمدة ساعة ، معبودا لمدة ليلة ، ذكرى لمدة سنة ، وحسرة بعد عشرين سنة . السبب : إن كازانوفا لا يريد امرأة . إنه يريد كل امرأة . كازانوفا رجل بلا ماض.. بلا مستقبل . إنه يريد أن يعيش هذه اللحظة فقط .. مع هذه المرأة فقط . وعندما يحصل على امرأة ، فإنه يبحث فورا عن امرأة أخرى .

وكان دائما يجد هذه الـ .. مرأة !

سنة .. وسنة .. وسنة ، ثم : اكتشف كازانوفا أنه لم يتنبه لشيء واحد . انه نسى شيئا واحدا : الشيخوخة !

لقد اكتشف أن رأسا يشغل نفسه دائما بجسم آخر ، لابد أن يكون دائما رأسا فوق جسم شاب . الشباب هنا هدف . شرط . ضرورة . وبمجرد أن تتوقف شعلة الحياة فى الجسم الشاب .. تنهار الفلسفة كلها . إن كازانوفا ظل كازانوفا ما دامت أسنانه صلبة وبيضاء .. ما دام شعره أسود طويلا .. ما دام جسمه قويا فارعا . أما عندما تآكلت الأسنان ، وتساقط الشعر ، وانثنى الجسم .. فلقد ظهرت المشكلة المؤجلة . مشكلة بلا حل .

إن الحياة – كبنك متزمت – بدأت تطلب منه أن يعيد إليها ، مع الفوائد ، الطاقات الجسمانية التى أنفقها مبكرا وبسرعة . إن جاذبية كازانوفا تأتى من سعادته . وسعادته تأتى من شبابه . انه جذاب ما دام شابا . أما إذا لم يعد شابا .. إذا لم يعد جذابا .. فما هى النتيجة ؟

هذه هى : فى لندن .. يضطر إلى أن يتسلل ليلا فى الظلام والضباب حتى لا يحكم عليه بالسجن . فى وارسو يجرى البحث عنه كمجرم . فى فيينا ومدريد يحكم عليه بالنفى . فى باريس يتلقى أمرا بالقبض عليه وسجنه بغير محاكمة . إذن .. أصبح كازانوفا شخصا غير مرغوب فيه . شخصا لا يطلبه أحد . لا تطلبه امرأة .. وهذا هو المهم .

فى هذه اللحظة تبدأ مذكرات كازانوفا فى الكشف عن أولى علامات فقدان ثقته فى نفسه . إن التى أسعدته فى البداية هى التى تعاقبه الآن : المرأة ! وأى امرأة ؟ . عاهرة ! أنها تقابله فى لندن .. وتغريه .. وتجرده من كل نقوده .. ثم ، ترفض حتى السماح له بأن يضع إصبعا على جسمها . هنا بالضبط يقول كازانوفا : «أن ما أزعجنى أكثر هو أننى بدأت أفقد تلك القوة التى لازمتنى . لم أعد شابا» .

❑❑❑

لماذا ؟ لماذا هذه النهاية المؤلمة ؟

أن كازانوفا يقول فى مذكراته : «إن أربعة أخماس متعتى انصرفت إلى جعل النساء سعيدات» . فى هذه الجملة القصيرة تكمن مشكلة كازانوفا . وإحدى مشاكل الحب نفسه فى عالمنا المعاصر .

المشكلة هى أن كازانوفا كان يعشق المرأة .. بينما المطلوب أن يعشق امرأة . أن كازانوفا لم يختر . لقد أراد كل امرأة . ليست هذه عاطفة . هذه غريزة . ليس هذا حبا . بل شهوة . ليس شعورا .. بل رغبة . والرجل ليس إنسانا .. إنه صائد . بالطبع يستطيع الإنسان أن يكون صائدا أحيانا .. ولكن ليس دائما . والإنسان ـ أى إنسان ـ لا يستطيع أن يكون إنسانا ناضجا قبل أن يحب . وعندما يحب الإنسان فلا بد أن يختار . لابد من ذلك لأن الحب هو وجهة نظر . موقف . قرار . اختيار . إنه قرار بالاختيار . اختيار «هذه» المرأة بالذات ، أو «هذا» الرجل بالتحديد . ولا يستطيع أن يحب من لا يستطيع أن يختار .

❑❑❑

إن الحب – من وجهة نظر كازانوفا – هو علاقة جسد بجسد . كازانوفا ليس وحده في ذلك .. بل أن معه في هذه النظرة فريقا كاملا من الأدباء والشعراء ظهروا في مراحل التاريخ الإنساني .

وفي مقابل ذلك – في الجانب الآخر – نجد من ينظر إلى الحب باعتباره عاطفة مجردة . انه هنا ليس علاقة جسد بجسد ، بل عقل بعقل . ليس تقابل غريزة مع غريزة ، بل عاطفة مجردة مع عاطفة مجردة . ليس الأدباء هذه المرة .. بل الفلاسفة هم الذين يأخذون الحب من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين . أفلاطون مثلا . إن اصطلاح «الحب الأفلاطوني» في حد ذاته ظل طوال الـ ٢٣ قرنا الماضية عنوانا لنوع من الحب يتجرد فيه الطرفان من أية علاقة جسدية ، ويسموان فيه على أية علاقة جسدية .

❑❑❑

هذه إذن هي الفلسفة والأدب يقفان على طرفي نقيض عنما يحاولان تفسير الحب . إن موقف كل أديب معاصر أو غير معاصر ، وموقف كل شعب وكل مجتمع ، لابد أن تجده في نقطة ما بين الطرفين .

والواقع أن المفهوم الصحيح للحب هو الذى يحقق نقطة التوازن بين الجانب العاطفي والجانب الغريزى في الحب . ونحن نحاول الآن أن نكتشف نقطة التوازن هذه من تاريخ الأدب نفسه .

لماذا الأدب ؟

لأن تاريخ الأدب هو في الواقع تاريخ الحب بمعنى ما . فالحياة تقتبس بعض أشكالها من الأدب . لكن القاعدة أن الأدب – في النهاية – هو «حياة مطبوعة على الورق» . وكل مفهوم إنساني يلجأ فورا إلى الأدب للتعبير عن نفسه . إن الأديب والمؤرخ كلاهما يسجل التطور . فارق واحد بينهما : المؤرخ يجمد التطور في درجة الصفر لكي يسجله . أما الأديب فيسخن التطور إلى درجة الغليان لكي يعبر عنه . إنه فارق في الوسيلة وليس فارقا في الهدف . وحينما نفحص أدب كل شعب سنجد فورا نموذجا للعلاقة بين الرجل والمرأة كما يراها هذا الشعب في مرحلة من المراحل . في الأدب العربي مثلا نجد قصة «قيس وليلى» وقصة «جميل وبثينة» . في الأدب الإنجليزى «روميو وجولييت» . وفي الأدب الفرنسي نجد «بول وفيرجيني» و«أوكاسان ونيكوليت» ... إلخ .

إن الأديب يصف قبل أن يخترع . إنه يسجل قبل أن يحكم .

وفـي البحـث عن مفهوم صحيح للحب يجب أولا أن نحدد الحب الذى نبحث عنه . يجب مثلا أن نحدد طبيعته .. هل هو غريزة .. أم عاطفة ؟

الواقع أن الحب فيه جزء من الغريزة ، وفيه جزء من العاطفة . لكل جزء وجود مستقل وطبيعة مسـتقلة . الجزآن قد يوجدان معا .. وقد ينفصلان تماما . حينما ينفصلان نصبح أمام جنس .. وحب . الجنس غريزة . دافع رئيسـى كالجوع والعطش ، له مثلهما أجزاء جسمانية تعبر عنه . هدفه اختفاء توتر جسمانى مرتبط بتغيرات داخل كيانه العنصرى .

لا شـىء من هذا فى الحب . الناس العاديون يقولون إن مكان الحب هو القلب . فإذا لم يكن مكانه فى القلب .. فإننا لن نستطيع أن نحدد له مكانا آخر فى الجسم . الجنس غريـزة عنـد كل الناس ، بينما الحب لا يشـعر به كل الناس . بـل أن ملايين من الناس – على مدى قرون كثيرة وفى ظل ثقافات عديدة – لم تعرف عاطفة الحب .

والجنس غريزة عامة ، بينما الحب عاطفة شخصية وشخصية جدا . إنه علاقة عاطفية بين هذا الرجل و هذه المرأة . الجنس شهوة ، والحب عاطفة . الجنس موجود فى الأنسان وفى الحيوانات ، بينما الحب هو حصيلة نمو ثقافى . الجنس يخضع للزمن .. فقد تزيد الرغبة الجنسية فى لحظة وتنقص فى لحظة أخرى . ولكن .. لاشىء من هذا فى الحب.. لأن الحب (مؤقتا) دائم .. أما الجنس فمؤقت . والرجل الذى تحكمه غريزته يبحث عن أى امرأة . أما الرجل الذى يحب فموضوعه محدد : هذه الفتاة وحدها .. بالذات !

والجنـس – كغريـزة – محدود فى اهتماماته .. بعكس الحـب . الجنس يهمه لحظة الإرتواء فقط . أما الحب فيقف على الطرف الآخر . إن الشخص الذى يحب يكون سعيدا بسعادة محبوبته .. يتأثر لغيابها .. ويتألم لفراقها .. ويخاف عليها .. ويحزن لحزنها .

❑❑❑

والسؤال الآن هو : لماذا نحب ؟

إن كل حضارة تحاول تقديم اجابتها الخاصة على هذا السؤال . فى الحضارة الإغريقية مثلا .. توجد أسطورة أدبية جميلة تقدم تفسيرا لهذه المشكلة .

تقول الأسطورة : إن الإنسان خلق أولا من جنس واحد . ثم غضب الإله «زيوس» الأكبر على الإنسان ، فقرر أن يقسمه إلى شطرين . إلى نصفين . إلى ذكر وأنثى . وقرر الإله الأكبر

أيضـا أن يظـل كل نصف منهما محتاجـا إلى نصفه الآخر .. يبحث عنـه . ومقابل ذلك وضعت الألهة ضمانا جديدا . فمن كان مطيعا لها ولا يتمرد عليها .. فإن الألهة سترشـده إلى نصفه الثانى .. وبذلك سيجد حبه الحقيقى . أما لو تمرد على الألهة .. فسيظل طوال حياته يبحث عن نصفه الضائع .. بلا جدوى .

إن الفلسـفة وعلم النفس المعاصرين يصلان إلى نفس النتيجة حينما يفسـران المشـكلة كما يلى : إن الحب هو الحل الوحيد لمشـكلة شـعور الإنسـان بوحدتـه . إن الحب هو القوة التى تحافظ على وجود الجنس الإنسـانى . تحافظ على وجود الأسـرة ، والعشيرة ، والمجتمع .

المهم .. إن الحب هو الحل الوحيد لمشـكلة وحدة الإنسـان وشعوره بتلك الوحدة . إنه ضـرورة دائمة وحكم أبدى . هذا رأى متفق عليه بين أقدم الحضارات وأحدثها . الخلاف يأتى فيما بعد . الخلاف يأتى فى تفسير الحب نفسه . فى تحديد دوره .

❑❑❑

فعندمـا نـام آدم .. خلقت حواء من ضلعه . لكنها كانت المـرة الوحيدة التى نام فيها مسـتريح البال ! إن الإنسـان – الآن وفى أى وقت – مشغول بالحب لأن الحب ملازم له دائما . من مولده إلى مماته .. من السبت إلى الجمعة .. من الصباح إلى المساء .. الحب معنا دائما .. أمامنا دائما .. لغز دائما .. متناقض دائما .

وعندمـا نعود خلفـا إلى الحضارة الإغريقية نجد أن أفلاطون يذكر لنا أسـطورة جميلة تلخص تناقضات الحب . وتقول الأسـطورة : أن الألهـة أقامت وليمة احتفالا بليلة مولد «أفروديت» . وكان من بين الألهة الحاضرين الأله «فوروس» .. إله الغنى . بعد قليل جاءت «بنيا» – الفقر – لكى تمد يدها طالبة الإحسان . وشرب «فوروس» من رحيق السماء حتى ثمـل .. إذ لم تكـن الخمر قد خلقت بعد .. فهام على وجهه فى حدائق زيوس حتى غلبه النعاس وذهب فى نوم عميق . ورأت «بنيا» – الفقر – أنها لا تملك شيئا فخطر ببالها أن تلد من «فوروس» – الغنى . وكان المولود اسمه إيروس (الحب) .

ومـادام الحب – كما تقول الأسـطورة – هو ابن «فـوروس» و«بنيا» .. يعنى ابنا للغنى والفقـر .. فـإن أحوالـه تصبح كما يلـى : إنه فى فقـر دائم . وليس كمـا يتوهمه عامة

الناس من الرقة والجمال .. بل على العكس هو خشن الطبع ، قذر ، يمشى حافى القدمين ، بلا مأوى ، ينام فى العراء وعند أبواب الدور أو فى الطرقات . هذه صفات ورثها عن أمه .

ولكن .. لما كان قد ورث الغنى أيضا عن أبيه ، فإن الحب يسعى إلى الحصول على كل ما هو جميل وخير . إنه شجاع ، مقدام ، صائد بارع ، واسع الحيلة ، ينصب شباكه دائما . إنه - مثل أبيه - عاقل وغنى . ولكنه ـ مثل أمه - فقير وغبى ! إنه حى فى لحظة.. ميت فى اللحظة التالية !

الحب إذن ليس إلها . ولكنه متوسط بين الآلهة والبشر . وهو ليس فانيا ولا خالدا . لو كان إلها ما طلب الحكمة . ولو كان جاهلا ما طلب الحق . إنه وسط بين الاثنين . إنه أيضا وسط بين طرفين : المحب .. والمحبوب .

❑❑❑

والحب نفسه على أنواع . لقد رأينا من قبل نظرتين متطرفتين للحب : واحدة ترى الحب عاطفة مجردة .. والأخرى تراه غريزة عمياء . واحدة تناصر «الحب للحب» .. والأخرى تؤيد «الحب للجنس» .

وبين النظرتين تراوح موقف الأدب الإنسانى .

فى القرون الوسطى مثلا .. كانت القمة محجوزة دائما لمفهوم «الحب للحب» . والواقع أن أكثر العشاق خلودا هم الذين نسجت عنهم الأساطير وكتبت عنهم الروايات فى القرون الوسطى . بل أن الأدب المعاصر ما زالت لديه امتدادات لعشاق القرون الوسطى .

خذ قصة «لوليتا» مثلا ، التى ألفها الكاتب الأمريكى فلاديمير نابوكوف . أن لوليتا فتاة لا يزيد عمرها على ١٢ سنة وسبعة أشهر . إنها حتى لم تصل بعد إلى الثالثة عشرة . ولكن «لوليتا» فتاة تتمتع بسحر مزعج وصفاقة بريئة .. هكذا تقول القصة . تقول أيضا أن «همبرت» - البطل - هو رجل أوربى فى أواخر الثلاثينات من عمره . إنه يعيش فى أمريكا منذ مدة قصيرة . إن همبرت يكتشف لوليتا فى مدينة أمريكية صغيرة كان يقضى فيها إجازته . الحب من أول نظرة . ثم .. حيلة جنونية لكى يستحوذ على الطفلة . إنه يتزوج أمها أولا . ولكن الأم سرعان ما تموت فى حادث سيارة .

هنا يلجأ همبرت إلى أخذ لوليتا بعيدا إلى فندق . إنه يعطيها منوما .. ولكنه لا يجرؤ على أن يستفيد من نومها ، فيظل طول الليل بلا حراك . فى الصباح تكون هى - لوليتا - التى تغريه . ثم .. يبدأ الطيران الطويل للفتاة وزوج أمها .. تتبعهما خطيئتهما . إنهما يستمران فى التجول معا من مدينة إلى مدينة .. إلى اليوم الذى تهرب فيه لوليتا بعد أن أغراها رجل آخر (سوف يقتله همبرت) . وفى سن السابعة عشرة - بعد أن تزوجت من ميكانيكى شاب - فإنها تموت . أن موتها يقع بعد أسابيع قليلة من إصابة همبرت بجلطة دموية .

إن هذه فضيحة بأكثر مما هى قصة . والواقع أن المؤلف نفسه لا تفوته فرصة إلا ويعلن فيها إدانته للبطل . ولهذا النوع من العشق الذى يمثله . إن البطل يجد نفسه مرفوضا من الوسط الاجتماعى المحيط به . مرفوضا من قوانينه وتقاليده . ويجد نفسه مهجورا من حوريته . والنتيجة إنه يرتكب جريمة جنونية ويموت مخمورا بالحب فى سجنه ، كعقوبة صارمة لعواطفه .

إننا فى هذه القصة نجد أنفسنا مشاركين للمؤلف فى إثارته . مصفقين للغته ، ضاحكين معه . ولكننا لا نتحرك عاطفيا مطلقا . فالقصة . كعمل أدبى . ليست قصة . أنها مجرد دراسة فى الجنس . إنها - أدبيا - فضيحة . ولكن ليس هذا هو الجانب الذى يعنينا فى الموضوع . يعنينا فقط أن نخرج بالتلخيص التالى : اننا هنا أمام عاشق . إنه عاشق يعلم مقدما أن حبه مستحيل . إن المجتمع يقف عقبة بينه وبين حوريته . البطل نفسه يقول فى القصة «لقد وجدت نفسى أنضج وسط حضارة تسمح لرجل فى الخامسة والعشرين بالارتباط بفتاة فى السادسة عشرة . ولكنها لا تسمح له بذلك مع فتاة فى الثانية عشرة» .ولكن المجتمع ليس وحده ضد العاشق هنا . إنها الطبيعة أيضا .

هنا بالضبط نجد أن هذه الصورة امتداد لمفهوم فى الحب ساد القرون الوسطى . ليس من حيث أن موضوع العشق هو فتاة لم تصل بعد حتى إلى سن المراهقة .. لأن هذا كان وضعا مألوفا فى القرون الوسطى (الشاعر الإيطالى دانتى مثلا كان يحب بياتريس . التى كان عمرها تسع سنوات . وفى القرن التاسع عشر تزوج الشاعر الأمريكى ادجار آلان بو لفتاة فى سن الرابعة عشرة). الإمتداد هنا ليس بالنسبة لموضوع الحب . بل بالنسبة لنوع الحب . ونوع العشاق .

❑❑❑

إن أعظم مثل لذلك هو أسطورة «تريسترام» التى ذاعت وانتشرت فى الأدب الغربى فى القرون الوسطى . إن تاريخ أول نسخة منها يرجع إلى القرن الثانى عشر وتناولها فيما بعد شعراء كثيرون ، ولحنها «فاجنر» فى سنة ١٨٦٥ .

أن «تريســترام» – منذ لحظة ولادته – هو شــخص تعيس أبوه مات حالا وأمه ماتت فــور ولادتــه . ولكن الملك «مارك» – خاله – يأخذ الطفــل اليتيم ليربيه فى قلعته . وينمو الطفل ليصبح شــابا وفارسا وشجاعا . ويرســله الملك «مارك» إلى ايرلندا ليجىء بعروس له – للملك – هى الحســناء «ايزولده» . أن «تريســترام» و«ايزولده» يحسان بالعطش وهما فى الســفينة فتحضر لها خادمة «ايزولده» شــرابا ســحريا خطأ .. كانت أم العروس قد أعدته لكى يشــربه الملك «مارك» وعروســه بعد خطبتهما . ونتيجة لهذا الخطأ فإن «تريســترام» و«ايزولده» قد أصبح محكوما عليهما بمصير لا يستطيعان الهرب منه طوال حياتهما . إنهما بســبب هذا الدواء نشأ بينهما حب متبادل .. وقد اعترفا الآن لبعضهما بهذا الحب وذهبا فى عناق طويل .

ولكن «تريســترام» مــا زال عليه واجب مكلف به . مهمة يجــب أن ينجزها منذ كلفه بهاالملك «مارك» . وهكذا ، فبالرغم من خيانته للملك فإنه يسلم «ايزولده» إليه .

وفــى ليلة الزفاف تقوم خادمة «ايزولــده» – بفضل الحيلة – بأخذ مكان «ايزولده» فى الســرير الملكى . وهكذا تنقذ ســيرتها وتكفر فى نفس الوقت عن خطئها فى صب الشراب السحرى .

وتتصــل علاقــة «تريســترام» و«ايزولده» إلى علــم الملك . وبعد تفاصيــل عديدة ، يتأكد مــن وجود هــذه العلاقة ، فيقرر معاقبة كل منهما . إلا أن العاشــقين يتمكنان من الهرب ويختبئان فى الغابات . لقد عاشا ثلاث سنوات فى الغابة حياة صعبة وقاسية .

ثم حدث ذات يوم أن الملك «مارك» كان يتجول فى الغابة فرأى العاشقين نائمين . ولكنه وجد سيفا بينهما . واقتنع الملك بدليل البراءة هذا .. فيقبل فيما بعد عرض «تريسترام» بأن يعيد إليه «ايزولده» . وفعلا .. تعود «ايزولده» إلى الملك .. ويرحل «تريســترام» إلى جزيرة بعيــدة .. بل ويتزوج فعلا من امرأة أخرى .. حيث بدأ يتصور أن «ايزولده» لابد أن تكون قد نسيته بعد هذه المدة الطويلة .

ثم يصاب «تريسترام» فى يوم ما بجرح قاتل . إنه يعلم أن هناك امرأة واحدة تستطيع شفاءه من هذا الجرح : «ايزولده» . لهذا السبب يرسل فى طلبها . إنها تأتى إليه . وحينما تقترب سفينتها من جزيرته تنصب شراعا أبيض كعلامة أمل . ولكن زوجة «تريسترام» تراقب هذا كله .. وتمزقها الغيرة .. ومن ثم فإنها تذهب إلى «تريسترام» الراقد بين الحياة والموت .. وتخبره بأن الشراع أسود وليس أبيض . فى هذه اللحظة يموت «تريسترام» . وحينما تصل «ايزولده» بعد قليل فإنها تجد عشيقها قد فارق الحياة لتوه .. فتعانقه ميتا ، ثم تموت هى الأخرى .

❑❑❑

إن هذه الأسطورة تحدد لنا بالضبط ملامح الحياة فى القرون الوسطى . لا ، إنه ليس حبا .. بل عشق . فالبطل هنا يعشق محبوبته إلى حد العبادة . وهو يواجه حواجز مرتفعة وضعها المجتمع بينهما . إن الحب يعيش على وجود هذه الحواجز . فالعاشقان فى قصة «تريسترام» لايحبان بعضهما حقيقة . أن الاثنين يحبان .. الحب ! يعبدانه ويصليان له ويعيشان عليه . والحب عندهما يقاس بمدى غياب الطرف الآخر . ففى غيابه يحدث الألم وتبدأ الوجيعة . فى نفس الوقت لم يكن الزواج حلا للمشكلة . فالزواج يسحب من الحب رومانسيته وخياله .

إن شعراء القرون الوسطى استبعدوا الزواج كعلاج . أما العلاج فهو الموت ، والموت فقط . فالحب الرومانسى أيامها كان يخشى الواقع ويخاف من الضوء . إن الزواج هنا مستحيل . إنه مستحيل لأن عقبات ضخمة تمنعه . وإذا لم يضع المجتمع أو الطبيعة هذه العقبات (كما فى قصة لوليتا) فإن العاشقين يقومان بوضعها (كما يرمز السيف الذى وضعه تريسترام بينه وبين ايزولده) .

إن علاقة العشق هنا ترفض كل ما هو عاجل ، وتتحاشى كل ما هو قريب . والعشق نفسه لا يعيش هنا إلا من على مسافة . وعندما لا توجد هذه المسافة فإنه يخترعها . باختصار : العاشقان هنا يحبان الحب .. بأكثر مما يحب كل منهما الطرف الآخر !

هذا صحيح بالنسبة لأسطورة «تريسترام» . وصحيح أيضا بالنسبة لروميو وجولييت فى الأدب الإنجليزى .. وفى قصة «بيرجنت» فى أدب الشمال .. وفى قصة «قيس وليلى» و«جميل وبثينه» فى الأدب العربى .

❑❑❑

إن هذا المعنى يلخصه جميل فى قصة «جميل وبثينه» عندما يقول :

يموت الهوى منى إذا لقيتها
ويحيـــا إذا فارقتهـا فيعــود

إن العاشــق هنا يحب الحب بأكثر مما يعشــق محبوبته . إنه يعشق الحب ويفخر به . هذا أهم عنده من اللقاء بمحبوبته . إن عشقه يموت منه إذا التقى بها . يموت لأنه اقترب أكثر مما يجب . ولكنه يعيش من بعيد . من مسافة .

هــل نريد نموذجا أكثر معاصرة ؟ فلنأخذ مثلا أغنيــة أم كلثوم التى كتبها أحمد رامى «أنت الحب» عندما يقول الشاعر :

ولـمـا أشــوف حــد يحبك
يحلالـى أجيب سيرتك وياه

هــل هذا معقــول .. أو منطقى ؟ نعم .. ولا . نعم هو منطقى إذا فهمنا أن الشــعار هنا هو «الحب للحب» . ولكنه غير معقول ولا منطقى إذا فهمنا أن الحب عاطفة شــخصية.. وشخصية جدا .. وليس هكذا «على المشاع» .. كما أنها لايجب أن تحتفظ بوجود المسافة بين طرفى الحب .

إن مدرسة «الحب للحب» أعطتنا أعمالا أدبية رائعة .. تاريخيا . ولكن العاشقون بهذا المفهوم لايحب أيهما الآخر حقيقة . إن كل ما يريده كل منهما ليس وجود الطرف الآخر بل غيابه . إن افتراقهما شرط جوهرى يمليه حبهما نفسه .

ولكن مدرســة «الحب للحب» ســيطرت على الأدب لمدة طويلة طويلة . ليس هذا مدحا أو ذما . ولكنه تسجيل تاريخى قبل كل شىء . إن مدرسة «الحب للحب» أعطت للأدب الغربى والعربى جزءا من أمتع رواياته الرومانسية والشاعرية . إنه مدرسة ترفض كل ما هو واقعى وتؤمن بكل ما هو خيالى . وهى تحتفظ دائما بمسافة كبيرة بين العاشق والمعشوق . إن مسرحية «أهمية أن يكون الإنسان جادا» لأوسكار وايلد مثلا تلخص هذا المعنى عندما يقول أحد أبطالها : «فى الحق إنى لا أرى فى طلب الزواج أية شــاعرية . الشــاعرية كل الشاعرية فى أن يكون الإنسان عاشقا . إن جوهر الشاعرية فى الحب هو أن يظل الأمر معلقا بين الشك واليقين» .



وعلى الطرف الآخر من هذه المدرسة في الحب نجد مدرسة أخرى . مدرسة نجد أحسن مثـال لها في أسـطورة «دون جوان». أن «دون جوان» هو البطل الأسـطورى فى كثير من الأعمال الأدبية حتى مطلع القرن العشـرين . لقد كتب عنه موليير ، وبايرون . وبلزاك ، وبراوننج ، وجورج برنارد شو . لقد أصبح الاسم ممثلا لمن يغزو قلوب النساء ، تماما مثل زميله الإيطالى «كازانوفا» .

الاثنان إذن - دون جوان الإسبانى وكازانوفا الإيطالى - ينتميان إلى مدرسة واحدة فى الحب هىمدرسة «الحب للجنس» أو «الحب للغريزة» مقابل المدرسة الأخرى «الحب للحب» .

ونستطيع أن نقارن بين دون جوان وبين بطل أسطورة «تريسترام» مثلا . أن «تريسترام» يريـد مـا هو أكثر من الزواج . أمـا دون جوان فيريد ما هو أقل من الزواج . «تريسـترام» تسـتمر متعتـه بقدر بقاء محبوبته عذراء . أما دون جـوان فمتعته الوحيدة هى الإنتهاك ، الإغتصاب . وبمجرد أن يحقق هذه المتعة ينتهى كل شـىء . ينصرف . إنه ينصرف بحثا عن هدف جديد لمتعة جديدة .

و«تريسترام» يملك امرأة واحدة .. هى «ايزولده» . أما دون جوان فيملك ألفا وثلاث نساء (فى اسبانيا وحدها) . «تريسترام» أعمى عن الدنيا كلها إلا عن حبيبته . لقد تركزت الدنيا كلها فى شخص معشوقته . أما دون جوان فما يهمه هو الكثرة . التنوع . التعدد .

والحب للحب يحتاج إلى دموع كثيرة . دموع مستمرة . كما فى أسطورة «تريسترام» . أما «الحب للجنس» فيحتاج إلى قفشـات كثيرة . كما فى أسـطورة دون جوان . إن الحب عند «تريسترام» عاطفة تقتل الغريزة . والحب عند دون جوان غريزة تقتل العاطفة .

لنأخذ مثلا هذه الكلمات التى يقولها دون جوان : «.. إننى التقطت تفاحة . استمتعت بها ، أنا أرى تفاحة أخرى .. من المنطقى أن ألتقطها أيضا» . هذا السبب - ومثله كثير - هو الذى يحرك دون جوان فى غرامياته . إنه ينسـى أن المرأة ليسـت مجرد تفاحة .. وأن المرأة يضايقها تماما رجل لم «يمسك» بها . يضايقها رجل يكتفى بـ «تذوقها» .

□□□

ويمكـن أن نجرى مقارنه مماثلة بين دون جوان و«كازانوفا» . الاثنان يؤمنان بمدرسـة واحدة فى الحب . مدرسة «الحب للجنس» . الاثنان «يسخطان» الحب إلى مجرد غريزة . مجرد شهوة .

أن المقارنة بين هذين الإثنين بالذات كانت الشغل الشاغل لمؤرخين عديدين وكتاب مختلفين . إنها بالضبط – مع فوارق كثيرة – كالمقارنة بين تولستوى وديستوفيسكى .. أو بين ميشيل أنجلو وليوناردو دافينشي .. أو بين أفلاطون وسقراط .

فبالرغم من انتمائهما إلى مدرسة واحدة وشعار واحد فإنهما يبدآن من نقطتى بداية مختلفتين . كازانوفا يحب النساء . يحب الجنس كله . أما دون جوان فيكرههن . إن دون جوان يحب أن يكشف فى المرأة نقطة ضعفها . وهى لذلك تسعد به لحظة ، ولكنها تكرهه بعد ذلك سنوات . المرأة هنا تكره نفسها قبل أن تكره دون جوان . لنأخذ مثلا «دونا آنا» أو «دونا اليفرا» و ... كل الباقيات .. ظلت أرواحهن مسممة بعد تجربتهن مع دون جوان .

وإلى جانب ذلك هناك أيضا جوانب اتفاق كثيرة بين كازانوفا ودون جوان . فأولا .. كلاهما يؤمن بالجزء الغريزى فى الحب . كلاهما لايحب امرأة ، ولكنه يحب المرأة . كلاهما يؤمن بأن النساء تحت ملابسهن عاريات متساويات . وكلاهما .. بعد هذا كله : لا يحب !

□□□

إذن .. ما هو الحب ؟

إذا لم يكن الحب هو قيس وليلى ، أو جميل وبثينه ، أو روميو وجولييت .. فما هو الحب ؟

إذا لم يكن الحب هو كازانوفا ، ولا دون جوان .. إذن .. فما هو ؟

إن الحب هو اختيار . هو بداية غريزية تتبعها نهاية عاطفية . إنه ضرورة إنسانية . الحب ضرورة .. لأن الإنسان لا يستطيع أن يصنع من وحدته سجنا يعيش فيه . هذا معناه الجنون . والإنسان فى جميع العصور والثقافات يواجه نفس السؤال : كيف يتغلب على وحدته وانعزاله ؟ . السؤال واحد مع رجل يعيش فى الكهف . ومع بدوى فى الصحراء . ومع فلاح فى الحقل . ومع التاجر الفينيقى و .. مع الموظف وعامل الإنتاج فى العصر الحديث .

والحب بعد هذا كله : فن . إنه فن له أصول وقواعد مثل أى فن . إن الحب فن لأسباب عديدة . فأولا .. معظم الناس يرى مشكلة الحب باعتبارها أساسا مشكلة أن يكون

محبوبا .. أكثر مما هى مشـكلة أن يحب . وفى السـعى نحو هذا الهدف فإن الناس – أنا وأنت وهى وهم – يسلكون طرقا مختلفة .

إن الرجل مثلا ، يهمه أن يكون ناجحا ، قويا ، غنيا . والمرأة يهمها أن تكون جذابة ، أنيقـة ، جميلـة . إن كلا مـن المرأة والرجل يريد أن يكون جذابـا لأكبر عدد من الجنس الآخر . إن الجاذبية نفسـها تختلف من عصر إلى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، ومن طبقة إلى طبقة داخل نفس المجتمع .

فمنذ عشـرين سـنة مثلا كانت الفتاة الجذابة هى التى تطبخ وتكنس وتغسـل جيدا ، وتقنع كثيرا ولا تناقش أبدا وتطيع دائما . وكان الرجل الجذاب هو الذى يتمتع بشـوارب مبرومة وعضلات مفتولة .. «ابن بلد» مع أصدقائه و«سى السيد» مع أسرته .

والنظـرة إلى الحـب تختلف أيضا من عصر إلى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع . الناس منذ عشـرين سـنة مثلا – وحتى الآن – يرون المسـألة على أنها «وقوع» فى الحب . كلمة «وقوع» هنا توحى بأن الحب مسألة سلبية للغاية ، نقع فيها دون تخطيط سابق أو استعداد سالف . وتوحى أيضا بأنه لاشىء أسهل من الحب .

❑❑❑

وأول خطوة لتصحيح هذا كله هى أن نؤمن أولا بأن الحب مسـألة حتمية ، وثانيا بأن الحب .. فن .

فالحـب حتمـى .. ضرورى ضرورة الحياة نفسـها . هكذا صورته أسـاطير الإغريق ، وحددته الأديان ، وتؤكده الحقيقة . أن المفكر الفرنسى «فولتير» مثلا يرى .. أن الحب هو الشـىء الوحيد الذى يعوض الإنسـان عن كل الصفات التى أعطتها الطبيعة للحيوانات : القوة ، الجمال ، الرشاقة ، والسرعة .. بل إنه تفرد عن كائنات حية كثيرة لا تعرف متعة الإتصال أو العلاقة الجنسـية . إن الأسماك مثلا محرومة من هذه البهجة .. حيث الأنثى تضع وتقذف بملايين البيض على الوحل .. ثم يأتى الذكر بالصدفة فيعوم فوقها ويخصبها دون أن يشغل نفسه بمن تكون الأنثى التى وضعتها .

والإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف مثلا ما هى القبلة . إن كل جسمه حساس . إن شفتيه مثلا قادرتان على تحقيق هذه المتعة التى لايعرفها كائن آخر سواه : القبلة .

وفيكتور هوجو يقول : «أقصى سعادة فى الحياة .. هى أن نقتنع بأننا محبوبون» .

والشاعر الهندى طاغور يقول : «الحب هو الحياة فى تمامها وامتلائها .. كالكأس مليئة بخمرها» .

□□□

هذه هى متعة الحب .. وتلك هى حتميته . وحينما أحب فإننى أبدأ فى رؤية الدنيا بشكل مختلف . إن الوسادة تحت رأسى تصبح رفيقا لى ، وضوء القمر متعتى ، والنجوم حروفى ، والأزهار رموزى ، والهواء طعامى . فالحب يجعلنى أرى الدنيا كما لم تكن دنيا . والحب قدر . مصير . نهاية . بل - أكثر من ذلك - يثبت لنا التاريخ والأدب أن الإنسان حينما لايجد الحب فإنه يخترعه . وحينما يخترعه .. فإنه يصدقه .

إن الأديب الروسى مكسيم جوركى مثلا له قصة بعنوان «ستة وعشرون وواحد» . وفى القصة يقول على لسان أبطال القصة الستة وعشرين : «كنا - مثل كل الناس - لا نستطيع أن نعيش دون أن نعبد شيئا ما . شخصا ما . ولم يكن أمامنا سواها .. فعبدناها» . لقد اشترك ستة وعشرون عاملا فى حب فتاة واحدة عندما لم يكن أمامهم حل آخر غير ذلك !

وفى الحرب العالمية الثانية قرأناقصة الجندى الألمانى الذى ظل يبكى بعصبية .. لأن دبابته دمرت . إن فقدانها بالنسبة له كان مسألة تعنى أكثر مما يعنيه فقدانه لزملائه . لماذا ؟ لأن الدبابة كانت شيئا مساويا عنده لرفيق إنسانى . كانت طبقة حامية له ضد العالم الخارجى القاسى .

ومن أروع القصص التى قرأتها قصة للكاتب الفرنسى «بلزاك» بعنوان «غرام فى الصحراء» . القصة بسيطة .. غاية فى البساطة . وهى بسيطة لأنها إنسانية . وهى قمة فى إنسانيتها . هذه هى : أن جنديا فرنسيا جاء إلى مصر مع جنود نابوليون . ثم أسرته قبيلة من الأعراب الذين يعيشون فى الصحراء الغربية . ولكنه فر من الأسر . يفر إلى أين ؟ لا شىء أمامه سوى الرمال يمينا ويسارا . أماما وخلفا . صحراء فى صحراء . ثم كاد يموت من اليأس . أن عمره ٢٢ سنة ولكنه أحس بأنه أصبح شيخا فى السبعين . ثم نام فى إحدى المغارات . نام لكى يستيقظ على صوت حيوان ضخم إلى جانبه : لبؤة ! ماذا حدث بعد

ذلك ؟ أحبته اللبؤة ! تصور ؟ بل إنها بدأت تغار عليه عندما بدأ يتطلع بشوق إلى نسر رآه فجأة يحلق فى السماء ! و .. أحبها هو !

المهم : بساطة القصة واضحة . نحن نحب .. لأنه لابد لنا أن نحب . لابد . لا مفر . لا فكاك .

□□□

ثم يأتى سؤال : كيف نحب ؟

إن الحب فن . انه فن لأسباب كثيرة سبق عرض بعضها . وما دام الحب فنا فلابد أن تكون له – مثل أى فن – قواعد وأصول . أن أى فن .. لنقل مثلا الموسيقى أو الرسم أو الطب أو حتى التجارة .. له أصول وقواعد . فهل فى الحب مثل هذا ؟

طبعا . هكذا يقول عالم النفس الأمريكى «ايريك فروم» . انه يقسم مراحل أى فن إلى مرحلتين . أولا : إجادة القواعد النظرية . وثانيا : الممارسة والتطبيق .

فإذا أردنا مثلا أن نتعلم «فن» الطب .. فيجب أن نتعلم أولا الحقائق العامة عن الجسم الإنسانى وعن أحوال إصابته بالأمراض . وعندما نمتاز فى ذلك لا يبقى لدينا سوى اختبار هذه القواعد فى التطبيق .

والحقائق العامة فى الحب تقول أن الإنسان يبدأ طفلا . والطفل يحب أمه مثلا لأنها تحبه . يحب أسرته لأنها تحميه . إن شعاره هو «أنا أحب .. لأننى محبوب» . أما الرجل الناضج فشعاره يجب أن يكون «أنا محبوب .. لأننى أحب» .

فالحب هو أساسا ليس علاقة بشخص آخر ، بل هو أولا «شعور» نحو شخص آخر . شخص محدد . فأنا إذا كنت أحب فتاة محددة .. فإننى فى الواقع أحب فيها كل الناس . وإذا كنت قادرا على أن أقول لها «أنا أحبك» فيجب أن أكون قادرا على أن أقول لها أيضا «أنا أحب فيك كل الناس .. أحب الدنيا من خلالك .. وأنا أحب فيك نفسى أيضا» ! لماذا ؟ لأن وجود حالة حب بين طرفين معناه فى الواقع أن كل طرف منهما يرى فى الطرف الآخر امتدادا له . استمرارا له . استكمالا له .

وفى الحب لابد أن يكون الطرفان متساويين . عندما أكون عبدا فإننى أتمنى أن تكون محبوبتى سيدة على . هى تقودنى وأنا أستسلم لها . عندما أكون طاغية أريدها خادمة

لى . أنا فى المقدمة .. وهى ورائى . أما عندما أكون إنسانا .. فيجب أن تكون مساوية لى.. مشاركة لى . رأسا برأس . رأيا برأى . حبا بحب ..

❑❑❑

والحـــب هو ابـــن الوهم .. وأبو الحقيقة . إنه يبدأ بغير منطق ، ولكنه ينتهى بمنطق . فالحب هو الدواء الفريد ضد الموت . إننا فى الحب – وبالحب – نسعى إلى تخليد أنفسنا . ونحن نخلد أنفسنا على الأرض بشرط أن نموت . بشرط أن نسلم حياتنا إلى آخرين . نسلم حياتنا لهم .. ثم نموت .

وفى هذا المعنى يقول الشـــاعر الهندى الكبير الراحل طاغور : «ليس الابن عزيزا على أبيه لذاته ، ولكن الأب يرى فيه امتدادا لنفسه ويرى فيه خلود حياته لأجيال مقبلة» .

أذن .. فى الحب يسعى كل طرف إلى تخليد نفسه بواسطة الطرف الآخر ومن خلاله . وهذا يحدث دائما .. على الرغم من أنه لايكون ســاعتها واعيا بذلك .. أو متنبها لذلك . أن كل طرف يبنى متعته على هذا الأساس .

والحـــب دائمـــا علاقة بين اثنـــين . كل منهما هـــو العبد والطاغية فـــى وقت واحد . عبد للآخـــر وطاغيـــة عليه دائما . إذا كان عبدا دائما ، أو طاغية دائما ، فهذا ليس حبا . هذا مرض .

والرجل يريد دائما أن يشعر بالحب . أو يريد ـ وهو نفس الشىء ـ أن يشعر بالحنان . إن الرجل يريد من امرأته أن تدرك وتشارك فى متاعبه وهمومه . أن الشحات يشعر بعرفان أقل للحسنة التى يقذفها له رجل متجهم .. يسرع فى الطريق . ولكنه يشعر بعرفان أكثر لمن يشفق عليه بدون أن يعطيه حسنة .. على الرغم من أنه ـ لاعتبارات عملية ـ قد يفضل الأول !

وحب المرأة – فوق كل شىء – هو دائما حنون فى جوهره . به شىء من الأمومة . إن المرأة تشـــفق على رجلها لأنها لا تحب أن تراه يقاســـى ويتعذب . جولييت كانت حنونا على روميو .. وايزابيل على لورانزو .

فالنتيجـــة : إن المـــرأة .. أكثر حبا من الرجل . أكثـــر نقاء . أكثر صفاء . أكثر عمقا . والحنان هو جوهر الحب الإنسانى . إنه حنون أكثر كل من يحب أكثر .



ومن ناحية أخرى فإن الحب نشاط ، وليس حركة سلبية . إنه موقف وليس «وقوعا» . إنــه عطاء قبل أن يكون أخذا . فالشــخص الذى لا يحب أحــدا لايمكن أن يحبه أحد ! أو – بكلمات الفيلســوف الألمانى «نيتشــه» : «يجب أن نحترس من الشــخص الذى يكره نفســه ، لأننا متأكدون من أننا ســوف نصبح ضحايا غضبه ونقمته . دعنا إذن نحاول أن نقنعه بأن يحب نفسه» .

والحــب بعــد ذلك هو تضحية . إنه تضحية مشــتركة . لا يهم مــن يبدأ . لا يهم من يضحى أكثر . المهم أن كل طرف مستعد للتضحية .

ولكن شعراء وأدباء القرون الوسطى كان شعارهم فى الواقع هو «الحب للحب» كما سبق القول . لقد قدموا لنا أعظم العشــاق . ولكن هؤلاء العشــاق أنفسهم سقطوا تماما فى العصر الحديــث . لا يوجــد الآن روميــو ، أو دون جــوان ، أو كازانوفا ، أو قيس ، أو جميل . لا يوجد واحد من هؤلاء كبطل فى الحياة أو فى الأعمال الأدبية . لأن مثل هؤلاء العشــاق يخيفهــم الواقــع ، وتقتلهم الحقيقة . أن الغرام الخيالى الرومانســى أصبح نوعا من الحب يرفضه العصر الحديث الآن ، متى كانت ترفضه الحياة نفسها فى كل وقت .

أن الأديب الروســى العظيم «تولســتوى» لــه قصة تلخص هذا المعنــى . قصة عنوانها «ســعادة الأســرة» .. فبعد حــب عنيف تزوج الرجل والمــرأة . ولم يكد يمضى وقت طويل حتــى بدأت المرأة تحس بــأن الزواج أصبح «قفصا» لحبها . إنهــا تقول فى القصة : «.. لم يكــن هــذا ما أحتاجه ، أو ما أطلبه . أنــا أريد صراعا . أريد مقاومة . أنا أريد العاطفة تقــود الحيــاة ، لا الحياة تقود العاطفة» . وهى تقول أيضا : «.. إن حياتنا أصبح لها نمط واحد . أن احساساتنا قد تجمدت فى القلب . انشراح فى الصباح . احترام فى الظهيرة . حب فى المساء» .

إنها نهاية طبيعية لهذا النوع من الحب : الحب الذى يحلق فى السماء دون أن يقف علــى الأرض . هــذا امتداد لمفهوم الحــب الأفلاطونى .. وهو امتــداد أيضا لمفهوم «الحب للحب» عند أدباء القرون الوسطى . فالجب عندهم كان ساحرا بقدر ما هو محرم وممنوع.. ميــت بقدر ما هو معــترف به علنا . أن الحب عندهم يتغــذى بالصعوبات التى يقاتلها . فالحب يختار العذاب والألم قبل أن يختار السعادة . إنه يدفع الشخص إلى أن يموت من أجل امرأة لم يكن ليحبها لو عاش معها .

لهذا السبب فإن الحب للحب مفهوم لا يصلح الآن لعصرنا هذا . لا يصلح لأنه يحتاج إلى المعارضـــة ، أو حتى إلى الرفض الرسمى ، لكي يلتهب ويشـــتعل . وإذا افتقر مثل هذا الحـــب إلى العقبـــات ، فإن النهر الذى يدفعه إلى الأمام يصبح فارغا ، كاشـــفا عن الأرض الحقيقية ، عن الواقع المجرد .

لقد ســقط «الحب للحب» فى عصرنا الحديث لأســباب كثيرة . أحد هذه الأسباب هو حصول المرأة على المســاواة السياســية والقانونية و - أهم من ذلك - المساواة الاقتصادية . فمجرد أن تصبح المرأة كائنا متساويا ، معناه أن من حقها أن يصبح لها حياة خاصة بها . هــذا يضطر الرجــل إلى أن يعاملها ككائن حقيقى . كائن بعيد عن الأوهام ، يجب التفاهم معــه عمليــا . كائن له مكانة يجب احترامها . إن المــرأة ، فى وضعها هذا ، من الصعب جدا أن تستســلم لمدرســة «الحب للحب» التى يمثلها عشــاق القرون الوسطى . الحب من بعيد.. من مسافة .

إن المرأة الحديثة - مثل الرجل الحديث - أصبح من حقها أن تجرب . وأن تختار ، وأن تحب . قد تفشــل مرة . قد تفشــل مرات . ولكن العلاج الوحيد لأخطاء الحرية .. هو مزيد من الحرية .

□□□

إن الله خلــق آدم وحواء وتركهما يعيشــان فى الجنة ، وعندمــا عصيا ربهما وأكلا من الشجرة المحرمة أنزلهما إلى الأرض . هذا طبيعى . هذا ضرورى . فلا توجد حرية قبل أن يوجد حق الاختيار . أن آدم لم يصبح إنسانا قبل أن يكون من حقه أن يعصى ربه . وكل إنســان منا ليس حرا قبل أن يســتطيع أن يختار ، وأن يرفض . أما إذا لم يكن من حقه الإختيار ، فإنه ليس إنســانا ، مثلما هو ليس حرا . والوجه الآخر للحرية هو المســئولية . فمن يختار عليه أن يتحمل تاليا عواقب اختياره ومسئولية حريته .

ومن منظور الحب فإن الحق فى الإختيار أصبح هو الشــرط الحقيقى فى الحب . كان حقا مقصورا على الرجل طوال قرون وقرون . الجديد أنه أصبح أيضا حقا معترفا به للمرأة فــى المجتمعات الناضجة . فالمجتمع لايمكــن أن يكون ناجحا قبل أن يتعامل نصفاه من نقطتين متساويتين . من رجل وامرأة . وليس من سيد وخادمة .

و ...

لقد أمتعنا الأدب الإنسانى حقا ونحن نتابع فيه صوره المختلفة للحب . وأمتعنا الشعراء - مع اختلافنا أو اتفاقنا معهم - فى تصويرهم الصادق لعاطفة أساسية لازمت الإنسان منذ نشأته . لقد حولوا لنا الحب إلى فن . فن نتمناه دائما بقدر ما نتصنع الزهد فيه أحيانا .

إن الشـاعر الهندى الكبير الراحل طاغور يصور أحد هذه المواقف فى ديوانه «البستان» حينما يكتب على لسان امرأة :

قال لى فى همس : ارفعى عينيك يا حبى
فنهرته بحدة وقلت : امض !
لكنه لم يحرك ساكنا
وقف أمامى ، وأمسك بكلتا يدى ،
فقلت : دعنى !
أدنى وجهه من أذنى . فنظرت إليه
وقلت : يا للعار !
لكنه لم يحرك ساكنا .
ولامست شفتاه وجنتى ، فارتجفت
وقلت : يا لجرأتك !
لكنه لم يخجل .
وثبت زهرة فى شعرى
فقلت : لا فائدة !
لكنه وقف بلا حراك .
ثم أخذ الإكليل من عنقى . ومضى بعيدا ..
إننى أبكى . وأسأل قلبى :
لم لايعود مرة أخرى ؟!


إسلاميات





«.. يا ابن أخي أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علـى وألحت علينا سنون منكرة . وليســت لنــا مادة ولا تجارة .. وخديجة بنت خويلــد تبعث رجالا من قومك .. فيتجرون في مالها .. فلو جئتها فعرضت نفســك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما بلغها عنك من طهارتك» .

هكذا تحدث أبو طالب إلى ابن أخيه الشاب محمد بن عبد الله في حوار بينهما عن خديجة : امرأة من قريش ذات شرف ومال . تستأجر الرجال على تجارتها وتبعث بها إلى الشام .

وقبــل أن تعلم خديجة بهذا الحوار كانت تعلم الكثير عن صدق محمد وأمانته وعفته . لهذا أرسلت هي إليه تدعوه إلى الخروج إلى الشام متاجرا في مالها .. بأجر أكبر من غيره . وخادم لها اسمه «ميسرة» .

ولقد كانت خديجة رضى الله عنها أول زوجة لمحمد . تزوجها بعد أن قالت له : «يابن عمى ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك وصيتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك» .

وعندمــا تم الزواج كانت خديجة أكبر من محمد : هى فى الأربعين وهو فى الخامســة والعشرين . وكانت أغنى من محمد : هى صاحبة مال وهو فقير إلى المال . ومع ذلك فإنه ظل على وفائه لها طيلة حياته . إن خديجة كانت أول امرأة تزوجها محمد . ولم يتزوج غيرها حتى ماتت . ولقد امتد وفاؤه لها بعد وفاتها . بحيث إن زواجه بغيرها لم يمح ذكراها من نفسه قط . وفاء دفع زوجته عائشة رضى الله عنها إلى إن تغار منها وهى فى قبرها .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٩/١١/١٥ .

قالت له عائشــة ذات مرة مشـيرة إلى خديجة : هل كانت إلا عجوزا بدلك الله خيرا منها ؟

ورد عليها رسول الله ، ردا قصيرا مختصرا . قال النبي غاضبا : «لا والله .. ما أبدلني الله خـيرا منها . آمنت بي إذ كفر الناس ، وواسـتني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء» .

❑❑❑

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم .

طاهـر في شـبابه ، صادق في حديثه ، أمـين في معاملته ، كريـم في أخلاقه وفي طباعه . إنه هذا كله ، حتى قبل أن يصبح الشاب رجلا ، والرجل نبيا ، والنبي صاحب رسالة . أفضل رسالة .

❑❑❑

ولد محمد في مكة يوم الإثنين الموافق ٢٠ من ابريل سنة ٥٧١ ميلادية . ولم يطلق اسم «محمد» على أحد غيره قبل ولادته .. سوى ستة . فاسم «محمد» لم يكن معروفا قبله عند العرب ولا غيرهم .. إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبيا يبعث اسمه محمد ، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون هو «أحدهم» والله أعلم حيث يجعل رسـالته وهم : محمد بن أحيحة . ومحمد بن مسـيلمة . ومحمد بن براء ، ومحمد بن سـفيان ، ومحمد بن حمران ، ومحمد بن خزاعي . ثم إن الله حمى كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها له أحد . أو يظهر عليه سـبب يشـكك أحدا في أمره . حتى تحققت الشيمتان له صلى الله عليه وسلم لم ينازع فيهما .

ولقد ولد محمد بن عبد الله عن أب توفي قبل ولادته بشهور . وأم توفيت بعد ولادته بست سـنوات . لقد أصبح الطفل يعيش في كفالة جده . عبد المطلب . إلى أن أصبح في الثامنة من عمره . ثم تكفل به . بعد جده . عمه أبو طالب .. حتى السنوات المبكرة في شباب محمد .

❑❑❑

كان رسول الله متوسط الطول . عريض الكتفين . واسع الصدر . غزير الشعر . عظيم الرأس . مسـتدير الوجه . أسمر اللون مشرب بحمرة . واسع الجبين . كثيف الحاجبين

بينهمـا عرق يدره الغضب . أكحـل العينين ، تام الأذنين ، ضليع الفم ، طويل الأنف ، سهل الخدين ، منفرج الأسنان ، ضخم اللحية ، غليظ الكفين ، أشعر الذراعين والصدر ، بين كتفيه خاتم النبوة . توفاه الله وليس فى رأسـه ولحيته عشـرون شعرة بيضاء . سريع الخطوات . إذا مشى فجسمه يميل إلى الأمام . إذا التفت فبجسمه كله . إذا زار أحدا لايقوم حتى يستأذنه . إذا لقى أحدا يبدأه بالسلام . لم يره أحد قط مادا رجليه بين أصحابه . لم يتنفس فى إناء . لم ينفخ فى طعام أو شراب . إذا صمت فعليه الوقار . إذا تكلم سما .

ورسـول الله لم يكن يتكلم إلا عن ضرورة . إنه متواصل الأحزان دائم التفكير . ليسـت له راحة . لا يتكلم فى غير حاجة . طويل السـكوت . يفتتح الكلام ويختمه بألفاظ سـليمة المخرج ، واضحة النبرات . دمث .. ليس بالمتكبر ولا بالمتصاغر . يعظم النعمة وإن قلت . ولايـذم منها شـيئا ولا يمدحه . إذا تعرض للحـق لم يعرفه أحد . إذا غضب لحق لا يقيم شيئا حتى ينتصر له . لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . إذا أشار فبكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها . يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسـرى . إذا غضب أعرض وأشاح . إذا مزح غض طرفه . قليل الضحك ، كثير الابتسام ، قريب من قلوب جلسائه .

❑❑❑

إن مجلـس رسـول الله مجلس حلم وحياء وصبر وأمانـة . لا ترفع فيه الأصوات . ولا تنتهك الحرمات ، ولا ترتكب الزلات . مجلس يتفاضل الناس فيه بالتقوى . ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب .

ومحمد رسـول الله هو – فى هذا كله – دائم البشـر ، سـهل الخلق . لين الجانب . إنه ليس فظا ولا غليظا ولا عيابا ولا مداحا . إنه لا يقطع على أحد حديثه . لا يقبل ثناء إلا من مقتصد . لا يغضبه شـىء بسـيط ولا يسـتفزه . يتحدث بحسنى . يستمع بصبر . يناقش بهدوء . يسـتمع باهتمام . إنه رسـول . والرسول يجب أن يكون قدوة . إنه قدوة . والقدوة يجب أولا أن تكون قدوة فى الأخلاق والصفات . لهذا قال رسول الله : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

❑❑❑

فى القرآن الكريم نقرأ : «وإنك لعلى خلق عظيم» .

وفي صحيح مسلم نقرأ لرسول الله : «إن الله اصطفى قريشا من بني اسماعيل ، واصطفى بني هاشم من قريش ، واصطفاني من بني هاشم» .

وفي كل مرة سئلت عائشة أم المؤمنين عن خلق رسول الله قالت : «كان خلقه القرآن .. يرضى لرضاه ويسخط لسخطه» .

إن محمد رسول . إنه نبي . ولكنه إنسان . والإنسان قد يطغى ، وقد يظلم ، وقد يسيء التصرف . الإنسان قد ينادى بشعار .. ثم لا يطبقه . قد يدعو لمبدأ .. ثم لا يمارسه . وقد ينطق بالعدل .. ولكنه يتصرف عن هوى . لهذا فإن محمدا كان حريصا على أن يسد هذه الفجوة . إن له معركة لنشر رسالته ، ولكن معركته الأولى هي أولا مع نفسه . إن دعوته ، رسالته ، مبادئه ، لا قيمة لها .. مالم يكن هو أولا خاضعا لها ومطبقا لتعاليمها .

لهذا يقول محمد لأصحابه بعد عودتهم من الغزو : مرحبا بكم قد قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .. جهاد النفس .

ومرة أخرى يقول سائل لرسول الله : أى الجهاد أفضل ؟ فيرد الرسول : جهادك هواك .

إن محمدا يكرر هذا المعنى دائما في كل إجابة ، وكل مجلس ، وكل مناسبة . ولكنه أيضا حريص على أن يبدأ بنفسه ، ويجاهد نفسه في كل دقيقة .. وكل تصرف .

□□□

قال رجل مرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا سيدنا وابن سيدنا ...»

ولكن الرسول يرد فورا على الرجل وغيره فيقول : «يا أيها الناس .. لا يستهوينكم الشيطان . أنا محمد بن عبد الله ورسوله . والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله» .

وعندما مات ابنه ابراهيم .. كسفت الشمس . ساعتها قال الناس: إن الشمس كسفت لموت ابراهيم .

ولكن الرسول يقوم في المسجد ويقول بأعلى صوته : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فادعو الله وصلوا وتصدقوا .

إن محمدا أب . إن موت ابنه ابراهيم هو بالنسبة له صدمة لا يعرفها إلا كل أب . ولكن محمدا هو أيضا قائد . إنه القائد الرسول . والرسول صاحب رسالة . وصاحب

الرســالة قدوة . إنه يرفــض وهما خلقته المصادفة . يرفض إطــراء لا يحتاج إليه . يرفض مديحا لا يريده . إنه صاحب دعوة . وصاحب الدعوة نموذج . والنموذج الأصيل يريد لأمته الصراحة لا النفاق . إنه يستمد قوته من عقول الناس ، لا من أوهامهم ونفاقهم .

❑❑❑

سـئلت عائشـــة أم المؤمنين - رضى الله عنها - ذات مرة : ماذا كان رســول الله يعمل فى بيته ؟

وأجابت عائشـــة : كان رســول الله صلى الله عليه وسلم بشرا من البشر ، يرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويصلح نعله ،ويخدم نفسه .

لقد دخل عمر بن الخطاب ذات مرة على رسول الله فوجده مضطجعا على سرير مشدود بشريط ، وتحت رأسه وسادة من جلد حشوها لين .

وحينما رأى عمر آثار الشريط بجنب رسول الله بكى . فسأله الرسول : ما يبكيك يا عمر ؟

قال عمر : والله ما أبكى إلا لأننى أعلم أنك أكرم على الله من كســرى وقيصر . وهما يعيشان فى الدنيا فيما يعيشان فيه . وأنت يا رسول الله فى المكان الذى أرى .

فقال رسول الله : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا . ولنا الآخرة ؟

ورد عمر : بلى ..

قال الرسول : فإنه كذلك .

هكذا كان رســول الله . إن الحد الأدنى من كل شــىء .. هو أمر كاف بالنسبة له . إن رسالته أهم من راحته . ودعوته أبقى مع تواضعه . وسلطته أكبر مع تقشفه .

لقد كان الشهر بأكمله يمر على أسرته بغير أن توقد نار واحدة فى بيت من بيوت رسول الله . شهر كامل .. أحيانا شهران .. لا يصنعون فيهما خبزا ولا يطبخون قدرا كما كانت عائشــة تروى . وحينما ســألها عروة بن الزبير : يا خالة .. على أى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت عائشة : على الأسودين .. التمر والماء .

ولقــد دخــل أبو بكر وعمر بن الخطاب ذات مرة على الرســول فى بيته فوجداه صامتا وواجما .. إذ إن عائشة وحفصة - زوجتيه - كانتا تسألان الرسول النفقة .. وهو لا يجد .

وحينمــا رأى أبــو بكر وعمر ذلك قام الأول إلى ابنته عائشــة ، والثانى إلى ابنته حفصة ، يريدان عقابهما ويقولان : تسألْنَ رسول الله ما ليس عنده ؟

وكان الرد : والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده .

وبعد أن اعتزلهن رســول الله شــهرا نزلت الآية : «يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأســرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورســوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحســنات منكن أجرا عظيما» (الأحزاب: آية ٢٨ ، ٢٩) .

ثم بدأ الرســول بعائشــة قائلا لها : يا عائشة .. إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ..

ردت عائشة : وما هو يا رسول الله ؟

وعندما تلا عليها الآية ، قالت : أفيك يا رســول الله أستشــير أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وبتلك الكلمات القليلة أصبح المعنى محددا : القناعة بمستوى أقل مما يعيش فيه كثير من المسلمين .. لأن الأعمال هى الترجمة الفعلية للأقوال .

إن رســول الله لو أراد لاغتنى .. ولو أمر لتمتع . ولكنه يريد شــيئا أهم وأبقى . يريد أن يكون مثلا لأمته . يريد من أعماله أن تطابق أقواله . إن رسالته تجعله أفضل الناس . ولكنها لا تجعله فوق الناس . إذا كان فاضلا . فلأنه صاحب دعوة ، وليس صاحب سطوة .

لقد كان الرسول يطوف مرة بالبيت الحرام .. فقال : اسقونى .

ولكنهم ردوا عليه : إن هذا الماء يخوضه الناس .. وسوف نأتيك بماء من البيت .

ساعتها رد الرسول : لا حاجة لى فيه .. اسقونى مما شرب منه الناس .

وفى مرة دخل على ابنته فاطمة .. فرأى فى يدها سلســلة من ذهب .. بينما هى تقول لامرأة عندها : هذه أهداها أبو الحسن .

ولكن رســول الله قال : يا فاطمة . أيســرك أن يقول الناس هذا عن ابنة محمد بن عبد الله ؟ . ثم خرج ولم يقعد . فأرســلت فاطمة السلســلة فباعتها . واشــترت بثمنها عبدا ،

فأعتقتــه تقربــا إلى الله . ســاعتها كان تعليق رســول الله : الحمد لله الــذى نجى فاطمة من النار .

ومع وجود هذه القيود الاختيارية التى فرضها رسول الله على نفسه وعلى أسرته ، فإنه كان أكــرم النــاس . فى الواقع إنه كان : «.. أجود ما يكون فى شــهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحى فيدارسه القرآن ، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة» .

□□□

عندما طلب ذات مرة عدد من الناس من خارجة بن ثابت أن يحدثهم عن بعض أخلاق الرســول صلى الله عليه وســلم ، قال : «.. كنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا . وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا . وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا» .

نعم . لكل وقت عند رسول الله حاجته . لكل شىء عنده ضرورة . إنه يرفض مثلا أن يكون الإيمان عذرا للكسل ، ولا عذرا لسوء المعاملة .

قيل له مرة: إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها . ولكنها ســيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها .ورد رسول الله : لا خير فيها .. وهى من أهل النار .

ومر الرسول يوما على شيخ تورمت يداه من فرط العمل ، فأخذ اليد المتورمة يشد عليها قائلا : هذه يد يحبها الله ورسوله .

إن العمل عند رســول الله هو قيمة عليا . هو شــرف . هو واجب . إنه يقول : «ما أكل أحد طعاما قط .. خيرا من أن يأكل من عمل يده» . ويقول أيضا : «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب به فيبيعه .. خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» .

□□□

الرســول يريــد لأمتــه المعرفة والعلــم . إنه يقول «طلــب العلم فريضة على كل مســلم ومســلمة» . ويقول أيضا «إذا أتى على يــوم لا أزداد فيه علما ، فلا بورك فى طلوع شمس ذلك اليوم» .

وقبل أن يريد الرســول لأمته العمل والعلم . فإنه يريد لها العدل . إنه يقول «ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة ، إلا كانت له بطانتان . بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه . وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه . والمعصوم من عصم الله» .

إن العــدل عند رســول الله هو قيمة فوق كل قيمة . إنه يطلبــه من الحاكم ، ثم يطلبه من المحكوم . إن الرسول يحذر «ما من أحد يكون من أمور هذه الأمة ، فلم يعدل فيهم ، إلا كبه الله فى النار» . ومرة أخرى يحذر «أشــد الناس عذابا يوم القيامة من أشــركه الله فى ســلطانه فجار فى حكمه» . ولكن الرســول يعلم أيضا أن المحكوم مسئول أولا عن عدل حاكمه. لهذا يقول النبى «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» . ثم يقول من جديد «كما تكونون يولـى عليكم» . أصل صحيح لصورة معاصرة : كل شعب يستحق الحكومة التى تحكمه .

إن الرسول يريد لأمته الرحمة : ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

والرسول يريد لأمته العزة : من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منى .

والرســول يريد لأمته الأصالة : اتقوا المهلكات .. شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه .

الرســول إذن يريد لأمته القوة . يريد العدل . يريد التواضع ، الصراحة ، الشــجاعة ، الإيمان ، العلم ، العمل ، العزة . يريد الرسول لأمته الحلم ،والأخلاق .يريد النظافة . إنه يقــول : «إن الله طيــب يحب الطيب . نظيف يحــب النظافة . كريم يحب الكرم . جواد يحب الجود . فنظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود» .

إن الرســول كان يأمر أصحابه بالنظافة . ولقد كان هو يغســل يديه قبل الأكل وبعده ، ويمشط شعره . ويسرح لحيته . وينظف أسنانه بالسواك ، ويحرض على ذلك بعد الطعام والاستيقاظ من النوم . ويقول لصحبه «اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأسا بدينار» .

إن النظافة عند الرسول هى جزء من الإيمان ، مثلما الكرم جزء من الإيمان . والتواضع جزء من الإيمان . والعدل جزء من الإيمان . والشجاعة أيضا .. جزء من الإيمان . وسوف نجد هذا متناسقا فى شخصية محمد .

حينما تسأل عائشة : كيف كان الرسول فى أهله ؟ فإنها تجيب : كان ألين الناس ، وأكرم الناس . وكان ضحاكا بساما .

وحينما يســأل خادمه أنس نفس الســؤال يقول : كان رســول الله صلى الله عليه وسلم يكثــر الذكــر ويقل اللغو ويركب الحمار ويلبس الصــوف ويجيب دعوة المملوك . إنه . فى

المزاح ، أفكه الناس مع صبى . وفى الحياء ، أشد حياء من العذراء . إنه لا يسب ولا يلعن ولا يفحــش القول . إنه – بتعبير عائشــة رضى الله عنهــا – لم يضرب بيده خادما له قط ولا امرأة ، ولم يضرب بيده شــيئا إلا إذا كان يجاهد فى ســبيل الله . ولم يتح له الاختيار بين شيئين إلا اختار أيسرهما .. ما لم يكن إثما . فإذا كان إثما ، فإن الرسول يكون أبعد الناس عن الإثم . إنه لا ينتقم لنفســه من شــىء إلا إذا انتهكت حرمات الله . ساعتها فقط يتحرك الرسول . إنه يتحرك انتقاما لعزة الله وجلالته .

والرســول ، حينما يتعلق الأمر بعقيدته أو مبادئه ، لا يســاوم . إنه يعلن بكل قوة : «والله لو وضعوا الشــمس فى يمينى والقمر فى يســارى على أن أترك هذا الأمر لما فعلت، . حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه» . هذا هو كل الرد الذى يكرره رسول الله . . إنه ، فى رســالته ودعوته ، لا يقبل مســاومات أو أنصاف حلول . وإلى أن يظهر الله كلمته . فإنه ســوف يتحمــل كل المصاعب والآلام .. مواجها لها بقلب كله إيمــان .. وعقل كله ثقة.. وجسم كله شجاعة .

وحتى قبل أن يحمل محمد الرسالة . حتى وهو مايزال صبيا فإنه يرفض أن يقسم بآلهة قومــه . ثــم يتقدم مع قافلته ليكبح جماح فحل من الإبل توحش على القافلة . إنه يســبق قومه عندما يهابون واديا مليئا بالماء ويقول : اتبعونى . اتبعونى .

وحينما يفزع أهل «المدينة» فى إحدى الليالى .. يجدون أن رسول الله قد سبقهم إلى مصدر الصوت ، مصدر الخطر ، بسيف فى عنقه وكلمات فى فمه : لن تراعوا . وفى يوم حنين وجد الرسول أن الناس قد بدأوا يفرون عنه . ولكنه يقف على بغلته صائحا فيهم :

أنا النبى لا كـذب

أنا بن عبد المطلـب

ومــا دام الرســول كذلك فإن الله ناصره . إن الله تعالى يقــول : «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة . فاتقوا الله لعلكم تشكرون» (آل عمران: آية ١٢٣). إن بدرًا كانت أول تجربة للرســول فى إدارة المعارك الكبرى . لقد دخل الرســول «غزوة بدر» وليس معه سوى أربعة عشر وثلثمائة رجل . سلاحهم السيوف . أفراسهم ثلاث . بعيرهم سبعون . وفى مقابل ذلك كانت قريش تواجهه كاملة العدة : المقاتلون ألف . الفرسان مائة . البعير سبعمائة .

نعم . هذه إذن هي النقطة : بثلثمائة رجل وعقيدة واحدة يكسب الرسول المعركة . إن رجاله أقل ، وسلاحه أقل ، واستعداده أقل .. ولكن إيمانه أكبر ، وعقيدته أعظم ، وثقته أضخم .

إن الرسول في تلك المعركة الكبيرة الأولى يرفع كلمة ربه .. ويؤكد من جديد قدرته على أن يكون قدوة . إن جنديا في جيشه ، هو الحباب بن المنذر ، يراجع رسول الله في المكان الذى اختاره للنزال في بدر ويسأله : يا رسول الله .. هل هذا المكان أنزلك الله فيه لا نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

والرسول يرد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فيقول الحباب : يا رسول الله .. هذا إذن ليس موقعا مناسبا .

وحينما يقترح الجندى على القائد موقعا آخر ، يوافقه القائد - يوافقه النبى - ويقول له : لقد أشرت بالرأى .

إن محمدا رسول . إنه نبى . إنه صاحب رسالة . إنه المصطفى من عند الله . ولكنه مع ذلك يريد حوله رجالا يستطيعون أن يقولوا له : لا . جنودا يستطيعون أن يناقشوه ، ويراجعوه في الرأى . ولو اختار الرسول غير هؤلاء .. لو اختار مجرد ناس يوافقون .. مجرد ناس ينافقون .. لاختلف الأمر كثيرا ، واختلفت النتيجة جدا .

إن الرسول حينما يخوض معركة عسكرية ، فإنه يخوضها بمنطق الرجل العسكرى .. وتخطيط الرجل العسكرى . إنه يفكر في كل التفاصيل ، ويسد كل الثغرات . ولكن ، أهم من هذا كله ، إنه يهاجم ليدافع . إن محمدا لم يبدأ أحدا بالعدوان . ولكن حينما يريد الدفاع .. فهو الذى يهاجم أولا . إنه يستعد ويستعد ويستعد . إنه يصبر ويصبر ويصبر . ولكنه حينما يحس بشراسة عدوه .. فإنه لا يعطيه فرصة الاختيار . لا يعطيه ميزة البدء بالهجوم . إن البداية هى نصف الحرب . لهذا فإن الرسول القائد يحرص دائما على أن يحتفظ لنفسه بزمام المبادرة . إذا كان لابد من الحرب .. فإنه هو الذى يجب أن يضرب بأول سيف . ويختار أفضل موقع ، ويحدد أنسب لحظة .

□□□

هذا هو القائد ، الرســول ، النبى . إنه الرجل الذى كتب عنه الكاتب الغربى ليونارد قائــلا : «إن كان رجــل على هذه الأرض قد عــرف الله ، وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له ، وفنى فى خدمته بقصد شريف ودافع عظيم .. فإن هذا الرجل هو بلا شك محمد نبى العرب» .

نعم . محمد هو هذا الرجل . من صباحه إلى مسائه . من شروقه إلى غروبه . من مولده إلى وفاته . وحينما توفى النبى ، حينما ذهب القائد ، وجدوا على ســيفه صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات المحفورة : «اعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، وقل الحق ولو على نفسك» .



عمر بن الخطاب
تقرير عن نزاهة الحكم

- ١ -

من الذى قال إن السقوط الأخلاقى ثمن لنجاح رجل السياسة ؟

- ٢ -

عمر بن الخطاب رجل سياسة . إنه إنسان وحاكم وسلطان وأمير للمؤمنين . بحكم إنسانيته كلن محبًا للغناء ومتذوقا للشعر . بعد خلافته استمر ومتذوقا للشعر لكن فيما يفيض من وقت بعد مواجهة مسئوليات الحكم . وهو فى الحكم اشتهر بحزمه وعدله واستقامته . لكنه من اللحظة الأولى أدرك أن استقامة الحاكم لا تنفصل عن استقامة معاونيه . واستقامة المعاونين لا تنفصل عن محاسبتهم .. لأن الاستقامة ليست مجرد بداية . إنها امتحان يتجدد أمام الناس يوما بعد يوم .

ذات يوم سأل من حوله : هل إذا وليت عليكم خير من أعلم . ثم أمرته بالعدل بينكم . أكون قد استوفيت مسئوليتى ؟ قالوا : نعم . لكنه استدركهم قائلا : أبدا .. حتى أنظر فيما يعمله وأراجع مدى استمراره فى استقامته . فإذا أصاب .. فهذه كفاءته . لكنه إذا أخطأ .. فتلك مسئوليتى .

- ٣ -

توفى النبى محمد بغير أن يوصى بمن يخلفه . محمد رسول اصطفاه الله .وبوفاته اكتملت الرسالة . فى نفس اللحظة بدأت الدولة . والدولة بدأت بعاصفة .

كان السؤال الجوهرى هو : من الأحق بخلافة رسول الله ؟ ليس خلافته فى الدين ولكن خلافته فى تولى السلطة . سلطة قيادة الدولة الوليدة الناشئة . البعض يصر على أن يكون

• جريدة «أخبار اليوم» ١٩٧٥/٩/٦

الخليفة من الأنصار ، وهم الأغلبية . والبعض يريده من المهاجرين ، وهم الأقلية . البعض الثالث يريده من عائلة النبى محمد أخذا بفكرة أن القرابة تزكى المرشح لتولى السلطة . كلها عصبيات . وكل عصبية جاهزة بحجتها . وأصبح انقسام الرأى ، وعصبية كل فريق ، أول الأخطار التى تواجه الدولة الجديدة فى يوم اختيار الخليفة .

– ٤ –

لعـدة أسـباب كان موقف عمر بـن الخطاب فى ذلك اليوم هو الحاسـم لكل خلاف . عمر معروف باسـتقامته ، وبضميره ، وبحزمه ، وبعدله ، وبشـدته فى الحق وعزوفه عن السلطة .

قال أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب : ابسط يدك نبايع لك .

رد عمر : أنت أفضل منى .

قال أبو بكر : وأنت أقوى منى .

رد عمر : إن قوتى لك ، مع فضلك .

عندها فقط .. اجتمعت كلمة الحاضرين . الجميع هدأ . الجميع اقتنع . وأصبح أبو بكر أول خليفة لرســول الله فى الدولة الجديدة الوليدة . ومرت العاصفة .. لتبدأ الدولة . فى زمن الرسول كانت الرسالة . والرسالة هى القرآن . وفى زمن الرسول كان محمد بن عبد الله يقول للناس أيضا : أنتم أدرى بشئون دنياكم . فى ولاية الخليفة الأول كان أبو بكر مشغولا بحماية الأمر الواقع ضد المتمردين . ثم خلفه عمر بن الخطاب لمرحلة تالية ، ستكون الأكثر حسما لأنها ، بعد نشر الرسالة ، مرحلة إقامة الدولة .

فــى إقامة الدولــة الوليدة كان التحدى مزدوجا . هناك تحـدٍ من الداخل ، وهو خطر الارتداد إلى عصبيات القبائل ثم الفروع المتعددة داخل القبيلة الواحدة . هذا مجتمع بدوى صغير مايزال قريب العهد بالجاهلية ، وحديث المصالح الضيقة المباشـرة خفت صوته أيام الرسول لكن المشوار مايزال طويلا لتعميق روح الإسلام قبل نصوصه .

وهنــاك أيضا تحدٍ فى الخارج تمثلــه امبراطوريات محيطة ومجتمعات وبيئات مختلفة ومتنوعة أكثر تطورا وتقدما وبأسا .. وأصبح فيها من يتوجس من جاذبية الرسالة الجديدة ودعوتها إلى مجتمع إنسانى أفضل .

في مثل تلك اللحظة الحرجة بدأت ولاية عمر بن الخطاب . وفيما بعد سوف يسجلْ عبد الله بن مسعود عن عمر : «كان إسلامه فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة» . وفيما بعد أيضا قال معاوية بن أبي سفيان موازنا بين الخلفاء الأوائل : «أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده . وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها . وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرا لبطن» .

لكن هذه وغيرها من الأحكام والتقييمات التالية هي استباق للأحداث . في اللحظة الراهنة نحن ما نزال في الأشهر الأولى من ولاية عمر بن الخطاب .. وفي مرحلته الأولى التي يتحول فيها من رجل سياسة إلى رجل دولة .

— ٥ —

عمر بن الخطاب يتجول ليلا في المدينة . إنه دائما يفعل ذلك مطمئنا بنفسه على أحوال المواطنين . في هذه المرة وقع شيء مختلف . لقد شاهد رجلا وامرأة في بيت ، يشربان الخمر .

في الصباح استدعى عمر الرجل مواجها له بتهمته متأهبا لتوقيع العقوبة عليه .

سأل الرجل : من أخبرك يا أمير المؤمنين بأنني شربت الخمر أمس ؟

رد عمر بن الخطاب : أنا شاهدتك .. بنفسي . شاهدتك تعصى الله ..

قال الرجل : يا أمير المؤمنين . أنا عصيت الله في واحدة . وأنت عصيته في ثلاث . إن الله يأمر بدخول البيوت من أبوابها .. وأنت لم تفعل ذلك . والله ينهاكم عن دخول بيوت قبل أن تسلموا على أهلها .. وأنت لم تفعل ذلك . والله يمنع من التجسس .. وأنت فعلت ذلك .

الآن انقلبت القضية أمام أمير المؤمنين . إن هدفه أخلاقي . فالجريمة هي شرب الخمر . ولكن الوسيلة نفسها غير أخلاقية . إن الحاكم هنا يحتج بالهدف .. والمواطن يحتج بالوسيلة .. فما العمل ؟

العمل هو أن يتراجع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فأخلاقية الهدف لا تبرر عدم أخلاقية الوسيلة .

— ٦ —

تراجع عمر بن الخطاب .

- ٧ -

كان عمر واثقا ، فلم يخشى المعارضة . عظيما ، فلم يخش النقد . قنوعا ، فلم يخضع للثروة . ديموقراطيا ، فلم يخش الثورة . أمينا ، فلم يخش الخيانة . عادلا ، فلم يخشى الظلم . قويا ، فلم يضعف . كبيرا ، فلم يستعن بصغار النفوس . واضحا ، فلم يلتو . شجاعا ، فلم يخش غير الله . حكيما ، ففرق بين الحزم والإرهاب . عفيفا ، فلم يحقد . متواضعا ، فلم يتجبر . رحيما ، فلم يتعسف . حرا ، فلم يستعبد . زاهدا ، فلم يشته . قنوعا ، فلم يطمع . منتصرا ، فلم يستبد .

وكان عمر بشرا ، فأدرك أن العصمة لله وحده . كان إنسانا ، فعرف كيف يقسو على نفسه قبل أن يقسو على الآخرين . عمر كان يقسو على نفسه .

- ٨ -

في الجاهلية عرفه الجميع : طويل القامة ، نحيل القوام ، أبيض اللون ، أعسر أيسر ، سريع الخطوة ، جيد البيان ، حسن الكلام ، جهوري الصوت ، عصبي المشاعر ، رقيق القلب ، نادر الابتسامة ، دائم الصرامة ، شديد الجدية ، معتز النفس ، رقيق الحس ، مستقيم الرأى ، عميق الرقة ، فظيع الغضب .

في الإسلام أيضا عرفه الجميع : شديد العداء ، عميق الصداقة ، صريح الرأى ، واسع الاجتهاد ، مخلص المشورة ، عنيف الجهاد ، طاهر الإيمان ، جاهد مع رسول الله في رسالته فأبلى .. وأشار على أبو بكر في خلافته .. فصدق .

- ٩ -

مرض أبو بكر .

- ١٠ -

في المرض خشي أبو بكر من اختلاف المسلمين بعده إذا توفي . لهذا أراد أن يختار لهم خليفة من بعده . لقد نظر وتأمل وفكر . فاستقر على اختيار عمر بن الخطاب . ولكي يطمئن قلبه .. فإنه طلب من كبار الصحابة حوله رأيهم في هذا الترشيح .

لقد أجابوه جميعا : إن عمر فاضل وصادق ومؤمن . ولكن ...

هنا بدأت اعتراضاتهم .

بعضهم قال : إن فيه غلظة .. والسياسة تحتاج إلى مرونة . وبعضهم قال : إن مظهره أشد صرامة من جوهره .. والسياسة تحتاج إلى العكس .

وبعضهـم دخل مع أبى بكر فى فراش مرضه يسـألونه فى احتجاج : ماذا تقول لربك إذا سـألك عن اسـتخلاف عمر علينا ؟ لقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه .. فكيف إذا خلا بهم بعد لقاء ربك ؟

هنا غضب أبو بكر . لقد صاح بأهله فأجلسوه على الفراش . وعندما جلس قال غاضبا : أبالله تخوفوننى ؟ اللهم إنى استخلفت على أهلك خير أهلك .

نعم . أدرك أبو بكر أن الإسـلام فى لحظة شـدة . ولحظات الشـدة تحتاج إلى حاكم يصـارح النـاس ولا ينافقهـم . يعدل بين الناس ولا يمالئهم . إن أبـو بكر يعرف عن عمر حقيقته ، ولكن الآخرين يعرفون عنه سمعته . . إن السمعة هى حصيلة جمع وطرح المشاعر نحو عمر . ولكن أبو بكر يريد إنجازات عمر . لهذا أشـرف أبو بكر على الناس يخاطبهم : أترضون بمن أسـتخلف لكم ؟ فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ، ولا وليت ذا قرابة ، وإنى قد وليت عمر بن الخطاب .. فاسمعوا له وأطيعوا .

— ١١ —

مساء الاثنين : مات أبو بكر .

— ١٢ —

ظهر الثلاثاء . الخليفة الجديد عمر بن الخطاب يخطب فى المسـجد : أيها الناس .. ما أنا إلا رجل مثلكم .. ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم .

الصمت .

عمر يبتهل والناس تسمع : اللهم إنى غليظ فاجعلنى لينا . اللهم إنى ضعيف فاجعلنى قويا . اللهم إنى بخيل فاجعلنى سخيا ..

فى هذه المرة : الانتظار .. والصمت .

عمر يقرر والناس تسمع : إن الله ابتلاكم بى . وابتلانى بكم ..

تلـك هـى كل أوراق التوصية التى حملها عمر إلى الناس فى منصبه الجديد : إسـلام وإيمان وقدر وشخصية .

الآن بدأ الحاكم . وبدأت المسئولية .

- ١٣ -

المهمة الأولى : عمر بن الخطاب يريد متطوعين . إنه يريدهم للخدمة فى جيش المسلمين الذى يحارب ضد الفرس فى العراق . لقد ضغط الفرس واشتدوا فى هجومهم .. وانسحب جيش المسلمين إلى مدينة «الحيرة» ، وهو الآن فى موقف صعب . إن الانتظار ضرر والموقف حرج واللحظة خطرة والخليفة يطلب متطوعين .

لا متطوعين .

يوما ويومين وثلاثة : لا متطوعين . هل الناس ما زالوا يخشون فى عمر شدته ؟ إذن .. فليوضح لهم عمر .

حين الصلاة قال لهم أمير المؤمنين عمر : «اعلموا أن تلك الشدة قد اضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق . وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف والكفاف ... فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى . وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم . أقول هذا واستغفر الله لى ولكم» .

انتهى كلام عمر ، وبدأ تفكير الناس . ساعة وأخرى ، ثم بدأت استجابتهم .

كان الأول هو أبو عبيد الثقفى . إذن .. يكون قائد الجيش هو أبو عبيد الثقفى .

الآن .. انتهى التردد ، وبدأ الحسم .

- ١٤ -

قرار رقم ٢ من أمير المؤمنين إلى جيش المسلمين فى الشام : يعزل خالد بن الوليد من القيادة العامة اكتفاء بقيادته لأحد الألوية . من الآن فصاعدا تصبح القيادة العامة لأبى عبيدة بن الجراح .

السبب المبدئى هو : تأخر الجيش فى الشام عن إنجاز مهمته و .. أسباب أخرى .

ثــم ، تحذير من الخليفة الجديد إلى القائــد الجديد : قد أبلاك الله بى وأبلانى بك . فغض بصرك على الدنيا واله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيتم مصارعهم .

ثــم ، تحذير آخر لكل من يهمه الأمر من المســلمين : مــن الآن فصاعدا بدأ الحزم مع العدل .. والحق مع الرحمة .. والحسم مع الحكمة .. والشدة مع المراجعة .

من الآن فصاعدا لاقوة إلا بالحق .. ولا حســاب إلا بالنتيجة .. ولا إعفاء إلا بالعدل . من الآن فصاعدا : لا أحد فوق المراجعة أو النقد أو الحساب .

– ١٥ –

العرب يتقدمون فى فلسطين . فى اليرموك . يحاصرون دمشق . يحتلون «حمص» .

العرب يتقدمون ويتقدمون . ومع كل تقدم يكتب عمر إلى كل واحد من قواد جيوشه : «اكتب إلــىّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها ، وكيف تنزلون وأين يكون منكم عدوكم . واجعلنى بكتبك إلــى كأنى أنظر إليكم . واجعلنى من أمركم على الجلية» .

– ١٦ –

انتصار حاسم للمسلمين فى العراق . إنها موقعة القادسية .

– ١٧ –

مشكلة شخصية يواجهها عمر . لقد تزوج وهو الآن يريد أن يتزوج من جديد .لقد أرسل يخطب بنت عتبة بن ربيعة . رفضت بنت عتبة . السبب ؟ إن عمر «.. أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه كأنه ينظر إلى ربه بعينه» .

لا بأس على أمير المؤمنين ، فليخطب غيرها . فى هذه المرة طلب من عائشة بنت أبى بكــر أن تخطــب إليه أختها أم كلثوم . رفضت أم كلثوم . الســبب ؟ قالت هى : إن عمر خشن العيش شديد على النساء .

مشــكلة شخصية أخرى : أمير المؤمنين يريد أن يشترى فرسا . لقد اختار فرسا وذهب إلى صاحبهــا يســاومه ويطلــب ركوبها ليجربهــا . وعندما ركب عمر الفــرس وركض بها جرحت الفرس . هنا أراد أمير المؤمنين أن يرد الفرس إلى صاحبها .. فرفض .

والحل ؟

قــال الرجــل لأمير المؤمنين : اجعــل بيني وبينــك حكما . وليكن الحكم هو شــريح العراقى .

وجاء شريح العراقي يحكم بين المواطن العادى وبين أمير المؤمنين . وصدر حكم القاضى ضــد أمير المؤمنــين : يا عمر .. إما أن ترد الفرس كما أخذتها بغير جرح .. أو تشــتريها بثمنها قبل أن تجرحها .

ورد أمير المؤمنين : نعم ، هكذا يكون القضاء .

لقد تصالح البائع والمشــترى . أما القاضى ، فقد عينه أمير المؤمنين فورا قاضيا باسمه فى الكوفة ، وهو المنصب الذى ظل فيه لسنوات طويلة بعدها .

- ١٨ -

انتصارات جديدة للمســلمين . لقد سقطت فى أيديهم «المدائن» فى العراق . انتصار قال عنه المؤرخ الإسلامى ابن كثير : «كان يوما عظيما وخرقا باهرا ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلقها الله لأصحابه ، ولم ير مثلها فى تلك البلاد ولا فى بقعة من البقاع» .

- ١٩ -

مــن ســعد بن أبى وقاص قائد جيش المســلمين فى العراق ، إلى أمــير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة : هذا خمس الغنائم فى انتصارنا ، نصيب بيت المال .

ونظــر عمــر أمامه فوجد طعاما ونقدا وذهبا وفضة فى ضخامة لم ير مثلها من قبل . لقد التفت قائلا لمن حوله : والله إن قوما يؤدون هذا .. هم بالفعل أمناء .

ورد عليــه على بن أبى طالــب : الفضل لك . إنك عففت فعفت رعيتك . ولو لم تفعل أنت لما فعلوا هم .

- ٢٠ -

عمــر بــن الخطاب يزور بيت المقدس بعد أن أكمل العرب فتح فلســطين . غزة أولا ثم فلسطين .

عمر يســير مع أســقف بيت المقدس داخل المدينة . وبينما الأســقف يصحب عمر فى زيارته لكنيســة القيامة المشــهورة أدرك عمر موعد الصلاة . وعرف الأسقف فطلب إلى أمير المؤمنين أن يؤدى صلاته فى مكانه داخل الكنيسة . فهى أيضا من مساجد الله .

اعتذر عمر . فلو فعل ذلك .. قد يظن المسلمون أنها سنة مستحبة . فإذا فعلوا ذلك – وهم الآن الفاتحون – فقد يخرجون النصارى من كنيستهم .. وذلك مخالفة لعهد الأمان الذى أعطاه عمر للمسيحيين سكان بيت المقدس .

إن عمر يفرق جيدا بين سلطة الفتح ، وسلطة الإكراه فى الدين . لا إكراه فى الدين .

– ٢١ –

من المدينة ، بعد عودته إليها ، يسمع عمر أن خالد بن الوليد قد أساء التصرف فى الشام . إن خالدًا محارب لا يعوض وسيف من سيوف الله – نعم – ولكنه أساء التصرف . هل تشفع له فتوحاته وإنجازاته عند الخليفة ، أو لا تشفع ؟

لا تشفع .

إذن يجرى التحقيق مع خالد : هل صحيح أنه منح أحد الشعراء عشرة آلاف درهم ؟ هل المنحة من ماله أو هى من أموال المسلمين ؟

رد خالد على الخليفة : إما أن تدعنى بعملى ، وإلا فشأنك بعملك .

وقرر الخليفة أن يعزل خالدًا .. من كل شيء فى هذه المرة . يحاسب أولا ويحقق معه ويحاكم علنا أمام الناس ، ثم يعزل .

إذا كانت الهدية من مال خالد ، فقد أسرف . وإذا كانت من مال المسلمين ، فقد خان الأمانة .

ولكن العزل شيء ، والانتقام شيء آخر . إن عمر يريد بعزل خالد أن يحذر غيره . ولكنه لا يريد أن يتشفى من خالد إرضاء لشهوة . لهذا أرسل عمر يذيع فى الأمصار : «إنى لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة . ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به .. فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة» .

– ٢٢ –

هل أخطأ عمر ؟ وإذا كان قد أخطأ .. فهل يقبل من المواطنين العاديين أن ينتقدوه علنا وهو حاكم لهم ؟ نعم .. نعم . فإذا كان من حق الحاكم أن يقرر .. فإن من حق المواطن أيضا أن يسأل ويناقش ويعترض علنا .

لقد اعترض عمرو بن حفص على الخليفة علنا أمام جمع من المسلمين متهما إياه بقوله : والله ما أعذرت يا عمر ! لقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعت لواء رفعه رسول الله .. وغمدت سيفا سله الله .. وقطعت الرحم .. وحسدت ابن العم .

هـذا إذن ليـس مجرد اعـتراض . إنه اتهام صريـح من «المواطن» عمـرو إلى «الحاكم» عمر . اتهام بأنه ظالم وسـببه الحسـد الشخصى . ماذا يفعل الحاكم ؟ يغضب ؟ يعتقل ؟ يشنق ؟

لا . لم يفعل عمر بن الخطاب شيئا من ذلك .

كل ما فعله هو رد بسيط هادىء قال فيه : إنك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضب فى ابن عمك .

– ٢٣ –

عام المجاعة . فى تسمية أخرى هو : عام الرمادة .

لقد أمسـك المطر – فى مفاجأة من القدر – عن شـبه الجزيرة العربية كلها تسعة شهور كاملة ، هلك فيها الزرع والضرع والحرث والنسل . ماذا يصنع عمر ؟ طبعا هو يدعو الله . ثم ماذا ؟ يدبر الناس فينظم لهم الطعام فى حصص شهرية كنظام البطاقات التموينية الذى عرفته تاليا كل دولة تواجه لحظات من الشـدة . لكن هذا يتطلب أولا معرفة المسـتحقين للحصص الغذائية . إذن لابد من إحصائهم ، ومن هنا كان هذا أول إحصاء شـامل لأعداد المسـلمين . ثـم ماذا أخيرا ؟ أن يبدأ أمير المؤمنين بنفسـه فيخضع للقيـود الصارمة التى فرضها . أن يقتسم مع الناس جوعهم .

لقد تساءل عمر : كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم ؟

إنـه رفض امتيازات السـلطة ، ووسـائل المنصـب . ومادام النـاس يجوعـون فهـو أيضا يجوع . إن الناس حرموا من السـمن واللبن واللحـم .. إذن على الخليفة أن يعيش محروما مثلهم .

لكن عمر بن الخطاب فعل ما هو أكثر . إن عقاب السارق هو حد من حدود الله . الآن يقرر عمر أن يوقف تنفيذ حد السـرقة ، لأنه استشـار واجتهد ورأى أن إقامة حد السرقة فى هذه الظروف الطارئة من الشدة والمجاعة سيكون بلاء للمسلمين فوق بلاء . الآن يعتبر

عمر في المجاعة ضرورة تقتضي تعطيلا مؤقتا لحد السـرقة ، إذ الحدود تدرأ بالشبهات . لم يكن هذا ابتعادا عن حد من حدودالله . فقط كان اجتهادا حكيما في التطبيق .

وحـدث غير المتوقـع : فالناس هم الذين يدعون الآن لخليفتهم . لقد اسـود لونه ورق عظمه وضعف جسـمه وشـحب وجهه . ورأى الناس ذلك فقالوا : لو لم يرفع الله المحنة عام المجاعة لظننا أن عمر يموت .. همّا بأمر المسلمين .

— ٢٤ —

بعد سنة من الجوع والوباء .. هبط المطر وزالت المصيبة . الآن عاد بعض الرخاء .. وعاد معه الجهاد في سبيل الله . لقد تحرك جيش المسلمين مقتحما شرق فارس . قتال وحصار وقتال وغنائم ثم : استسـلم القائد الفارسـي . أما الغنائم فللمسـلمين . أما القائد الفارسي فيرسل أسيرا إلى أمير المؤمنين .

في المدينة أدخلوا الأسير إلى المسجد . لا شيء .

إن الفارس القائد لم ير أحدا في المسـجد سـوى رجل نائم ، بلا شـيء يسـتره سوى جلباب مرقع . بلا حارس ولا حاجب ولا سكرتير ولا كاتب . ولكن أين الأمير ؟

لقد ردوا عليه : هذا هو .. نائم أمامك .

قال القائد الأسير : ينبغي أن يكون هذا الرجل نبيا .. فإذا لم يكن .. فإنه يعمل عمل الأنبياء .

— ٢٥ —

في مشوار السلطة مع عمر بن الخطاب ومشواره معها .. أصبح عمر يتحول تدريجيا من رجل سياسة إلى رجل دولة . أصبح يزداد اهتماما بمسئولية الدولة عن فقرائها وضعفائها . ويـزداد موازنة بين العدل والرحمة . ويزداد تركيزا على رفض الإسـلام لمفهوم التواكل ثم تركيـزا أكـبر وأكبر على قيمة العمل . لم يكن أبغض إلى عمر بن الخطاب من رجل يتوانى ليقـال إنـه متوكل على الله . أو يتراءى بالضعف ليقال إنه ناسـك . أو يفرط في العبادة ليقـال إنـه زاهد في الدنيا . من هنا كان عمر يقول ويكرر : «ليس خيركم من عمل للآخرة وتـرك الدنيا . أو عمـل للدنيا وترك الآخرة . ولكن خيركم مـن أخذ من هذه ومن هذه . وإنما الحرج في الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية» .

وعمر يقول أيضا : «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى .. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . إن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض» .

وبحكم إيمان عمر بن الخطاب ، ومن موقعه فى السلطة ، كان يجتهد بما يراه استجابة للمتغـيرات الجديـدة . لقد تابعناه مثلا وهو يوقف العمل بحد السـرقة فى عام المجاعة . ولظروف أخرى نهى عمر عن زواج المتعة ، ونهى عن التحلل من بعض مناسـك الحج .. ولم يكن منهيا عنهما كل النهى فى حياة النبى عليه السـلام . فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم ثم يتركها . وكان منهم من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسـكه . فنهى عنهما عمر فى أيام خلافته وقال : «متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما» .

– ٢٦ –

ما هى مهمة الحاكم .. بالضبط ؟

أن يدير ويدبر ويقرر ويحكم ؟ طبعا . ولكن .. فقط ؟ إن الحاكم مهمته أولا – وقبل أى شـىء آخر – هى أن يقود . إن الدسـتور – وهو القرآن فى حالة عمر بن الخطاب ـ يحدد للحاكم طبعا أعباء مسجلة وثابتة . ولكن .. فقط فقط ؟ لقد كان الرسول يقول للناس : أنتم أعلم بشـئون دنياكم . وبوفاة الرسـول أصبح على من يخلفه أن يدير شـئون الرعية بنزاهة ومسئولية وقدرة على الاجتهاد فى مواجهة مستجدات شئون الدولة .

فى المسـتوى الشـخصى كان عمر يريد أن يبدأ بنفسـه ليعطى قدوة للآخرين . لم يجد غضاضـة فى أن يعترف لامرأة جادلته بأنها هـى المحقة .. مقررا : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وفى مناقشة أخرى ، مع رجل فى تلك المرة . انفعل االرجل قائلا له : اتق الله يا أمير المؤمنين . لقد غضب رجل حاضر مع عمر فنهر الرجل قائلا باستنكار : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟! لكن عمر قاطعه بقوله : دعه يقلها لى .. فلا خير فيكم إذا لم تقولوها.. ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم .

بل إن عمر لم يكن يتقبل النقد فقط . وإنما كان يحرض عليه أيضا . مكررا قوله : إن أحب الناس إلـى من أهدى إلـى عيوبى .

وحينما تولى عمر بن الخطاب السلطة كان اللقب الشائع لتسميته هو «خليفة خليفة رسـول الله» باعتباره خليفة لأبى بكر الذى كان بدوره خليفة لرسـول الله . لكن عمر

رأى فى التسمية استطالة ، فاختار لقب «أمير المؤمنين» ، وأصبح بذلك أول من نودى بهذا اللقب .

لم يكن عمر بن الخطاب مجرد حاكم مثل غيره من الحكام . كان حاكما فوق غيره من الحكام لأنه أدرك أولا هذا الظرف الاستثنائى لنشأة الدولة الإسلامية . وأدرك ثانيا البعد الآخر فى مسئولية الحاكم كقائد . مسئوليته الأخلاقية . إن الأخلاقيات كلها تبدأ قوتها من هناك .. من فوق . وانهيارها أيضا يبدأ من فوق . لقد قال على بن أبى طالب لعمر مرة : إنك أتعبت الخلفاء من بعدك . هذا صحيح . لقد أتعبهم عمر من حيث أنه وضع مقياسا أخلاقيا مرتفعا للغاية يجب أن يقيسه الناس عليه .

لقد بدأ من بداية البداية . بدأ برؤيته لنفسه على أنه موظف عام عند جموع المسلمين . أمير لهم ، ليكن ، لكنه مايزال موظفا وعليه واجبات وأمامه مسئولية . هكذا طلب عددا من الصحابة فى المدينة ملحا عليهم بتحديد مرتب محدد له كحاكم . مرتب شهرى معروف للكافة مقدما ويدبر أحواله فى حدوده لأن بيت المال العام حرام عليه . وطلب منهم أيضا التشاور بشأن من يخلفه ، فالأعمار بيد الله. وحينما قيل له إن أبا بكر قد استخلفه هو فلا بأس بأن يسمى هو أيضا خليفته . لكن عمر رفض بتاتا ، متمسكا بالشورى ، وكل ما اقترحه عليهم هو ستة أسماء لصحابة هو متأكد من أن رسول الله توفى راضيا عنهم . الستة هم : عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف .

لم تكن المسألة ملحة ولا عاجلة . لكن عمرا كان يشغله أمر آخر . لقد أوصى بأن يشهد ابنه عبد الله على ألا يكون له من الأمر شىء . وبالتزام عبد الله أمام الجميع ضمن عمر مبدأ أهم : لا وراثة للحكم .. والسلطة تكون للأكثر كفاءة ومعرفة ومن خلال الشورى .

كان الحكم عند الناس ميزة . ولكنه عند عمر عبء . الحكم عندهم سلطة .. وعند عمر مسئولية . السلطة عندهم شهوة .. وعنده هو أمانة . الشهوة عندهم قوة .. وعنده هو ضعف . الضعف عندهم ضرورة .. وعنده هو محسوبية . المحسوبية عندهم تعصب .. وعنده هو انهيار . الانهيار عندهم يبدأ من الخارج .. وعنده هو خطر من الداخل . الداخل عندهم تركة يقتسمونها .. وعنده هو نزاهة يتشدد فيها .

نعــم . مع عمر كانــت نزاهة الحكم مقدمة عنده علــى كل اعتبار . لذلك كان يحصى أموال الولاة قبل ولايتهم ، فإذا زادت بعدها زيادة تضع نزاهتهم موضع الشبهة .. قاسمهم مالهم .. واســتولى للمسلمين على كل زيادة فيه . لهذا كان يحذر ولاته دائما قائلا : نحن إنما بعثناكم ولاة .. ولم نبعثكم تجارا .

إن التاريخ هو بالضرورة تقرير عن تصرفات البشر . وعمر كبشر ، كان يريد التاريخ . وعمر كحاكم .. كان يريد أن يقدم أحسن ما يستطيعه كبشر . لقد أدرك أن القواعد تحترم إذا كان أول من يخضع لها هم الذين وضعوها . إن أول قاعدة هى أن على الحاكم أن يمثل أحسن ما فى أمته وليس اسوأ ما فيها . عليه أن يكون حاكمها .. وفى نفس الوقت : ضميرها .

وعمر بن الخطاب كان ضمير هذه الأمة . لهذا حاســب نفســه أولا .. قبل أن يحاسب الآخرين .

- ٢٧ -

رأى المســلمون فــى المدينة الكثير من شــدة عمر على نفســه . إنهــم انتدبوا من بينهم وفدا.. بعض أعضائه يدفعهم النفاق للسلطة .. والأغلبية يدفعهم الإخلاص للضمير . ذهب الوفد إلى حفصة بنت عمر يقولون لها : إن الله بســط فى الرزق على المســلمين .. فليبســط أمير المؤمنين فيما شاء منه .. وهو فى حل من جماعة المسلمين .

ودخلــت حفصة علــى أبيها تخبره . وعندمــا انتهت أجابها : يا حفصــة بنت عمر .. نصحت قومك وغششت أباك . إنما حق أهلى فى نفسى ومالى . فأما دينى وأمامتى .. فلا .

- ٢٨ -

فتـح مصـر .

- ٢٩ -

رســالة من عمرو بن العاص قائد جيش المســلمين الفاتح فى مصر .. إلى أمير المؤمنين فى المدينة : «أما بعد . فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها . غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام . وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية . وأربعمائة ملهى للملوك» .

كانت رسالة متعجلة . فلقد نسى عمرو بن العاص أن يذكر لخليفته أن المدينة فيها أيضا ١٢ ألف بقال . وأن المدينة هى عاصمة مصر . وأن اسمها هو الإسكندرية .

– ٣٠ –

رسـالة جديدة من عمرو بن العاص إلى المدينة : «ورد كتاب أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – يسـألنى عن مصر . اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشـجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر . يخط وسطها نيل مبارك الغـدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيها الزيادة والنقصان ، كجرى الشـمس والقمر .. فتبارك الله خالق لما يشاء . الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسـها فى رئيسـها ، وألا يسـتأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها» .

– ٣١ –

مـن أمـير المؤمنين عمر ، إلى والى مصر عمرو بـن العاص : لماذا نقص خراج مصر الذى ترسله .. إلى أقل من نصف ما كانت تؤديه للرومان قبل أن يحكمها المسلمون ؟

عمرو بن العاص يرد : إنا بدأنا فى مصر تعميرا للخراب ، ومشروعات كثيرة .. جعلت الإيراد ينقص .

أمير االمؤمنين يرسل مهددا : قد علمت أنك لم يمنعك من ذلك يا ابن العاص إلا عمالك عمال السوء ، وما توالس عليه وتلفف .. وعندى بإذن الله شفاء عما أسألك عنه .

عمرو بن العاص يرد على أمير االمؤمنين بالبريد غاضبا : قد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا والعمل به مشينا ، معاذ الله .. بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم أخا . والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد لنفسى غضبا ولها إنزاها وإكراما .. يغفر الله لك ولنا .

مع عودة البريد جاء توبيخ أمير المؤمنين : يا ابن العاص .. لم أقدمك إلى مصر أجعلها طعمة لك ولا لقومك .

وازدادت شكوك عمر . إنه سمع أن ثروة عمرو بن العاص قد تضاعفت فى مصر بحكم منصبه . لهذا فكر وتدبر وتحقق ثم أرسل إلى عمرو بن العاص بقراره : «إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك إلـى كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق . وقد سؤت بك ظنا .

ووجهت إليك محمد بن سلمة ليقاسمك مالك . فأطلعه طلعة وأخرج إليه ما يطالبك ، واعفه من الغلظة عليك» .

وجاء مندوب أمير المؤمنين إلى مصر يفتش بدقة . يفتش على نزاهة الحكم ونزاهة الذمم .

ولم يكن تشدد عمر على نفسه إلا نموذجا ومقدمة لتشدده على معاونيه فى السلطة فى القرب والبعد . وطوال سنواته فى السلطة نبه على وجهاء قريش بعدم مغادرة «المدينة» إلى البلدان التى دخلت الإسلام إلا بإذن منه ، ولمدة محددة . ولم يكن هذا التشدد منه تسلطا.. وإنما لحكمة . فحينما اشتكى منه وجهاء قريش وقف عمر ليقول علنا : «إن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما فى أنفسهم ... أما وابن الخطاب حى فلا . إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد» .

أما مع الصحابة فكان يريد منهم البقاء فى «المدينة» لحكمة أخرى . فأولا هو يريدهم معه كمجلس للمشورة عند الحاجة . لكن الأهم هو أنه يريد أن يجنبهم ولاية المناصب والأعمال التنفيذية قائلا لمن راجعه فى ذلك : «أكره أن أدنسهم بالعمل» . وبلغة عصرنا هذا يعنى الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية . وعلى ضوء تطورات تالية من الملفت هنا أن الجميع التزموا بما قرره عمر بن الخطاب . لكن هذا لم يكن ممكنا إلا لأنه بدأ بنفسه متعاملا مع السلطة باعتبارها عبئا وضميرا ومسئولية . وحينما حاول المغيرة بن شعبة ذات يوم أن يزين لعمر توريث الخلافة لأحد من أسرته كان رد عمر مفحما : «لا رأب لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتى . إن كان خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد» .

– ٣٢ –

أمر القرآن بالشورى . وعمر ، كحاكم ، يمارس الشورى . لقد منع الصحابة من مبارحة المدينة – وهم نحو مائة وثلاثين بين رجل وامرأة – حتى يكونوا بمثابة جمعية تشريعية . كان منهم من انصرف إلى معاشه ، واقلهم مارس الفقه . لكن حتى هؤلاء كثيرا ما تورعوا عن الفتيا وكل منهم يحيل على غيره خشية الزلل والخطأ . وفيما بعد سوف يؤدى تفرقهم بين الأمصار وتنوع ظروفهم إلى اختلافات حتمية . ربما تحركها أهواء ومصالح .

لكــن هذا كان ما يــزال في علم الغيب . الآن مايزال عمر بــن الخطاب هو الذى يقود سفينة الدولة الفتية . وهو لا يكتفى فقط بأن يخبر مستشاريه . لا يكتفى حتى بأن يتشاور معهم .. ثم يتقدم بعدها أماما إلى أى اتجاه . هذا لا يكفى . إن الشــورى فى مفهومه هى أن يجعل مستشاريه يلعبون دورا حقيقيا فى التشكيل الفعلى لسياسة الدولة .

أن عمر يستشــير أصحــاب الرأى من صحابــة وأقارب رســول الله . ولكنه لا يوليهم مناصــب . إنه فى كل مشــكلة يتخذ القرار الأخير . ولكنه قبل كل قرار يستشــير . كان يستشــير أهل الرأى ، ويستشير جمهور المواطنين ، ويستشير الأحداث وصغار السن . مع هؤلاء الشباب الصغار يحس عمر أن المصالح لم تقيدهم بعد .. وتعقيدات الحياة لم تفقدهم الرؤيــة بعــد . إنهم قليلو الخبرة عديمو النفوذ ولكنهــم أولا واضحو الأفكار طاهرو النفوس صادقو الإحساس . وفى النهاية فإن المبادئ عندهم ما زالت أهم من الأشخاص .. والوسائل عندهم مازالت جزءا من الأهداف .

بهذا ، وغيره كثير ، تطورت واتســعت وانتشــرت الدولة الإســلامية فى عهد عمر ابن الخطاب ، وفى زمن قياســى . لقد تولى عمر الخلافة فى ســنة ١٣ هجرية (الموافقة ٦٣٤ ميلادية) . لم يكن كافيا أن تواصل جيوش الدولة الوليدة فى عهده تلك الفتوحات الأولى التى بدأت فى عهد أبو بكر . فمع تطور الأحداث واتســاع المسئوليات كان لازما استنباط أسس جديدة ونظم إدارية متطورة وضبط المصروفات مع الإيرادات . من هنا كان عمــر بن الخطاب هو أول من اتخذ ديوانــا لضبط المال العام وحدد مرتبا معلوما لرئيس الدولة وقرر التأريخ منذ الهجرة واستخدم مفهوم «من أين لك هذا» لكى يمنع ولاته من إغراء وســطوة الفساد وقنن لاستخدام القضاة المســتقلين عن ولاة الأمصار واجتهد حتى فى حد ثابت من حدود الله عام المجاعة وأكد بأن العدل هو – تماما مثل الظلم – يبدأ دائما من أعلى وأن أمضى أسباب القوة فى يد الحاكم هو أن يبدأ بنفسه ليصبح أول من يعطى القدوة فى الشفافية ونزاهة الحكم وعفة اليد واللسان والذمة . ومع أن البعض من قبيلة قريش تطلعوا وســعوا فيما بعد ليصبحوا مراكز قوة وثروة ..إلا أنهم طوال رئاســة عمر بن الخطاب للدولة لم يجرءوا على الجهر بذلك فى وجوده . هو لم يتعمد القســوة على أحد . فقط بدأ بالقسوة على نفسه ، وبالإصرار على قضية مبدئية عنوانها : نزاهة نظام الحكم .

بهذا ، وغيره ، امتد الإسلام فى عهد عمر ونشأت معه امبراطورية كبرى امتدت حتى ليبيا غربا وفارس شرقا وبحر قزوين شمالا وصعيد مصر جنوبا . امبراطورية أقامها المسلمون - بقيادة عمر - فى عشر سنوات .

- ٣٣ -

قتل عمر .

- ٣٤ -

قبل دفنه اكتشفوا أن عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين ، مدين بديون كان قد أوصى ابنه مسبقا بسدادها ، وسوف يبيع ابنه حالا دارا ليسددها .

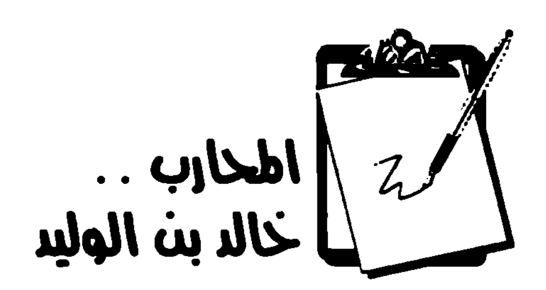
عند دفنه اكتشفوا أيضا أن جثمان عمر هو الذى مات . ولكن ذكرى عمر ما تزال مستمرة . فعند الموت تذهب السلطة ويبدأ الامتحان . امتحان الزمن .

ولأن قيمة عمر بن الخطاب كانت حقيقية ، فإن الموت أضاف إليها .. ولم يخصم منها .

- ٣٥ -

من الذى قال: إن السقوط الأخلاقى ثمن لنجاح رجل السياسة ؟

وشىء آخر : عمر بن الخطاب كان رجل دولة .. قبل كونه رجل سياسة .



المحارب .. خالد بن الوليد

سبتمبر
سنة ٦٢٩ م .
شرق الأردن .

جيش صغير . جنوده ثلاثة آلاف . قائده زيد بن حارثة . مهمته تأديبية . القرار أصدره النبى . السبب هو وفد أرسله النبى إلى القبائل القريبة من حدود الشام يدعوهم إلى الإسلام . قتلوا الوفد . عددهم خمسة عشر . نجا واحد فقط . فى نفس الوقت قتل رسول آخر أرسله النبى إلى هرقل ملك الروم . النتيجة : لابد من حملة تأديبية لمعاقبة المعتدين .

هذه أول حملة إسلامية ضخمة تخرج من «المدينة» - مقر قيادة النبى - إلى هذه المسافة البعيدة قرب حدود الشام . الحملة تتجه إلى قرية اسمها «مؤتة» . الحملة كلها سميت فيما بعد «غزوة مؤتة» .

الجيش الذى يقوم بهذه الحملة اختار النبى قائده مقدما . إنه زيد بن حارثة . «.. فإن قتل ، فجعفر بن أبى طالب . فإن قتل ، فعبد الله بن رواحة . فإن قتل .. فليرتض المسلمون من بينهم رجلا ليجعلوه عليهم» .

إن خالد بن الوليد جندى عادى فى هذا الجيش . جندى متطوع . فى الواقع إنه لم يعلن إسلامه إلا قبل شهرين اثنين فقط . نحن إذن فى السنة الثامنة للهجرة .

ولكن أنباء حشد الجيش تسربت إلى جنود العدو فى مملكة الروم . لهذا استعد هرقل بقوات عسكرية ضخمة .

• جريدة «أخبار اليوم» : ٢٢/١١/١٩٦٩ .

حينما وصل المسلمون فوجئوا بهذه الحشود تواجههم . لقد استمروا يومين يتشاورون . هل نكتب إلى النبى ليرسل إلينا مددا .. أو نحارب ونستشهد ؟

القرار : نستشهد .

عندما بدأ القتال حمل زيد بن حارثة راية القيادة . قتل . حملها جعفر بن أبى طالب . قطعت يده اليمنى . حملها بيده اليسرى . قطعت . احتضنها بجسمه . قتل . رفع الراية عنه عبد الله بن رواحة . قتل . الآن .. من يتولى القيادة ؟ من .. من .. من ؟ .. إنه هو : خالد بن الوليد . هكذا اختار الجيش .

بدأ خالد يفكر . الانتصار ؟ .. مستحيل ، فجيش العدو أضعاف جيشه . الصمود ؟ .. قاتل ، فلا توجد إمدادات قادمة فى الطريق . الانسحاب ؟ .. ربما ..

وفعــلا . فى ظلام الليل قام خالد بتغيير مواقع كتائب الجيش . ثم كلف مجموعة منه بــأن تقف خلف الجيش لتثير الغبــار .. حتى يتصور جنود العدو فى الصباح أن إمدادات جديــدة قد وصلت إلى الجيش الإســلامى . خدعة . إنها خدعــة أقنعت الجيش الرومانى بألا يطارد جيش خالد وهو ينسحب عائدا إلى «المدينة» .

فى تلك المعركة تكســرت فى يد خالد تســعة سيوف . لم تثبت فى يده سوى صفيحة يمانية يقاتل بها وهو يحمى انســحاب جيشــه . ولقد تم انســحاب بمهارة فائقة .. وبدأ الجيش الإسلامى يعود إلى «المدينة» .

❑❑❑

المدينة .

منظر لا يتوقعه أحد .

الإنسحاب هو انسحاب . إنه ليس تقدما ، ليس انتصارا ، ليس غزوا . إنه .. هروب . تراجع . نكسة . فرار .

«.. يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ؟» . هكذا خرج المسلمون من «المدينة» يصيحون فى جنود الجيش العائد من الشمال بقيادة خالد بن الوليد . إنهم يقذفون الجنود بالتراب عقابا لهم على تراجعهم . رأى عام .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم حين أدرك حقيقة ما حدث يعلن : «إنهم الكرار بإذن الله .. وليسوا بالفرار» .

إن كلمـات النبـى هدأت من ثورة الـرأى العام فى «المدينـة» . ولكنها لم تقض عليها تماما . لقد استمر الرأى العام قوة ضاغطة تذكر العائدين بانسحابهم . بل إن أم سلمة زوجة رسـول الله سـألت فى مرة زوجة سلمة بن هشـام صهر النبى : مالى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

أجابـت الزوجـة : إنه والله لا يسـتطيع أن يخرج . كلما خرج صاح به الناس : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ؟ .. حتى قعد فى بيته !

نعم .. لن ينسى المسلمون هذه الهزيمة . إنهم يطلبون الثأر . وسوف يتحقق لهم الثأر . ثأر سوف يصر عليه النبى ، وسوف يحققه نفس الجيش ، ونفس القائد : خالد بن الوليد .

□□□

خالد محارب من قبيلة بنى مخزوم ـ فرع من قريش . إنه عظيم الجسم ، مهيب الطلعة ، أبيض اللون ، طويل القامة . إنه ينتمى إلى واحدة من أغنى الأسـر العربية . جده «المغيرة» يتشـرف الناس بالانتسـاب إليه . أبوه يكسو الكعبة وحده سنة ، وتكسوها قريش كلها سنة أخرى . عمه من أكرم العرب . عمه الآخر أعلنت قريش حدادها سنة كاملة عند وفاته .

وخالد على رغم هذا محارب . فى جسـمه صفات المحارب ، وفى حياته أيضا . إنه غنى ، كثير الغنى ، ومع ذلك فقد كان يروض نفسـه عمدا منذ الصغر على تحمل الجوع والظمأ وأكل الأطعمة التى يعافها الناس . ومنذ صباه المبكر رشـحه أبوه لقيادة الفرسـان . إن أباه واحد من أشد المتعصبين الذين حاربوا النبى فى صدر رسالته . بل إن خالدًا نفسه كان قائدا لفرسان قريش فى غزوة أحد التى هزم فيها المسلمون .

ولكن خالدًا له عقل أيضا ، مثلما له جسـم وسمعة ومال . لهذا اسـتغرق إسـلامه وقتا طويلا . لقد بدأ بمحاربة النبى والمسلمين . ولكنه بعد أن قاتلهم بدأ يفكر ويوازن ويختار .. إلى أن هـداه الله . لقـد ذهب فى النهاية إلى النبى فى «المدينة» ليعلن له إسـلامه . فى تلك اللحظة دعا النبى ربه : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد فى سبيلك .

مـن هـذه اللحظة اختـاره النبى محاربـا يقوى به الإسـلام . ولكن ، نظـرا لحداثة إسلامه .فقد ذهب فى «غزوة مؤتة» جنديا عاديا . غزوة عاد منها قائدا .. ولكن على رأس جيش منسحب .

إن الإنسحاب والهزيمة لم يحجبا عن النبى صلى الله عليه وسلم كفاءة خالد كمحارب . لهذا يقول النبى عن خالد إنه : سيف من سيوف الله .. سله الله على المشركين . لكن هذا مايزال أيضا فى علم الغيب . الله وحده يعلم ما إذا كان النبى مصيبا فى هذه التسمية.. أو مخطئا . الأيام وحدها سوف تكشف ذلك .

❑❑❑

الربيع .

جنوب مكة .

الغرور . الاستخفاف . التهاون . الاستهتار . الثقة المفرطة .

هذه هى الصفات التى سيطرت على المسلمين فى ذلك اليوم . يوم لا ينسى .

إن المسلمين فتحوا مكة منذ أشهر قليلة . ذلك الفتح أعطاهم ثقة فى أنفسهم لا حدود لها . ولكن سقوط مكة فى أيدى النبى أثار عليه عددا من القبائل المحيطة بها . لقد أدركوا أن الدور عليهم هذه المرة . لهذا قرروا أن يأخذوا بزمام المبادرة ويبدأوا الهجوم على النبى والمسلمين فى مكة . وحينما علم النبى بذلك خرج إليهم على رأس جيش ضخم . وتقابل الفريقان فى موقعة تسمى «غزوة حنين» .

ذهب المسلمون إلى هذه المعركة وهم يعلمون أنهم أكبر عددا وأضخم سلاحا وأكثر ثقة . وفى مقابل ذلك كان عدوهم يملك شيئا آخر : كان أكثر استماتة . هذا يكفى لانتصاره .

عندما بدأت المعركة فى الفجر ، تحولت مزايا الكثرة عند المسلمين إلى نقمة . لقد تصوروا أن الكثرة تغنى عن الاستعداد . والسلاح يغنى عن التفكير . والثقة تمنع المفاجأة . أخطأوا . لم يهتموا باستطلاع قوات العدو . لم يحرصوا على البدء بالهجوم .

النتيجة : ثمن غال دفعه المسلمون . هنا يقول القرآن الكريم : «.. ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين» (التوبة : آية ٢٥) .

هزم المسلمون إذن . هزمت الكثرة والضخامة . والثقة المفرطة . تراجع المسلمون . إن معهم النبى . معهم العقيدة . معهم الحق . ولكن معهم الغرور . هذا يكفى لهزيمتهم . هزيمة منكرة . لقد فرت الخيل . وتراجعت المشاة . وشاعت الفوضى .

فـي تلك اللحظة لم ينقذ الموقف سـوى بروز النبـي إلى مقدمة الصفوف . فعلى أنقاض الهزيمة المروعة أمسك النبى الزمام بنفسه ، ليقود المسلمين إلى هجوم جديد . هجوم استعاد لهم النصر المفقود كاملا .

□□□

صحراء الحجاز .

أرض نجد .

٦٣٢ م . السنة العاشرة للهجرة .

مرت سـنتان منذ «غزوة حنين» . سـنتان اشترك فيهما خالد بن الوليد مع النبى ، أو بأمر النبى ، فى مهام كثيرة . ولكن السـنتين انتهتا بحدث جلل اهتز له كل المسـلمين : وفاة النبى .

وبوفـاة النبى نشـأ وضع جديد أمام خليفته أبو بكـر . لقد ظهر فى القبائل بعض الناس يدَّعون لأنفسهم النبوة . وارتدت قبائل عربية كثيرة عن الإسلام . بل إن بعضها هدد بالهجوم على مكة .. بينما الجيش الرئيسـى للمسـلمين ذهب إلى الشمال فى حملة تأديبية ضد الروم ثأرا لموقعة «مؤتة». قرار اتخذه النبى قبل وفاته ، وأصر أبو بكر على المضى فى تنفيذه .

فـى هـذا الموقف الصعب قرر أبو بكر أن يحارب المرتدين عن الإسـلام فورا . لقد قام بقيادة المرحلة الأولى من الحرب بنفسـه . وعندما عاد الجيش الإسـلامى من الشـمال .. بدأت المرحلـة التاليـة . مرحلـة قرر أبو بكر أن تكون قيادة الجيـوش فيها من نصيب : خالد بن الوليد .

الآن فقط .. سـوف تتأكد نبوءة محمد رسـول الله . الآن سـوف يصبح خالد بن الوليد سـيفا من سـيوف الله سله على المشـركين . إنه يخرج بجيشه إلى الصحراء مهاجما قبائل المرتدين ومتعقبا لهم . إن طليحة – مدعى النبوة – يفر إلى الشـام هاربا بعد انتصار خالد عليه . إن قبيلة بنى تميم تستسلم له .

ولكن معارك خالد فى حروب الردة لم تكن كلها بمثل هذه السهولة . فى الواقع هناك معركة سوف تكون أقسى عليه كثيرا من أى معركة شهدها من قبل .

□□□

الصحراء .

حديقة الموت .

٦٣٢ م .

هــذه المعركة الكبرى التى يخوضها خالد فى «اليمامة» ضد بنى حنيفة معركة ضارية . إن ضــراوة المعركــة ترجع إلى أن بنى حنيفة كانوا هم البادئين بالهجوم على جيش خالد . ولكن خالدا حفظ هذا الدرس من قبل . إنه يحتفظ بجيشه فى حالة استعداد دائم للقتال . فــى أى وقــت من النهار أو الليل ، فى أى مكان من الصحراء ، فى أى حالة يكون عليها الجيش .. فإن الجميع مستعدون دائما .

وعلى رغم عنف الهجوم الذى شــنه بنو حنيفة ، وعلى رغم حدة رياح الصحراء التى هبت أثناء المعركة ، إلا أن خالدا ســرعان ما اســتعاد زمام المبادرة واضطر المهاجمين إلى التراجع داخل حديقة نخيل قريبة تحيط بها الأســوار . ولكن خالدا لايكفيه التراجع من عدوه . لقد اقتحم الأســوار ونقل المعركة إلى داخل الحديقة ووســط أشــجار النخيل . من شجرة إلى شجرة .. سوف يقاتل المسلمون كل مرتد عن دين الله .

من هذه اللحظة سميت الحديقة «حديقة الموت» . لقد أبيد فيها المشركون عن آخرهم .. وعلى رأس القتلى مســيلمة الكذاب الذى أدعى لنفســه النبوة . من بين القتلى أيضا ١٢٠٠ من المسلمين .

❑❑❑

يناير ٦٣٢ م .

بيت الخليفة .

هل أخطأ خالد بزواجه من تلك المرأة ؟

ســؤال بحثه الخليفة أبو بكر مرتين . فى المرة الأولى عندما جاءت الأنباء فى مكة بأن خالدا تزوج من أرملة مالك بن نويرة زعيم بنى تميم الذين أمر خالد بقتل عدد منهم .

كانت المشكلة هى أن خالدا تسرع فى قتل مالك قبل أن يتأكد من إسلامه . أو يرسله إلى الخليفة فى مكة . هل تعمد خالد أن يقتل مالكا حتى يستطيع الزواج بأرملته .. أو لم يكن متعمدا ؟ . لم يكن متعمدا . هكذا اقتنع الخليفة أبو بكر رضى الله عنه .

إن معركة «اليمامة» كانت آخر المعارك الكبرى ضد المرتدين . بعدها سيطرت جيوش المسلمين على كل أنحاء الجزيرة العربية حتى عمان واليمن فى الجنوب . حرب استغرقت سنة واحدة وانتهت فى يونيو ٦٣٣ م .

من الآن فصاعدا لن يحارب مسلم مسلما آخر . إن القبائل العربية التى كانت تحارب بعضها قبل الإسلام ، وتحارب بعضها بعد وفاة النبى ، سوف تحارب جنبا إلى جنب لأول مرة ضد عدو مشترك يقف على حدودها : دولة الفرس .. ثم دولة الروم ، أكبر قوتين عالميتين فى ذلك الوقت .

من الآن سوف يرى العرب ماذا تستطيع قوتهم الحقيقية أن تفعل لهم حينما يتحدون . إن اتحادهم سوف يحقق لهم ما لا تستطيعه أحلامهم . إن دولة فارس كبيرة ، ضخمة ، مخيفة . لقد بلغ من سمعتها أن خالدا حينما أعلن لجنوده أن الخليفة أمره ببدء الزحف على فارس .. رفض عدد من الجنود الذهاب معه .

ساعتها كتب خالد إلى أبى بكر يطلب منه جيشا إضافيا . وفعلا ، أجابه أبو بكر إلى طلبه . ولكنه بدلا من أن يرسل إليه جيشا .. أرسل إليه رجلا . نعم ، رجلا واحدا أرسله أبو بكر إلى خالد . رجلا اسمه القعقاع بن عمرو !

وحينما سئل أبو بكر : كيف تمد قائدا انفض عنه جنوده .. برجل واحد ؟

أجاب أبو بكر : إن جيشا فيه مثل هذا الرجل .. لايمكن أن يهزم .

و .. صدق أبو بكر .

ففى المواقف الحرجة ، يستطيع رجل واحد .. عقل واحد .. أن يؤدى مهمة جيش بأكمله . إن يقظة القعقاع بن عمرو استطاعت أن تنقذ خالد بن الوليد من خدعة دبرها القائد الفارسى لقتل خالد شخصيا من ظهره فى أول موقعة .

وقبل أن يبدأ خالد الهجوم أرسل إلى القائد الفارسى ينذره : إما الإسلام .. وأما دفع الجزية .. وأما الحرب . فإذا اختار القائد الفارسى الحرب فعليه أن يعلم مقدما أنه سيواجه - يقول خالد - قوما : «.. يحبون الموت كما تحبون الحياة» .

نعم . هذا هو المفتاح أخيرا . هذا هو أول فارق رئيسى بين جيش المسلمين وجيش فارس . إن الجندى المسلم فى جيش خالد . وقبله خالدًا نفسه . يحرص على الموت فى

سبيل الله بقدر ما يحرص عدوه على الموت فى سبيل الدنيا . إن جيشا تسوده هذه الروح لابد أن تخشاه الهزيمة .

وخالــد بــن الوليد هنا نموذج فى قيادته . إنه إنســان بين جنوده ، محارب أمامهم ، شرس على عدوهم .

خالد محارب . إنه لايدافع أبدا ، ولكنه يهاجم دائما .لا ينتظر ، ولكن يبادر . لا يتوقف ، ولكن يتقدم . لا الزوجة ولا الأســرة ولا الأطفال .. تســتطيع أن تمنع خالدًا من اقتحام ميدان القتال . إنه محارب . والمحارب كالطبيب .. يعيش دائما فى حالة طوارىء .

إن الجندية بالنســبة له ليســت حرفة . ليســت وظيفة تبدأ بميعاد وتنتهى بميعاد . الحرب عند خالد هى أســلوب كامل للحياة . نظام كامل من التفكير . والحرب عنده هى صاعقة .. تصيب هدفها فى غمضة عين . لهذا يحرص خالد دائما على أن يبدأ ، ويبادر ، ويفاجىء ، ويتحرك بســرعة . إنه يركز مجهوده فى هجوم عنيف .. كاســح .. شرس .. يفاجــىء بــه عدوه . إن التقدم ، والتراجع ، والالتفــاف ، هى أعمال تنطلق منه كخبطة سيف : حادة ، قاطعة ، حاسمة .

إن قائــدا بهــذا الفهم لروح القتال .. لايمكن أن تصيبه الهزيمة .هذا ما حدث فعلا فى معاركه التالية . لقد انطلق فى حربه ضد جيوش فارس .. ينتصر وينتصر . إن المدن تتساقط أمامــه واحدة بعــد الأخرى :الحفير . الأبل ، الولجة ، الحيرة ، عين التمر ، الأنبار .. و .. و ..

لقــد واجــه خالد الفرس فى ١٥ موقعــة .. لم يهزم فى واحدة منها قــط . إنه ينتصر ليحارب من جديد ، ثم من جديد .. إلى أن أرسل إليه الخليفة أبو بكر تعليمات بالانتظار . يريــده الخليفــة أن ينتظر حتى ينتصر زميله «عياض بن غنم» الذى يحارب فى مكان آخر بين العراق والشام : دومة الجندل .

انتظر خالد . طال الانتظار . مر شــهر . شــهران . مرت سنة . إن خالدًا يسميها «سنة نساء» لأنها فى قاموسه الخاص سنة عاطلة .. مرت بلا معارك .

بعد سنة وصلت التعليمات الجديدة من مكة . تعليمات عامة .

❑❑❑

يناير ٦٣٤ م .

مدينة الحيرة .

العـــراق .

هـــذه هى التعليمات التـــى وصلت إلى خالد فى مدينة الحيرة ، مقـــر قيادته العليا فى العراق : اتجه إلى الشام .

هكذا كتب أبو بكر من مكة إلى خالد فى العراق . إن أبا بكر أرسل إلى الشام قبل سنة – فى الســـنة الثانية عشـــرة هجرية – ثلاثة جيوش لغزوها وهزيمة الروم فيها . إلى دمشق جيش يقوده يزيد بن أبى ســـفيان .جيش إلى الأردن ، يقوده شـــرحبيل بن حسنة . جيش إلى فلسطين ، يقوده عمرو بن العاص .

ولكن الإمبراطورية الرومانية تستعد الآن لإنزال هزيمة حاسمة بالمسلمين . جيش ضخم يجرى إعداده فى الشـــام لهذا الغرض . لهذا قرر أبو بكر تجميع الجيوش الإســـلامية فى جيش واحد . جيش يقوده خالد . فأبو بكر يصمم : «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد» .

فى الحرب لابد من هذه القاعدة : إذا توقعك عدوك من ثلاث طرق .. فاذهب إليه من الطريق الرابع . هذه هى المفاجأة .

فى الطريق إلى الشام اصبح على خالد وجيشه أن يقطع مسافة تتراوح مابين ٥٠٠ و٦٠٠ ميل . هناك ثلاث طرق توصله . ولكن .. ألا يوجد طريق رابع لا يســـلكه الناس ؟ نعم . طريق وعر مخيف قليل الماء عظيم المخاطر لا يطرقه أحد . إذن القرار : يســـلكه خالد بن الوليد .

إنـــه أصعب الطرق ، وأخطرها ، وكذلـــك .. أقصرها . إنه أيضا – وهذا مهم للغاية – طريق لايتوقعه العدو . لهذا السبب فقط يصبح هذا الطريق عند خالد هو أنسب الطرق .

كان هذا القرار مغامرة . الحرب مغامرة . ولكن المغامرة يجب أن تكون محسوبة . لهذا جمع خالد عددا من الإبل . ومنع عنها الماء لعدة أيام . فأصبحت الإبل عطشى جدا . ثم أتاح لها الماء .. فشربت تماما . فى هذه الحالة تختزن الإبل كميات من المياه فى مثاناتها عدة أيام قبل أن تستهلكه تدريجيا . طريقة يلجأ إليها بدو الصحراء حتى الآن .

وعلى طول الطريق الصحراوى الخطر إلى الشـــام كان خالد ينحر كل يوم عددا من هذه الإبل ليشرب جيشه الماء من بطونها . ثم بدأ خالد يشتبك مع العدو . إن وصوله إلى مدينة «تدمر» كان مفاجأة مذهلة . إن معركته فى «مرج راهط» – ١٥ ميلا شـــرق دمشـــق – كانت مفاجـــأة أخـــرى . ثم توالت المعارك .. ولكنها جميعا كانت تمهيدا إلى المعركة الفاصلة بين الروم والمسلمين . معركة اليرموك .

فى اليرموك يقول خالد لعدد من جنوده إن الروم قد استعدوا تماما لهذا اليوم و«.. هذا يوم له ما بعده . إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم . إن هزمونا لن نفلح بعدها» .

الســـطر الأخير تحته مائة خط . ليس هذا صدام جيشـــين . هذا صدام أقدار . ليس فى هذه المعركة منتصر ومهزوم . فيها فقط حى وميت . قاتل وقتيل .

بهـــذه الـــروح ، بهذا الجيش ، لهذا الهدف .. دخل خالد بن الوليد معركة اليرموك . النتيجة : انتصار ســـاحق . حســـاب طويل صُفِّىَ .. وحســـاب طويل فتح .. بعضه مستمر حتى اليوم .

لقد اســـتطاع الســـيف أخيرا أن يســـتخلص ثأرا ويسوى حســـابا مفتوحا منذ انسحاب الجيش الإســـلامى الذى أرســـله النبى إلى حدود الروم قبل ثلاث سنوات : «غزوة مؤتة» . كان خالد جنديا فيها ثم قائدا .. تتذكر ؟

❑❑❑

انتهت المعركة الحاسمة .

خطاب من المدينة .

مفاجـــأة .

«.. أوصيـــك بتقـــوى الله الـــذى يبقى ، ويفنى ما ســـواه . الذى هدانـــا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك .. وقد أبلاك الله بى . وأبلانى بك . فغمض بصرك عن الدنيا» .

نحن فى السنة الثالثة عشرة هجرية حينما تسلم أبو عبيدة بن الجراح بمقره فى جيوش الشام هذا الخطاب القادم من طرف عمر بن الخطاب فى المدينة .

فى الخطاب خبر : وفاة أبو بكر وتولى عمر بن الخطاب منصب الخلافة من بعده .

وفـى الخطـاب مفاجأة : عزل خالد بن الوليد من منصـب القيادة العامة على جيوش الشام – مازال قائدا على جيش العراق – ثم تولية أبو عبيدة مركز القيادة مكان خالد .

ولقد أشـار المؤرخون إلى أسـباب كثيرة تبرر أو تفسر عزل خالد . قال بعضهم: إن عمر بن الخطاب لم ينس لخالد زواجه بامرأة مالك بن نويرة ليلة قتله ، باعتباره عملا يخالف تقاليد الجاهلية والإسلام .. خطأ من المؤرخين .

وقال بعضهم إن عمر كان يحتفظ لخالد برواسـب قديمة منذ أيام الجاهلية . خطأ آخر من المؤرخين .

إذن .. فما هو السبب ؟

إن عمـر عزل خالد مرتين . عزله أول مرة من القيادة العامة للجيش فى السـنة الثالثة عشـرة هجريـة ، واختار مكانه أبا عبيدة بن الجراح . ثم قـرر عمر عزل خالد نهائيا من الجيش ، أو السلطة ، بعد أربع سنوات .

فى المرة الأولى كان الموقف بسـيطا . لقد انتهت المرحلة الحاسمة فى معركة اليرموك.. وبـدأت مرحلـة أخرى . مرحلة تحتاج إلى كثير مـن المرونة وقليل من الحرب . لهذا كان أبو عبيدة بن الجراح هو الرجل المناسـب للمرحلة الجديدة . إنه سياسـى أولا ، ومحارب ثانيا .. بعكس خالد .

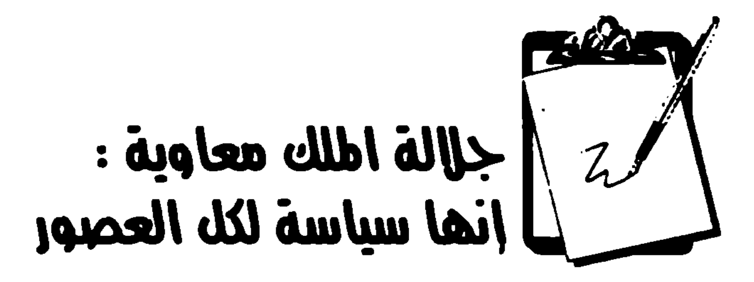
أما فى المرة الثانية فكان الموقف معقدا قليلا . إن عمر عين خالدا أميرا على «قنسرين» بعد فتحها . ولكن عمر علم ذات يوم أن خالدا أعطى لأحد الشعراء مكافأة مالية ضخمة.. فأرسـل عمـر إلى أبى عبيدة بـن الجراح يطلـب التحقيق مع خالد بـن الوليد فى مصدر هـذا المـال . إذا كان خالـد قد صرفه من مالـه الخاص .. فهو مسـرف . وإذا صرفه من مـال المسـلمين .. فهو خائن لأمانة المنصـب العام . وفى الحالتين فـإن خالد معزول من جميع مناصبه.

عنـد هـذا الحد أرسـل عمر بن الخطاب يذيـع فى البلاد : «.. إنـى لم أعزل خالدا عن سـخطة ولا عن خيانـة . ولكن الناس فتنوا به . فخشـيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا . وألا يكونوا بعرض فتنة» .

آه .. إذن هذا هو السـبب أخيرا ؟

إن عمــر يريــد من الناس أن ترى خالدًا بطــلاً .. وليس معجزة . البطل يمكن تكراره . المعجزة لا يمكن .

وعمــر يــرى أن إعجاب الناس بخالد قد وصل إلى نقطة الخطــر . نقطة الإعتماد عليه والاتــكال علــى ماضيه . وأن خالد فرد . والمجتمعات العظيمــة لا تقدس أفرادا مهما علا شــأنهم . إنها تعشــقهم ، تحبهم ، تعجب بهم ، ولكنها أبدا .. لا تعفيهم من الحساب والمراجعة .



جلالة الملك معاوية :
إنها سياسة لكل العصور

– ١ –

القضية هى : من قتل عثمان ؟

– ٢ –

معاويــة بن أبى ســفيان هو مندوب خليفة المســلمين عثمان بن عفــان فى الولاية على الشام . فى الواقع أن معاوية تولى هذا المنصب منذ سنوات طويلة بقرار من عمر بن الخطاب بحكم مكانته وكفاءته .

أما كفاءته ، فقد كان معاوية ذكيا إلى درجة الدهاء .. مناورا إلى درجة الخديعة .. ناعما إلى درجة الالتواء .. مطيعا إلى درجة الممالأة .. هادئا إلى درجة التربص .. مرنا إلى درجة التقلب .. طموحا إلى درجة الجشــع .. لماحا إلى درجة اكتشــاف مكان الضعف فى نفوس البشر .. مصانعا إلى درجة المكيدة .. مجاريا لمن فوقه .. متسلطا على من تحته .

هذا إذن رجل سياســة !

– ٣ –

طوال حكم عمر بن الخطاب كان الجهاد كله ضد العدو الخارجى . لهذا برز معاوية ، وأصبحت مزاياه مضافة إلى المسلمين . بينما عيوبه محسوبة ضد عدو المسلمين .

وشــىء آخر : كان عمر شــديدا فى الحق . قويا فى الشــخصية . محاسبا لمرءوسيه . عادلا مع رعيته. لهذا أبرز له معاوية مزاياه .. وأجل طموحه .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٥/٩/٢٠

ولكن عمر مات .. وجاء بعده عثمان بن عفان خليفة على المسـلمين . إن عثمان مؤمن وصادق وطيب ودمث ومتسامح ولين ورقيق .. وفى السبعين من عمره .

وشىء آخر : إن الخليفة الجديد ـ عثمان ـ تربطه بمعاوية علاقة قرابة ومصاهرة .

من هنا نبدأ .

— ٤ —

تولى عثمان منصب الخلافة بعد عمر بن الخطاب بالشورى . تولاه فى سنة ٢٣ هجرية . وخلال سـنوات قليلة نشـأت قضايا جديدة أصبحت تحتاج إلى أجوبة جديدة . أن الدولة الإسـلامية التى كانت ناشئة تتجه إلى التوسـع .الآن أصبحت ثابتة تميل إلى الاستقرار . والفتح الإسـلامى الـذى كان منطلقا بحكم العقيدة .. أصبحـت الآن مخاطره أقل ومزاياه أكـبر . إننا الآن أمـام دولة قوية ، ممتدة ، غنية ، تحولت مشـكلتها من الحصول على الثروة إلى كيف توزع الثروة .

عثمان بن عفان يوزع الثروة . لقد اجتهد فأصاب .. واجتهد فأخطأ .

أحـد أخطائه أنه لم يضع ضابطا مقنعا متفقا عليه لتوزيع الثروة . مثلا .. مثلا .. منح من خزانة الدولة – بيت المال – سـتمائة ألف درهم لأحد الصحابة ، ومائتى ألف لواحد آخر . وثلاثمائة ألف لواحد ثالث .

كان هذا إساءة للتصرف .. لولا أن الواحد الأخير هو عم الخليفة ـ عثمان بن عفان .

الآن أصبحت الإساءة تمس نزاهة الحكم .

وبدأ الناس يتهامسون ، ولكنهم اكتفوا بذلك .

— ٥ —

لم يكن عثمان بن عفان يعلم ، بعد ، أن مؤرخا إسلاميا سوف يسجل له إنجازاته على النحـو التالى : إن عثمـان «هو أول من أقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالآذان يوم الجمعة ، وأول من رزق المؤذنين ، وأول من ارتج عليه فى الخطبة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوض إلى النـاس إخراج زكاتهـم ، وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه ، وأول من اتخذ صاحب شـرطة ، وأول من اتخذ المقصورة فى المسـجد خوفا من أن يصيبه ما أصاب عمر ، وأول

من وقع فى عهده الاختلاف بين الأمة .. فخطأ بعضهم بعضا فى زمانه فى أشياء نقموها عليه ، وأول من هاجر إلى الله بأهله ، وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة ، وأول منكر ظهر بالمدينة فى عهده .. حين فاضت الدنيا ، وانتهى سمن الناس» .

– ٦ –

الناس فى أى أمة .. يسمعون من الحاكم أشياء كثيرة ، من غير أن يتكلم . إن الحاكم يحتاج إلى معاونين . أنظر إلى المعاونين ، ترى الحاكم . وانظر إلى أساس اختيارهم .. تعرف أساس الحكم .

وقد نظر الناس يوما .. فوجدوا الولايات الأربع الكبرى فى الدولة الإسلامية يتولاها أربعة من أقرباء عثمان .

إنها إذن مسألة ولاء .. قبل الكفاءة .

مرة أخرى : نزاهة الحكم .

حينما فسدت المعايير أمام الناس .. اختلت النزاهة . من الاختلال انقسم الرأى . من الانقسام اضطربت الرؤية . من الإضطراب اهتزت الدولة . من الاهتزاز ولد التمرد .

عثمان بن عفان يواجه التمرد . أحيانا بالتراجع ، فيعزل واليا له ثبتت عليه الخمر . وأحيانا بالنصيحة .

ولكن أهل النصيحة حوله هم أنفسهم محل الشكوى . إنهم محل ثقته هو . ولكنهم محل سخط الناس . لقد استغلوا فيه طيبته وشيخوخته .. فصوروا له الشكوى فى كل مرة على غير ما هى عليه . لقد بدأوا يصنفون له المعارضين لقراراته فى تصنيفات مقررة مقدما : هذا حاسد لك .. وهذا طامع فيك .. وهذا أقل منك .. وهذا متحامل عليك .. وهذا متآمر ضدك .

فى البداية .. لم يكن هناك تآمر .

كانت هناك شكوى . الشكوى اتجهت أولا ضد ولاة عثمان . بعدها اتجهت ضد بطانته . أخيرا اتجهت ضده .

– ٧ –

الناس يسمعون من الحاكم أشياء كثيرة من قبل أن يتكلم .

- ٨ -

عندما لم تذهب عاصمة الدولة إلى المتمردين فى ديارهم تبحث شكواهم .. ذهب المتمردون إلى العاصمة ينقلون تمردهم . إنها سنة ٣٥ هجرية . إن «المدينة» .. وهى عاصمة الدولة الإسلامية .. أصبحت تحت الأحكام العرفية . أحكام فرضها المتمردون القادمون بأسلحتهم من مصر والعراق والكوفة .

عثمان بن عفان يطلب النجدة من ولاته .. الذين هم أيضا أقرباؤه . معاوية بن أبى سفيان والى الشام هو أقوى أقربائه .

لم يحضر أقرباؤه . تصرف سوف يسجله فيما بعد المؤرخ الأجنبى جيبون بقوله : «راح الخليفة الوقور الذى تخلى عنه أولئك الذين استغلوا بساطته ، ينتظر يائسا ... اقتراب موته» .

- ٩ -

التمرد يزداد قوة . الأحكام العرفية تشتد . الأقرباء يتخاذلون . والخليفة - الآن تحت الحصار - لا يجد لغة مشتركة بينه وبين الثائرين . إن الدين لا يردعهم ، لأنهم يتكلمون عن الدنيا . عثمان بن عفان نفسه كان مرحلة انتقالية فى الدولة الإسلامية بين الدين والدنيا .

إنه الآن تحت الحصار - منذ ٢٢ يوما وهو محدد الإقامة . لا تفاهم . ولا نجدة . ولا معونة ، ولا ماء ... ولا منطق .

فعندما يضطرب الناس يختفى المنطق . الآن دارت عجلة الثورة المسلحة ضد الخليفة لأول مرة فى الدولة الإسلامية ، ولن يستطيع أحد إيقافها . إن الحصار على منزل الخليفة يشتد ويشتد ويشتد ، ثم ...

- ١٠ -

صحا الناس فجأة على سؤال خطير :

من قتل عثمان ؟

- ١١ -

وقضية أخرى عاجلة : من يحكم .. بعد عثمان ؟

عنـد هذا السـؤال برزت إجابات جديدة . الإجابـة الأولى هى : على بن أبى طالب . إنه ، بحكم فضله وعلمه وإيمانه ومكانته وقرابته من الرسول مرشح للخلافة .

فـى البدايـة رفض على .. فالذين يعرضون عليه الخلافة هـم الذين يحكمون العاصمة بالقوة المسـلحة . والذين يملكون البيعة هم كبـار الصحابة وأهل الرأى . فى النهاية وافق على بن أبى طالب .. وحصل على البيعة .

ولكن المشكلة لها إجابة أخرى : معاوية بن أبى سفيان .

من هذه الإجابة سوف تبدأ المشكلة . أكبر مشكلة واجهتها الدولة الإسلامية .. حتى الآن .

– ١٢ –

كان التناقض بين الشخصين المتنازعين على الخلافة ، هو تناقض لا مكان فيه للحلول الوسط . الصراع على السلطة لا مكان فيه للحلول الوسط .

كان علـى بـن أبى طالب رجلا يعيـش متأخرا عن عصره . إنه يمثـل الدين والضمير والصدق والحق والمبدأ والشـرعية . إن القضايا عنده أهم من الأشخاص ، والدين عنده فوق الدنيا ، والثواب عنده موجود فى الآخرة .

وكان معاوية عكس هذا كله . رجل يمثل الدنيا والقوة والثروة والأمر الواقع . لقد مضت عليه سـنوات طويلة فى موقع حقيقى للسـلطة .. هو الولاية على الشـام . إن وراءه جيشا حقيقيـا . وفـى جيبه جوائز عاجلة . وفى يده أموال جاهـزة تعطى لأنصاره الثواب فى الدنيا ، وليس فى الآخرة .

ولأن علـىَّ بـن أبى طالب أصدق دينا وأقدم جهـادا وأطهر ضميرا وأعدل حكما وأقوى حجـة .. فـإن معاوية فى البداية لم يطرح قضيته الحقيقيـة دفعة واحدة . إن قضيته هى طموحه . وطموحه هو أن يصبح هو نفسه الخليفة الجديد للمسلمين بعد عثمان .

ولكن معاوية رجل سياسة . لهذا اختار قضية أخرى يغلف بها قضيته الحقيقية . إنه قريب لعثمان بن عفان ، وهو ساعده الأيمن فى حياته . لماذا إذن لا يصبح متحدثا باسمه بعد موته ؟

وبدلا من أن يبايع معاوية الخليفة الجديد الشـرعى – علىَّ بن أبى طالب – فإنه طرح قضية مضادة يعلم مقدما أنها القضية الوحيدة التى تعطيه الشعبية التى يفتقدها .

- ١٣ -

القضيـة هى :

من قتـل عثمـان ؟

- ١٤ -

من هنا بدأت أول حرب أهلية فى تاريخ الإســلام . إن الخليفة الجديد ـ عليا ـ يريد الاعــتراف بـــه أولا .. ويريد أن تصبح لديه قوة فعلية ثانيـــا .. ويريد أن يقضى على هذه الحرب الأهلية ثالثا .. ثم يريد أخيرا الحكم فى قضية مقتل عثمان بناء على أدلة حقيقية . إن الجريمة هى القتل ، وهو حد من حدود الله . والجريمة هى قتل الخليفة ، وهو منصب تتركز فيه هيبة الدولة كلها .

ولكن علىَّ بن أبى طالب يخاطب فى الناس دينهم وضميرهم .

أما معاوية فيخاطب فيهم دنياهم وجيوبهم .

الآن سوف يبدأ كل طرف منهما فى تجميع أنصاره . والآن سوف تنشق الأمة كلها فيما بينهما . إن الفريق الأول يرفع قضية مشــروعة هى شــرعية الخلافة . والفريق الثانى يرفع أيضا قضية مشروعة هى التحقيق فى مقتل عثمان بن عفان .

لم يكن هناك فاصل سوى السيف .. فبدأت الحرب .

- ١٥ -

موقعة الجمـل .

انتصر على بن أبى طالب ضد جزء من المنشقين عليه . ولكنه انتصار حزين . ففى هذه المعركة لم يكن المســلم يقاتل المســلم فقط .. ولكن الأخ يقاتل أخته ، والأب يقاتل ابنه . والخاسر فى النهاية هو طرف غير الطرف الأصلى الذى تدور الحرب تحت شعاره .

ففى ذلك اليوم لم يقتل المسلمون قتلة عثمان .. ولكنهم قتلوا فقط بعضهم البعض .

وظلت القضية قائمة .

- ١٦ -

من قتل عثمان ؟

- ١٧ -

حتى الآن لم تحدث مواجهة مباشـرة بـين جيش على وجيش معاوية . الجيش الأول مركزه العراق .. والثانى سـوريا (يسـمونها الشـام) . وللمرة الألف فى التاريخ .. يصبح مفتاح الموقف موجودا فى مصر .

لقـد فكر معاوية فى الاحتمال الخطر : إن والى مصر يمثل علىّ بن أبى طالب .. واسمه قيس بن سعد . ان مصر توجد غربا .. والعراق شرقا . وسوريا فى الوسط . إن عليا سوف يسير إلى الشام بجيشه من العراق .. ولو سار قيس هو الآخر بجيشه من مصر .. يقع معاوية بينهما فى كماشة . إذن .. المفتاح الآن هو مصر .

فى البداية حاول معاوية أن يكسب والى مصر إلى صفه . لقد كتب إليه يطلب رأيه فى قضيتين محددتين بالذات . إنه يقول له أولا : «تب إلى الله يا قيس ...».

ويقـول له ثانيا : «.. فإذا اسـتطعت يـا قيس أن تكون ممن يطاليـون بدم عثمان ، فافعل ، وتابعنا على أمرنا .. ولك سـلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت . ولمن أحببت من أهلك سـلطان الحجاز ما دام لى سـلطان ، وسلنى ما شئت فإنى أعطيك ، واكتب لى برأيك» .

ودهش قيس من الخطاب . إن معاوية يرشـوه . والرشوة التى يعرضها هى حكم العراق مدى الحياة وحكم الحجاز لأقربائه .. مقابل .. مقابل ماذا ؟

مقابل التضامن مع معاوية فى صراعه على السـلطة . وقيس لا يقل عن معاوية ذكاء . وهو يعلم جيدا أن السـلطة - وليسـت جريمة قتل عثمان بن عفان - هى طموحه الأكبر . ولكـن .. إذا كان معاويـة يسـتطيع أن يكون ملتويا مرة .. فإن قيسـا يسـتطيع أن يكون ملتويا مرتين .

- ١٨ -

فى دمشق . قرأ معاوية خطاب قيس بن سعد من مصر .. فإذا به يقرأ : لا شىء . إن قيسا ليس ضده . ولكنه أيضا . ليس معه . هذا هو كل شىء !

وأعاد معاوية الكتابة إلى قيس . مهددا ومتوعدا وطالبا موقفا محددا .

وأخيرا .. جاء الموقف المحدد : إن قيسا يرفض التنكر لشرعية على بن أبى طالب .

وعلى الفور تحرك معاوية فى اتجاهين . فأولا : أشـاع فى الناس أن قيسـا قد انضم إليه ، وقد وصل حالا خطاب منه بذلك .

وثانيا : طلب من تابعيه فى العراق أن يشـيعوا ذلك حتى يفقد الخليفة ثقته فى واليه بمصر .

والنتيجة : قرر على بن أبى طالب عزل واليه بمصر !

وسـوف تمر شـهور طويلة ، قبل أن يكتشـف على بن أبى طالب براءة قيس . لكن .. ساعتها يكون الوقت قد فات !

– ١٩ –

الحلفاء يتجمعون . الجيوش تتحرك ـ من سـوريا غربا ، ومن العراق شـرقا ـ والقضية هى :

من قتل عثمـان ؟

– ٢٠ –

فى الحياة العادية نستطيع أن نحكم على الإنسان بنوع أصدقائه .

وفى السياسـة نسـتطيع أن نحكم على السياسى بنوع حلفائه ومعاونيه . ولأن على بن أبى طالب واضح .. فإنه يخاطب فى الناس ضميرهم . ويحدثهم عن نصرة الدين . ويعدهم بالثواب فى الآخرة .

ومعاوية بن أبى سفيان هو الآخر واضح . إنه للمرة المائة يخاطب فى الناس جيوبهم ، ويحثهم على نصرته هو شـخصيا . ويعدهم بالثواب فى هذه الدنيا .. الآن .. ونقدا . إنه ينمى فى الناس أطماعهم ، ويتحدث معهم بمنطق المصلحة المشـتركة . ويعدهم باقتسـام الغنائم ، ويضع تحت تصرفهم عينة من الرشوة .. وعربونا للتحالف .

هذه بروفة مبكرة لماكيافيللى حيث الغاية تبرر الوسيلة . هذه أيضا بروفة مبكرة لنوع من الحكام السياسيين سوف يتكرر ظهوره كثيرا فى التاريخ العربى . سياسيون يرفعون أقدس الشعارات . بينما تحركهم أسوأ الدوافع . ويجمعون حولهم أسوأ بطانة .

إن معاويـة هـو إذن رجل لكل العصور . أو حاكم لكل العصـور . إنه يمثل قوة العقل البشرى .. بمثل ما يمثل ضعف المشاعر الإنسانية . إن المشاعر الإنسانية والدوافع البشرية

هي من النوع المعقد جدا ، بحيث لا يمكن تفسيرها أحيانا بالمنطق ، ولكن يمكن تفسيرها غالبا بالمصلحة . معاوية يؤمن بالمصلحة . إن الغاية عنده تبرر الوسيلة ، والولاء لشخصه أهم من الولاء لمبدأ . إنه سوف يجرب كل وسيلة في الحصول على هذا الولاء .. الإقناع والإرهاب والأطماع والرشوة والخديعة وكل شيء .. كل شيء .

نحن هنا أمام نموذج بشرى لرجل سياسة .. بعد أن كنا – أيام عمر بن الخطاب – أمام نموذج بشرى لرجل دولة . عمر كان يبنى المواطن أولا .. ولكن معاوية يبنى السلطة . وكان عمر يحاول أن يجعل الناس أفضل مما هم عليه . ولكن معاوية ليست لديه مثل هذه الرغبة . معاوية رجل عملي . لقد ورث عن أبيه قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته . وكسب من عصره إغراء الدنيا وطمع السلطة . وكسب من أحلامه هو شيئا أهم : عبادة السلطة .

لقد أصبحت السلطة بالنسبة له هي الهدف . والحصول عليها هو الغاية ، والاستمرار فيها هو الجائزة . إننا من الآن فصاعدا لن نرى حوله – داخل السلطة – سوى إناس من نفس عقليته وتفكيره . إنه أمام الناس يرفع الشعار الذى لا يستطيع أحد أن يعارضه . شعار : الانتقام من الذين قتلوا عثمان بن عفان . ولكنه أمام معاونيه يطرح المصلحة التى لا يستطيعون مقاومة إغرائها . إن الذين غشيهم الشعار فيه بدأوا ينفضون .. والآن لن يبق سوى الذين تشدهم إليه المصلحة .

إن عمرو بن العاص ، مثلا ، الذى كان عثمان بن عفان قد عزله من ولاية مصر فى حياته .. يطلب من ولديه – في حوار عائلي – أن يشيرا عليه .. لمن ينضم : لعلى بن أبى طالب .. أو لمعاوية بن أبى سفيان ؟

– ٢١ –

دمشق . معاوية يتفاوض مع عمرو بن العاص : ما هو ثمن انضمامك إلى ؟

عمرو يرد على معاوية فى إيجاز وحسم : والله يا معاوية أنت لا تقاتل عليا ولا عليٌ يقاتلك تنافسا على دخول الجنة .. إنكما تتقاتلان على الدنيا .. فأطعمنا مما تأكل لكى نناضل عنك نضال من يريد الأكل !

هذه لغة يعرفها معاوية . وصراحة يريدها . واختصار يحبه . إذن : فلتكن العودة إلى ولاية مصر هى نصيب عمرو بن العاص من الأكل !

– ٢٢ –

ذى الحجة . موقعة صفين . سنة ٣٦ هجرية .

الجيشان يتقاتلان بغير نتيجة . أخيرا يهجم على .. ويتراجع معاوية . وعندما تشاور معاوية مع عمرو بن العاص نصحه بالاحتكام إلى المصحف .

رفعت المصاحف . تمت الهدنة . التحكيم بعد الهدنة . الفريق الأول اختار أبا موسى الأشعرى . والفريق الثانى اختار عمرو بن العاص .

بعد ستة أشهر اجتمع الحكمان ليتفقا على حل ينقذ الأمة من الحرب الأهلية . أخيرا اتفقا : يتم الإعلان عن خلع الاثنين المختلفين – على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان – وتعود الشورى إلى الأمة لاختيار من تراه لتولى منصب الخليفة .

وخرج الاثنان على الناس يعلنان قرارهما . أما عمرو بن العاص فقد طلب من أبى موسى التحدث أولا .

وتكلم أبو موسى . ثم تكلم عمرو بن العاص ، فقال : أما صاحبكم فقد خلع صاحبه .. أما أنا فأخلع أيضا صاحبه ، وأثبت صاحبى !

وهاج فريق على بن أبى طالب . إن هذا غش .. واحتيال .. وخداع .

و ... سياسة !

– ٢٣ –

من قتل عثمان ؟

– ٢٤ –

من عاصمته – دمشق – يعلم معاوية أن أتباع على فى العراق منقسمون على أنفسهم .. منهم من خرج عليه .. ومنهم من انشق ضده .

هنا يقرر معاوية شن حرب عصابات ضد أطراف المناطق الموالية لعلى فى العراق . ومن الآن فصاعدا سوف يضطر على إلى خوض معارك دفاعية ليس فيها انتصار واحد . ولكن فيها هزائم متتابعة .

شىء آخر يعلمه معاوية : إن عليا قد عين مندوبا جديدا اسمه «الأشتر» ليصبح واليا له على مصر . إن معاوية يعرف «الأشتر» جيدا . يعرف أن كفاءته . زائد موارد مصر .

سـوف تكونان عونا ضخما لعلى . ويعرف أن في الطريق إلى مصر واحة محددة يجب أن يبيت فيها «الأشتر» ليلة واحدة أو ليلتين .

وعلى الفور اتخذ معاوية قرارين : أولا ـ رسـالة سـرية منه إلى زعيم القبيلة المقيمة في الواحـة ، يطلـب منه معاوية فيها مهمة محددة ، ويعفيه فـى مقابلها من دفع الضرائب مدى الحياة .

ثانيـا – خـرج معاوية إلى الناس يخبرهم بتوجه «الأشـتر» إلى مصـر .. ويطلب منهم مشاركته في الدعاء عليه في صلاتهم كل يوم .

بعد أيام قليلة جاء الخبر : مات «الأشتر» .

إن الناس وقتها لم تعرف أنه مات مسموما . لقد عرفوا فقط أن معاوية مستجاب الدعاء عند الله .. وصاحب كرامات .. وربما من أولياء الله الصالحين .

– ٢٥ –

قتل على بن أبى طالب .

– ٢٦ –

فجـأة تغير كل شـىء : فالذين خذلوا عليا فـى حياته ورفضوا الخروج إليه في حرب أخـيرة ، أصبحـوا الآن يبايعـون ابنه الحسـن ، ويطلبون منه الخـروج إلى الحرب ضد معاوية .

أخيرا ، تمت المفاوضات . في هذه المرة أعطى معاوية للحسن كل ما يريد .

– ٢٧ –

معاويـة بن أبى سـفيان يحمل لقـب الخلافة رسميا لأول مرة ، ويقـف في الكوفة . والحسـن يخطب بجانبه : أيها الناس .. إن أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور . ان هذا الأمر الذى سلمته لمعاوية .. إما أن يكون حق رجل كان أحق به منى فأخذ حقه .. وإمـا أن يكـون حقى فتركته لصلاح أمة محمد وحقن دمائهـا . فالحمد لله الذى أكرم بنا أولكم ، وحقن دماء آخركم .

كلمات قالها الحسن ، ثم انصرف إلى الحجاز ، مقيما في المدينة .

- ٢٨ -

لم تحقن الدماء . فمعاوية يعلن للناس فى الكوفة : انتهى وقت الوعود .. وجاء وقت الشدة .

- ٢٩ -

سنة ٥٠ هـ . الحسن يموت مسموما .

البعض يقول إنها ليست قضية سياسية . الأغلبية تؤكد أن معاوية هو الذى دبر تسميمه .

- ٣٠ -

دمشق . إنها سنة ٥٦ هـ . ومعاوية يقيم حفلا لمبايعة ابنه يزيد للخلافة من بعده .

وخلاصة الحفل يبلورها أحد المبايعين بنهوضه رافعا سيفه معلنا على الجميع : أمير المؤمنين هو هذا (وأشار إلى معاوية) .. فإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد) .. فمن أبى فهذا (وأشار إلى سيفه) .

- ٣١ -

نحن الآن أمام كل الملامح السياسية لحكم معاوية . إن الخلافة الآن فى يده . وهى وراثية فى أسرته من بعده . إنها خلافة نشأت ، وتستمر ، بحق القوة المسلحة . من قبل هذا فأهلا به وهو آمن على نفسه وماله وعياله . من اختلف ، فلرقبته السيف .

هذه إذن بذرة الاستبداد السياسى الذى سيشل عقول المسلمين لألف سنة بعدها . فتحت شعار «وحدة الكلمة» سوف يصادر السلطان كل كلمة . وتحت شعار «حماية الإسلام» سوف يحمى السلطان نفسه ، ويصادر عقول المسلمين ، ويقطع ألسنتهم . فى الواقع أن معاوية نفسه قد لخص سياسته كلها بقوله : «إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم .. مالم يحولوا بيننا وبين سلطاننا» .

إنها إذن مسألة سلطة . وعبادة سلطة . يستطيع الناس أن يتكلموا ويناقشوا ويختلفوا ويجتهدوا ويعترضوا .. إلا فى السياسة . من أجل هذا سوف ينهض العرب فى كل العلوم . وسوف ينطلق تفكيرهم فى كل مجال . إلا فى البحوث السياسية .

من أجل هذا سوف يسقط طاغية ، ليرتفع طاغية . لا أحد يعرف لماذا اختفى من سقط .. ولا لماذا استمر من ارتفع . إن الكارثة هى نفسها فى كل مرة ، ومع ذلك فالسبب واحد فى كل مرة . السبب هو أن المسلمين أصبحوا ـ من الناحية السياسية ـ قوما فاقدى الذاكرة !

إنهم يكتبون تاريخهم السياسى على استحياء شديد . ويدورون حول كل مفاسد السلطة فى تردد كامل . فلأن كل سلطان يحصل فى عصره على منتهى التصفيق .. يصبح من الحرج الشديد بعد ذهابه أن يلاقى أى قدر من الحساب . وحتى حينما يحدث حساب .. فإنه يحدث بعد أن يمضى الشهود الحقيقيون ، وبروح من التردد والحياء ، وبهدف استغفار الله له ولقومه من بعده . إن الحاكم لم يكن ظالما لأنه أراد الظلم ، ولكن لأن الظروف دفعته إلى ذلك دفعا . أو ـ إذا لم تكن حجة الظروف مقنعة ـ فليكن أعوانه هم الذين ظلموا الناس بغير علمه . أو .. أو .. أو ..

المهم .. إن كل حاكم جديد يبدأ سلطته وهو لا يعرف على وجه الدقة أساس سلطته ولا قواعد مراجعته . إن الأمة لم تحدد له بوضوح : ما الذى ستتسامح فيه ، وما الذى لن تغفره له .

الأمة لم تفعل ذلك لأنها هى نفسها لا تعرف . وهى لا تعرف لأنها لا تدرس . وهى لا تدرس لأنها لا تناقش تاريخها على أساس من العقل . إن المؤرخين الإسلاميين غالبا لم يتركوا لنا تاريخا .. ولكنهم كتبوا لنا تقاريرا عاطفية . تقارير أساسها الحب والكراهية . فى الكراهية نحن نلعن بلا حيثيات . وفى الحب نحن نقدم للحكام شهادات بحسن السير والسلوك .. وبغير أدلة .

من وقت معاوية بدأت الأدلة .

فنتيجة لاختلاط الدين بالسياسة ، لم يعرف المسلمون على وجه الدقة : أين تنتهى مهمة الخليفة دينيا فيحاسبه الله .. وأين تبدأ وظيفته سياسيا فيحاسبه الناس .

معاوية رفض أن يحاسبه الناس . إنه وصل إلى الحكم بمذبحة . واستمر فيه عشرين سنة بمذبحة . وسوف يضيع الحكم من أسرته بمذبحة . وفيما بين المذبحة . والمذبحة المضادة .. فيما بين الأمويين والعباسيين .. سوف يضيع من المسلمين نصف تاريخهم السياسى .

- ٣٢ -

معاوية رجل سياسي .

لقد انتهى من الحصول على البيعة لابنه في دمشق .. ورتب بالسيف إزالة متاعبه في مكة والمدينة .. وعاد إلى دمشق .

في دمشق دخل إليه سعد بن أبي وقاص - الصحابي الجليل - محييا .

قال سعد : السلام عليك أيها الملك ..

ضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحاق رحمك الله لو قلت لي .. يا أمير المؤمنين ؟

رد سعد في مرارة : هل أنت تقولها ضاحكا ؟ والله ما أحب لنفسي أن أتولاها ، بالطريقة التي توليتها أنت .

- ٣٣ -

سنة ٦٠ هـ .

مات معاوية . عند موته كان قد نسي أشياء كثيرة . نسي مثلا أنه .. أنه .. أنه ..

- ٣٤ -

من .. قتل عثمان ؟

كتب للمؤلف

دراسات سياسية

- ممنوع من التداول - (دار الشروق) - الطبعة السابعة
- أفكار اسرائيلية - (كتاب الإذاعة) - الطبعة الثانية
- الحرب الرابعة - سرى جدا - (المكتب المصرى) - الطبعة الثالثة
- متمردون لوجه الله - (دار الشروق) - الطبعة الثالثة
- وعليكم السلام - (دار المستقبل العربى) - الطبعة الثالثة
- بالعربى الجريح - (دار المعارف) - الطبعة الثانية

دراسات أدبية

- أفكار ضد الرصاص - (دار الشروق/ دار المعارف) - الطبعة التاسعة
- شخصيات - (دار المعارف) - الطبعة الثانية
- سياحة غرامية - (دار الشروق) - الطبعة الرابعة
- مصرى بمليون دولار - (مكتبة الأنجلو) - الطبعة الثالثة
- أوراق الى حبيبتى - (دار الشروق) - الطبعة الأولى

دراسات فنية

- أم كلثوم التى لايعرفها أحد - (كتاب اليوم) - الطبعة الرابعة
- محمد عبد الوهاب الذى لا يعرفه أحد - (دار المعارف) - الطبعة الثالثة

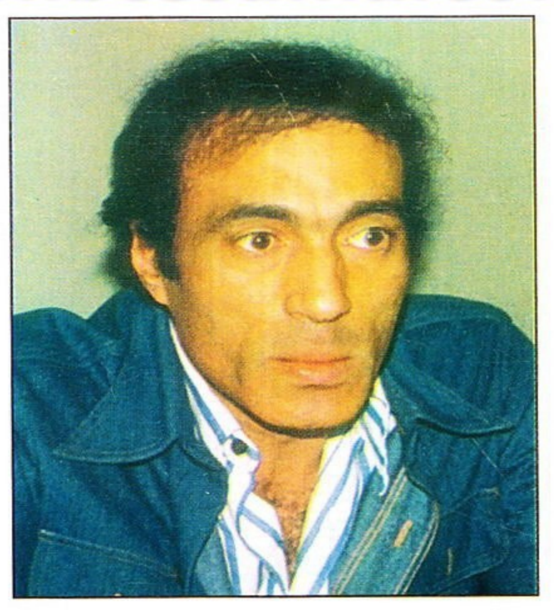
فى الرواية والقصة

- أرجوك لاتفهمنى بسرعة - (روزاليوسف) - الطبعة الثالثة
- شىء يشبه الحب - (كتاب اليوم) - الطبعة الأولى
- نوابغ العرب : ١ - طه حسين ٢ - أحمد شوقى
  ٣ - سيد درويش ٤ - سعد زغلول
  ٥ - مصطفى كامل ٦ - جمال الدين الأفغانى

تحت الطبع

- اليوم السابع - (دار ميريت)
- مختارات - (دار ميريت)

فهرس







ما هو الفن ؟ ما هى السياسة ؟ ما هو العلم ؟ ما هى التكنولوجيا ؟ ما هو الأدب ؟ ما هى الموسيقى ؟ ما هو الدستور ؟ ما هى الإيديولوجيا ؟ ثم .. ماذا تعنى خلاصة التاريخ ؟ و.. ما هى الحياة ؟

إنها أسئلة جوهرية.. وإجاباتها متعددة .

والكاتب الكبير محمود عوض ، بأسلوبه الفريد المتجدد والمتميز ، يطرح فى هذا الكتاب إجاباته الخاصة . أحيانا من خلال شخصية . أحيانا من خلال قضية . أحيانا من خلال معنى . ودائما من خلال فكرة . وبين وقت وآخر من خلال تجربة ومعاناة شخصية .

كلنا مثلا نرى النجوم .. خصوصا النجوم تحت الأضواء . لكن قلم الكاتب الكبير محمود عوض وحده يخترق لنا الأسوار ليحلل نفوس النجوم فيما وراء الأضواء وبريق الشهرة . ومن النجوم إلى الناس العاديين .. بل وحتى إلى « حسن » فى القفص .

وهذا الكتاب هو أيضا دفتر أحوال نفسية وعقلية لقلم محمود عوض عبر الزمن .. وهو الكاتب الذى سجلت مواقع على شبكة الإنترنت وإحصائيات دار المعارف أن كتبه الأكثر انتشارا .. خصوصا بين الشباب .

إنه كتاب ممتع للقارئ الذى يعرف أهمية فهم الحياة وقضاياها الكبرى.. ومعنى الرحيل فى منتصف جملة موسيقية .





دار المعارف

٠٣٤٣٥٥/٠١

